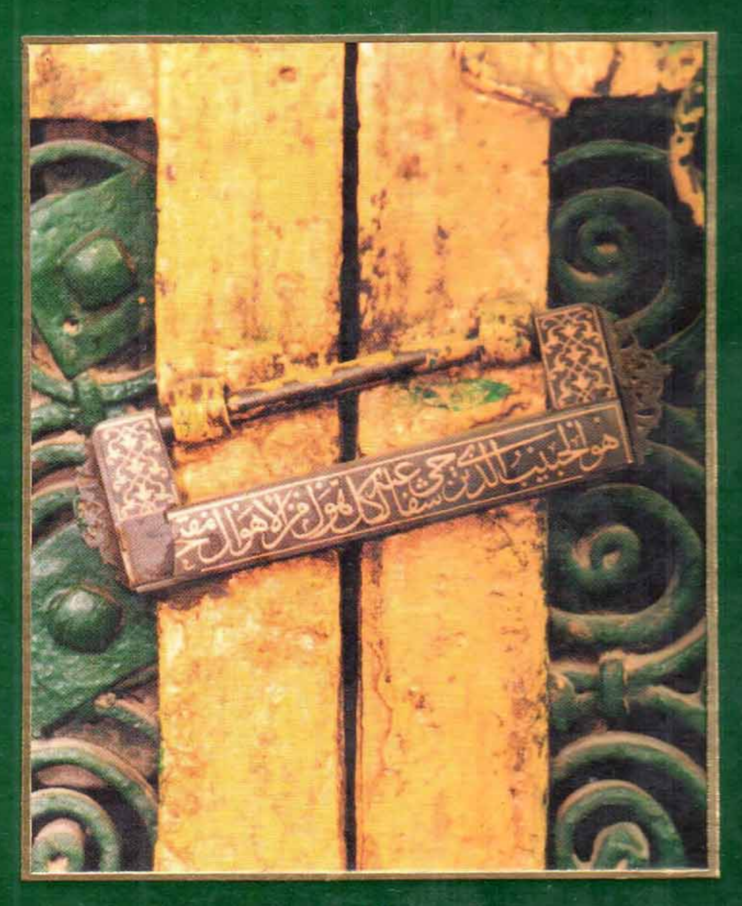
إنها فاطمة الزهراء

الدكتور محمد عبده يماني



المنار للنشر والتوزيع
دمشق



مؤسسة علوم القرآن
بيروت

إنها
فاطمة الزهراء

الطبعة الأولى

١٤١٦هـ - ١٩٩٦م



إنها

فاطمة الزهراء

رضي الله عنها

الدكتور محمد عبده يماني

مؤسسة علوم القرآن
بيروت

المنار للنشر والتوزيع
دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى روح أستاذنا الشيخ المعلّم السيّد الفقيه

إسحاق عقيل عزّوز رحمه الله
وتغمّده بواسع رحمته ورضوانه

الذي علّمنا حبّ آل البيت الطيّبين الطاهرين
رضوان الله عليهم أجمعين

وقد كان صاحب اقتراح تأليف هذا الكتاب
أسأل الله أن ينفع به إنّه سميع مجيب ..

محمد عبده يماني


إنما يريد الله
ليذهب عنكم الرجس
أهل البيت ويطهركم
تطهيرا


رَوَى البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ :
أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ :
فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي
فَمَنْ أَغْضَبَهَا
فَقَدْ أَغْضَبَنِي

إنها فاطمة الزهراء رضي الله عنها

إنها السيدة الجليلة فاطمة الزهراء . .

البضعة الطاهرة المباركة . .

الابنة البارة . .

والمجاهدة الصابرة . .

إنها فاطمة البتول .

فاطمة . . هي فاطمة . .

عندما نسترجع نسبها يأتي السؤال الكبير .

هي ابنة من؟

هي زوج من؟

هي أم من؟

من ذا يضاهي في الفخار والنسب الطاهر الشريف أباها ﷺ، أو أمها خديجة الكبرى رضي الله عنها؟

إنها فاطمة الزهراء . .

الأصل العريق وسلالة العترة النبوية الكريمة . .

إنها أم أبيها . .

كل ما فيها يشبه رسول الله ﷺ . .

وكانت أحب الناس إلى قلبه ﷺ . .

وكلهم أحباب لديه .

وهذا الكتاب عن السيدة فاطمة . . التي حفظ فيها النسب الشريف لرسول الله ﷺ . . هذه الإنسانة العظيمة التي تعتبر سيرتها وتاريخها ومسيرة حياتها جزءاً أساسياً من سيرة المصطفى ﷺ. وقصة الإسلام . . فقد وقفت مع رسول الله ﷺ وكافحت معه وتحملت الأذى وحرصت على أن تكون طوع يديه ورهن إشارته تخدمه وترعاه بعد وفاة والدتها رضوان الله عليهم جميعاً .

هذه السيدة الجليلة عندما نتحدث عن تاريخها نستعرض جزءاً أساسياً من تاريخ الأمة الإسلامية . . منذ المحنة الأولى . . منذ سنوات الكفاح الأولى في مكة . . وظلم قريش . . وقسوة قريش . . وعنت قريش . . وهي بجوار أبيها شجاعة . . قوية . . صابرة . . مطيعة . . مؤدبة . . حافظة . .

ولهذا فقد خصصت كتابي هذا عنها رضي الله عنها ، أحاول فيه أن أبسط حياتها للناشئة . . وأربط تاريخاً بتاريخ تلك الفترات المظلمة الحالكة في بداية الدعوة والمحنة الكبرى التي مر بها رسول الله ﷺ وهو يجاهد ويدعو إلى كلمة التوحيد . . ويصبر حتى بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة . . وجاهد في سبيل الله إلى أن أذن له الله سبحانه وتعالى بالهجرة إلى المدينة فأكمل الشوط وتمم المسيرة إلى أن لقي الله عز وجل . . وقد أدى الأمانة . . وبلغ الرسالة ونصح الأمة وجاهد في سبيل الله حتى أتاه اليقين .

ولهذا عندما أتحدث عن السيدة فاطمة في كتابي هذا ، أحاول بكل جهدي أن أضع الحقائق أمام الناشئة . . في غير ما غلو . . ولاتهويل . . لأن تاريخ هذه السيدة الفاضلة مليء بالأحداث العظام والمواقف المشرفة والأخلاق النبيلة والكفاح الصادق . .

ويكفينا شرفاً أن نضع الرواية الصحيحة ونلقي الضوء عليها ونبسطها . .

ثم نسعى إلى ربط الناشئة بحياة السيدة الجليلة . . وندلهم ونأخذ بأيديهم حتى يعرفوا :

من هي فاطمة؟ . .

ما الدور الذي قامت به؟

ما تلك المواقف المشرفة العظيمة التي مرت بها في حياة الدعوة الإسلامية وهي صابرة صادقة محتسبة سعيدة بالمشاركة في كل تلك الأحداث . .

ثم نلقي الضوء على الفترة التي تلت المحنة في مكة المكرمة وكيف كانت رضوان الله عليها بجواره ﷺ في المدينة فاستحقت اللقب الذي منحها إياه ﷺ :

« فاطمة أم أبيها » .

← فقد كانت أشبه ما تكون به في :

مشيتها . .

وفي جلستها . .

بضعة من رسول الله ﷺ . .

إني أقدم كتابي هذا إلى الناشئة وأسأل الله أن ينفع به وأن يعين على تبسيط وتيسير سيرة هذه السيدة الجليلة وربط أولادنا بها حتى يتعلموا جزءاً أساسياً من ذلك التاريخ المشرق الكريم لها ولأمها وأبيها وبنيها . . . فقد كانت سلالة طاهرة كريمة .

وذرية بعضها من بعض . .

* مولد الزهراء

لقد أقبل العام العاشر من زواج محمد وخديجة، ذلك الزواج المبارك لأشرف زوجين طاهرين، من الصادق الأمين، فتى قريش الأول، ومن الطاهرة، سيدة نساء قريش. أقبل هذا العام وهما يستعدان لاستقبال الثمرة الرابعة للزوجية المباركة.

وقد وقع في هذه السنة حدث جليل في تاريخ مكة والبيت العتيق، وفي التاريخ الناصع للأب الكريم، فقد أجمعت قريش أمرها على أن تعيد بناء الكعبة بعد أن طال ترددها في ذلك، تهيباً وخوفاً وتحرجاً.

وكانت الكعبة قد أخذت بها شرارة طارت من مجمرة إحدى النسوة، فأحرقت ستائرها وأوهت بنيانها، ثم انحدر سيل دافق من الردم الذي بأعلى مكة، فتصدعت الجدران المتأثرة بفعل الحريق، ووقفت قريش أمام حرمها المقدس مكتوفة الأيدي، لا تدري ماذا تفعل لتحتفظ بالبيت العتيق الذي جعل من « مكة » مثابة حج العرب جميعاً ومهوى أفئدتهم، وأنزل قريشاً بحكم جوارها للحرم، منزلة لا تدانيها منزلة قبيلة سواها.

وتم الاستعداد لتجديد الكعبة، وقريش ما تزال تتهيب أن تهدم بناءَها الأول، حتى قام الوليد بن المغيرة المخزومي فأخذ[1] المعول وقال: « اللهم لم تُرَعْ! اللهم إنا لا نريد إلا الخير » ثم أهوى بالمعول، والقوم ينظرون إليه مرتاعين، خائفين عليه وعلى أنفسهم جميعاً، فلما لم يصبه سوء قّرروا زيادة في الحرص أن يتربصوا ليلتهم تلك، ليروا ماذا يكون، وأصبح الوليد غادياً

---

(١) ابن هشام ١: ١٩٥.

على عمله لم يمسه شر، فهدم وهدم الناس معه. وتنافست القبائل في جمع الحجارة لبناء الكعبة، وشارك «محمد» ﷺ في ذلك العمل المجيد، فكان ينقل الحجر مع الناقلين، حتى إذا تم البناء اختصمت قبائل قريش في الحجر الأسود، كل قبيلة تريد أن تستأثر بشرف رفعه إلى موضعه، واشتدت الخصومة حتى أنذرت بحرب، ومكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمساً، ونذر الخطر تزداد، حتى قام فيهم أبو أمية بن المغيرة زاد الركب المخزومي وهو يومئذ أسن قريش كلها، وهو والد أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها، فقال:

«يا معشر قريش، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه، أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم فيه».

فقبلوا، وتعلقت عيونهم جميعاً بالباب ترقب الداخل ومن سيكون وإنهم لكذلك إذ أقبل رجل شاب، تام الفتوة، متزن الخطا من غير تكلف رزين من غير فتور، بهي الطلعة مع جد ووقار، فهتفوا جميعاً لما رأوه: «هذا الأمين، هذا محمد بن عبد الله الهاشمي، رضينا بحكمه»[1].

وأقبلوا عليه فحدثوه بما شجر بينهم من خلاف، فطلب ثوباً ثم تناول الحجر فوضعه بيده الكريمة في الثوب وقال:

«لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوه جميعاً».

ففعلوا حتى إذا بلغوا به مكانه، وضعه محمد ﷺ بيده ودعم بناءه، وكانت سنه يومئذ خمساً وثلاثين سنة، على ما روى ابن إسحاق. وعاد الأمين إلى بيته، حيث ترك زوجته في الغداة تعاني مقدمات الوضع، وإنها على وشك

---

(١) ابن هشام ١: ١٩٧.

الولادة، فهرول من المسجد عائداً إلى بيته ليرى ما حدث لزوجته، وماذا عسى أن تكون قد وضعت.

وكانت البشرى مولد ابنته الرابعة فاطمة في يوم الجمعة الموافق للعشرين من جمادى الآخرة، وقريش تبني الكعبة، وذلك قبل البعثة بخمس سنين.

واقترنت هذه البشرى، ببشرى نجاة قريش على يد الصادق الأمين، مما كان يتهددها من حرب ودمار، وإسالة دماء وعداوة بين الأهل والعشيرة، وأثار هذا الموقف الحكيم عاطفة الشاعر القرشي هبيرة بن أبي وهب المخزومي، فقال قصيدة كانت ترددها قريش في محافلها وأنديتها منها:

تشاجرت الأحياء في فصل خطة ... جرت بينهم بالنحس من بعد أسعد

تلاقوا بها، بالبغض بعد مودة ... وأوقد ناراً بينهم شرٌّ مُوقد

فلما رأينا الأمر قد جد جده ... ولم يبق شيء غيرُ سل المهنَّد

رضينا وقلنا العدل أول طالع ... يجيء من البطحاء من غير موعد

ففاجأنا هذا الأمين محمد ... فقلنا: رضينا بالأمين محمد

بخير قريش كلها أمس شيمةً ... وفي اليوم مع ما يحدث الله في غد

فجاء بأمر لم ير الناس مثله ... أعم وأرضى في العواقب والبَدِ

أخذنا بأطراف الرداء وكلنا ... له حصة من رفعها قبضة اليد

فقال: ارفعوا حتى إذا ما علت به ... أكفهم، وافى به غير مسند

وكلٌّ رضينا فعله وصنيعه ... فأعظم به من رأي هادٍ ومهتد

وتلك يد منه علينا عظيمة ... يروح لها [مر] الزمان ويغتدي

ولو علم الشاعر القرشي هبيرة بمولد الزهراء في هذا اليوم الأغر لكان ضمن اسمها في تلك القصيدة التي رددتها قريش، وكان أفاض في أنها بشير خير عم وحل على تلك البلاد المباركة. حمل الأب الحاني ابنته المباركة

يهدهدها ويلاطفها، وكانت فرحة خديجة كبيرة ببشاشته، وهو يتلقى الأنثى الرابعة في أولاده، ولم يظهر عليه غضب ولا ألم لأنه لم يرزق ذكراً وكانت فرحة خديجة أكبر حين وجدت ملامح ابنتها تشبه ملامح أبيها، فأدركت أن الله تعالى سوف يتعهدها برعايته وعنايته، لتكون مثلاً لأبيها في خلقه وخلقه[1].

دخل العباس رضي الله عنه على علي وفاطمة ـ رضي الله عنهما ـ وأحدهما يقول للآخر: أينا أكبر؟ فقال العباس: ولدت ياعلي قبل بناء قريش البيت بسنوات وولدت أنت يافاطمة وقريش كانت تبني البيت.

وقد استبشر الرسول ﷺ بمولدها وقال لزوجته خديجة: يا خديجة إنها النسمة الطاهرة الميمونة، وأن الله تعالى سيجعل نسلي منها. ولهذا كانت مثار اهتمام أبيها، ولاسيما أنها كانت تشبهه كما تقدم ذلك. فقد روى الحاكم في المستدرك بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه، فقالت: كانت أشد الناس شبهاً برسول الله ﷺ، بيضاء، مشربة بحمرة، لها شعر أسود.

وعن أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها قالت: كانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ أشبه الناس وجهاً برسول الله ﷺ.

وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: ما رأيت أحداً من خلق الله أشبه حديثاً وكلاماً برسول الله ﷺ من فاطمة.

رضي الله عنها وأرضاها.. فقد كانت نطفة طاهرة ونسمة كريمة باهرة..

---

(١) وقد اختلف في تعيين مولدها .. قيل: إنها ولدت بعد المبعث بسنتين. قاله الشيخ الطرطوسي في مصباح المتهجد. وقال في رواية أخرى: سنة خمس من المبعث، وروى الحاكم في المستدرك وابن عبد البر في الاستيعاب أنها ولدت سنة إحدى وأربعين من مولد النبي ﷺ أي بعد البعثة بسنة، وأكثر علماء أهل البيت يجزمون أنها ولدت قبل البعثة بخمس سنين.

وسيدة فاضلة أشبه ما تكون بسيد الخلق وقد ورثت المجد من كل جانب وحازت الفضل .

* * * * *

مكان ولادة السيدة فاطمة

وهو دار السيدة خديجة بنت خويلد أم المؤمنين ـ رضي الله تعالى عنها تقع هذه الدار بزقاق الحجر بمكة المكرمة ، ويقال له زقاق العطارين على ما ذكره الأزرقي وتعرف بمولد فاطمة رضي الله عنها لكونها ولدت فيها هي وسائر أولاد خديجة من النبي ﷺ.

وذكر الأزررقي : أن النبي ﷺ بنى بخديجة فيها ، وأنها توفيت فيها ولم يزل النبي ﷺ ساكناً بها حتى هاجر إلى المدينة فأخذها عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه، وذكر أن معاوية رضي الله عنه، اشتراها من عقيل في أيام خلافته فجعلها مسجداً يصلي فيه .

وهذه الدار لم تعد معروفة اليوم فقد اختفت في باطن الأرض وانهالت عليها الأنقاض، وصادف في أثناء بعض الحفريات التي أجريت حول الحرم المكي في إطار التوسعة التي تمت أن كشفت أجزاء منها، وتم التعرف عليها وتحديدها بدقة، وبعض هذه الصور مشار إليه في دراستنا هذه وقد زودني بها الشريف الدكتور سامي عنقاوي الذي أشرف على دراسة هذه المنطقة وعمل فيها بنفسه جزاه الله خيراً .

وكانت هذه الدار قد ارتفع عنها الطريق في السابق حتى أصبح ينزل إليها بجملة درجات توصل إلى طرقة على يسارها مصطبة مرتفعة عن الأرض بنحو ٣٠ سم ومسطحها نحو عشرة أمتار طولاً في أربعة عرضاً، وفيها مكتب يقرأ فيه الصبيان القرآن الكريم وعلى يمينها باب صغير يصعد إليه بدرجتين

يدخل منه إلى طريق ضيقة عرضها نحو مترين .

وفيها ثلاثة أبواب : الأول على اليسار، لغرفة صغيرة يبلغ مسطحها ثلاثة أمتار طولاً في أقل منها عرضاً. وهذا المكان كان معداً لعبادته ﷺ وفيه كان ينزل الوحي عليه ـ انظر الصورة ـ وعلى يمين الداخل إليه مكان منخفض عن الأرض يقال إنه كان محل وضوئه ﷺ.

والباب الثاني في قبالة الداخل إلى الممر يفتح على مكان أوسع منه يبلغ طوله نحو ستة أمتار في عرض أربعة وهو المكان الذي كان يسكنه النبي ﷺ مع زوجته خديجة رضي الله عنها (انظر الصورة رقم ١).

أما الباب الثالث فهو عن اليمين لغرفة مستطيلة عرضها نحو أربعة أمتار في طول نحو سبعة أمتار ونصف، وفي وسطها مقصورة صغيرة أقيمت على المكان الذي ولدت فيه السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها (انظر الصورة رقم ١ والصورة رقم ٥).

وفي جدار هذه الغرفة الشرقي رف موضوع عليه قطعة من رحى قديمة يقولون إنها من رحى السيدة فاطمة التي كانت تستعملها في حياتها.

وعلى طول هذا المسكن والطرقة الخارجية والمصطبة من جهة الشمال فضاء مرتفع بنحو متر ونصف يبلغ طوله نحو ستة عشر متراً وعرضه سبعة أمتار وأظنه المكان الذي كانت السيدة خديجة رضي الله عنها تخزن فيه تجارتها [انظر الصورة رقم ١].

وهذا وصف الدار على ما جاء في رحلة البتانوني[١] وهو ما شاهدناه ثم قال البتانوني بعد ذلك:

هذه الدار إذا أمعنت بها النظر لا ترى فيها إلا البساطة : تحتوي على أربع

---

(١) رحلة البتانوني ص٥٣ .

غرف : ثلاث داخلية منها : واحدة لبناته، والثانية لزوجه والثالثة لعبادة ربه : والرابعة بمعزل عنها له ولعموم الناس. اهـ ملخصاً.

وقد جاء في شفاء الغرام للفاسي وصفه لدار خديجة غير هذا قال : غالب هذه الدار الآن على صفة المسجد لأن فيها رواقًا فيه سبعة عقود على ثمانية أساطين (أعمدة) في وسط جداره القبلي ثلاثة محاريب وفيه ست وعشرون سلسلة في صفين وأمامه رواق فيه أربعة عقود على خمس أسطوانات وبين هذين الرواقين صحن والرواق الثاني أخصر من الرواق المقدم لأن بقربه بعض المواضع التي يقصدها الناس للزيارة في هذه الدار وهي ثلاثة مواضع.

الموضع الذي يقال له : مولد فاطمة رضي الله عنها، والموضع الذي يقال له : قبة الوحي وهو ملاصق لمولد فاطمة : والموضع الذي يقال له المختبأ : أربعة أذرع وثلث ذراع من الجدار الذي فيه المحراب إلى الجدار المقابل له ثلاثة أذرع وثلثا ذراع وذلك من الجدار الذي فيه بابه إلى الجدار المقابل له.

وذرع الموضع الذي يقال له : قبة الوحي من الجدار الذي فيه بابه إلى الجدار المقابل له ثمانية أذرع وثلثا ذراع هذه ذرعه طولاً، وأما ذرعه عرضاً فثمانية أذرع ونصف بذراع الجديد المقدم ذكره (٥٧ سم).

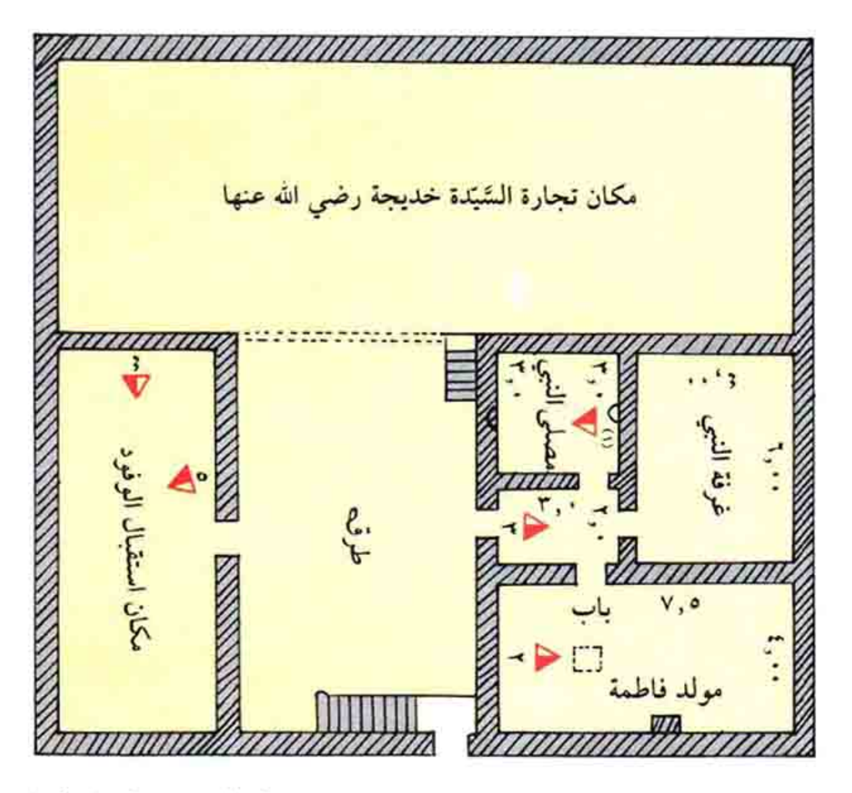
والموضع الذي يقال له مولد فاطمة طوله خمسة أذرع إلا ثمن وعرضه من وسط جداره ثلاثة أذرع وثلاثة أثمان الذراع وفي هذا الموضع موضع صغير يشبه بركة مدورة وسعتها طولاً من داخل البناء المحوط عليها ذراع وعرضها كذلك وفي وسطها حجر أسود يقال: إنه مسقط رأسها [انظر الصورة رقم٥].

وذرع الرواق المقدم من هذه الدار من وسط جداريه على الاستواء ثمانية وثلاثون ذراعاً هذا ذرعه طولاً وذرعه عرضاً سبعة أذرع وربع وذرع ما بين كل أسطوانتين منه خمسة أذرع وربع. وذرع الرواق المؤخر من هذه من جدار قبة

الوحي إلى الجدار المقابل له ثلاثة وعشرون ذراعاً هذا ذرعه طولاً وذرعه عرضاً عشرة أذرع. وعلى باب الدار مكتوب عمرت في خلافة الناصر العباسي وفي زمن الملك الأشرف. . الخ وإلى جانب هذه الدار حوش كبير على بابه حجر مكتوب فيه أن هذا الموضع مربد مولد فاطمة رضي الله عنها وأن الناصر العباسي عمره ووقفه على مصالح دار خديجة التي إلى جانبه عام ٦٠٤ هـ. وقد كان إلى وقت قريب من الآثار المهمة والمعروفة في مكة المكرمة شرفها الله.

*****

صورة رقم (١) منظر عام لفراغات بيت السيدة خديجة رضي الله عنها



رسم نظري تقريبي لبيت السيدة خديجة المشهور بمولد السيدة فاطمة (بمكة)



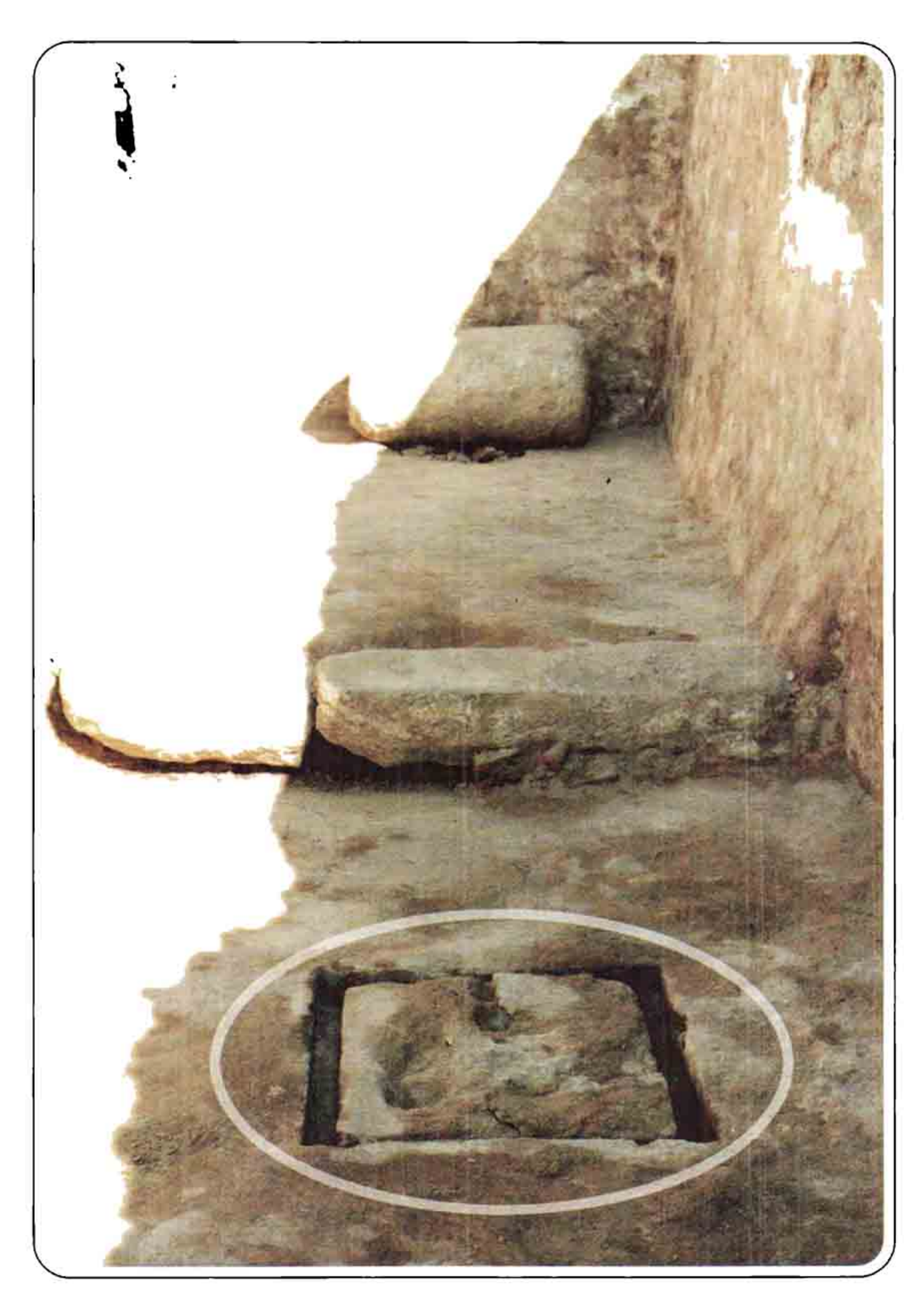
صورة مكبرة للمحراب الموجود بمكان استقبال الوفود

صورة رقم (٣) المحراب الموجود بمكان استقبال الوفود

صورة رقم (٤) مكان استقبال الوفود



صورة رقم (٢) مصلى رسول الله ﷺ في بيت السيدة خديجة
قبل تحويل القبلة



صورة رقم (٥) مكان مولد السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها



صورة رقم (٦) مدخل غرفة الرسول ﷺ في منزل السيدة خديجة رضي الله عنها
وقد كانت هذه الغرفة من الأماكن التي يتعبد فيها رسول الله ﷺ

أسباب تسميتها فاطمة الزهراء

كان تسميتها فاطمة[1] بإلهام من الله تعالى لأن الله فطمها عن النار ! فقد روى الديلمي عن أبي هريرة رضي الله عنه والحاكم عن علي أنه عليه السلام قال: « إنما سميت فاطمة لأن الله فطمها وحجبها عن النار ». واشتقاقها من « الفطم » وهو القطع كما قال ابن دريد ومنه : فطم الصبي : إذا قطع عنه اللبن. ويقال: لأفطمنك عن كذا أي لأمنعنك عنه.

أسماء وصفات لفاطمة الزهراء:

لعل من أشهر الأسماء التي سميت بها هي فاطمة الزهراء، ولكن كان لها تسعة أسماء[2]

ولنا أن نفرق بين الأسماء والصفات، فهي سميت فاطمة ولكنها فازت

---

(١) لم يكن اسم فاطمة غريبا عند العرب ، فقد كانت زوج أبي طالب وأم علي كرم الله وجهه تسمى فاطمة ، وفاطمة بنت عتبة ، وقد أهدى الى رسول الله ﷺ حلة استبرق فقال اجعلوها خُمُراً بين الفواطم ، فشقت أربعة خمر ، خماراً لفاطمة الزهراء رضي الله عنها ، وخماراً لفاطمة بنت أسد أم علي كرم الله وجهه ، وخماراً لفاطمة بنت حمزة عم رسول الله ﷺ وهي أمامة ، وخماراً لفاطمة بنت عتبة .

(٢) سميت: فاطمة، والصديقة، والمباركة، والطاهرة، والزكية، والراضية والمرضية والمحدثة، والزهراء، وكان يطلق عليها أم النبي ﷺ أو أم أبيها وقد أضاف بعض كتاب السيرة أنها لقبت بالبتول

بألقاب كثيرة، والألقاب من الأعلام في عرف النحويين، فيقولون الأعلام ثلاثة أنواع: اسم، ولقب وكنية وكلما كان الإنسان من ذوي المنزلة والمكانة تعددت أسماؤه.

الزهـــــــــراء:

١ - قيل إنها سميت بالزهراء: لأنها زهرة المصطفى ﷺ وقيل: لأنها كانت بيضاء اللون. وعن جعفرِ بن محمد بن علي رضي الله عنه ـ عن أبيه ـ قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن فاطمة: لم سميت الزهراء؟ فقال: لأنها كانت إذا قامت في محرابها يزهر نورها لأهل السماء، كما يزهر نور الكوكب لأهل الأرض.

٢ - ولقبت بالصديقة، والمباركة، والطاهرة، والزكية، والراضية، والمرضية: وهي آيات على ما اتسمت به رضي الله عنها من الصدق والبركة والطهارة والرضا والطمأنينة.

٣ - والبتول [١]: لأن الله تعالى قطعها عن النساء حسنًا وفضلاً وشرفاً، أو لانقطاعها إلى الله.

وفي تاج العروس: لقبت فاطمة بنت رسول الله ﷺ بالبتول تشبيهاً لها بمريم في المنزلة عند الله تعالى.

وقال ثعلب: لانقطاعها عن نساء زمانها، وعن نساء الأمة فضلاً، وديناً وحسباً، وعفافاً وهي سيدة نساء العالمين. وقيل البتول من النساء المنقطعة

---

(١) يقال بتله بتلاً: أي قطعه، وأبانه، وتبتل إلى العبادة: أي تفرغ لها وانقطع، والبتول بفتح الباء وضم التاء.

عن الدنيا إلى الله تعالى، وبه لقبت فاطمة رضي الله عنها وكما جاء في تاج العروس: سميت كل من مريم وفاطمة عليهما السلام بالبتول لانقطاعهما عن نساء زمانهما، فضلاً وديناً، وعن الدنيا إلى الله تعالى.

٤ - أم أبيها: كان يطلق على فاطمة الزهراء أم النبي ﷺ أو أم أبيها وقد اجتهد الكتاب وفاضت قرائحهم بالتفسيرات نقتطف منها الآتي:

(أ) لأنها كانت أصغر بنات الرسول ﷺ، ولأنها كانت في البيت وحدها بعد موت السيدة خديجة رضي الله عنها فتولت رعاية الرسول ﷺ والسهر عليه.

(ب) أن من الطبيعي أن تكون الزهراء أماً لرسول الله في رسالته لا في ولادته ولعله لأمر قد قدر كان النبي ﷺ على علم من أنه سوف لن يعقب إلا من الزهراء فستكون هي التيار الذي يحمل نوره عبر تاريخ عريق وفي كل الأزمان، لتضاء البشرية بعد ذلك من هذا النور الفياض، ولذلك كان يحبها حباً جماً(١)

(جـ) أن النبي ﷺ ولد يتيماً، فقد ولد ولم يجد أباه، ثم ماتت أمه وهو طفل صغير، وكان الرسول ﷺ يعامل فاطمة رضي الله عنها معاملة الأم، ويخصها بالزيارة عند كل عودة منه إلى المدينة وقد توفيت آمنة بنت وهب وعاش في بيت أبي طالب تحنو عليه فاطمة بنت أسد وتعلق قلبه آنذاك بها، ولقد كان يناديها، يا أماه، وعندما توفيت حزن عليها حزنًا شديداً ورزقه الله فاطمة، وكلما رآها ذكر فاطمة بنت أسد، وتسلى بابنته عنها، ولهذا كناها أم أبيها(٢)

إن الرسول الكريم ﷺ، لا يهب الألقاب عبثاً، ولا يمنح الكنى تشبيهاً، وإنما هي الحكمة تضع الشيء في موضعه.

وهو النبي الكريم والرسول العظيم عليه أفضل الصلاة والتسليم.

---

(١) هذا ماقاله الأستاذ فاضل الحسيني. انظر: فاطمة الزهراء، توفيق أبو علم، ص٧٥.

(٢) توفيق أبو علم، ص٥٨ (بتصرف).

الأصل العريق

هذه السيدة الفاضلة.. والنطفة الطاهرة.. والابنة البارة.. والمجاهدة الصابرة.. والدرة النادرة.. هي بنت من؟.. هي زوج من؟.. هي أم من؟.. من ذا يضاهي في الفخار هذا النسب الطاهر الشريف، والأصل العريق وسلالة العترة النبوية الكريمة.

الوالد هو: سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ابن قصي القرشي العدناني رسول الله وخاتم النبيين ﷺ.

والجد الثاني للوالد هو: هاشم بن عبد مناف، وكان صاحب إيلاف قريش[1] ـ أي دأب قريش ـ وكان أول من سن الرحلتين لقريش، ترحل إحداهما في الشتاء إلى اليمن وإلى الحبشة، وترحل الأخرى في الصيف إلى الشام وغزة.

واسم هاشم «عمرو» ثم غلب عليه اسم هاشم وسبب تسميته هاشما أن قريشاً أصابتها سنوات ذهبت بالأموال، فخرج هاشم إلى الشام فأمر بخبز كثير فخبز له، ثم حمله على الإبل حتى وافى مكة، فهشم ذلك الخبز ـ أي كسره ـ وثرده ـ صنع منه ثريداً ـ ونحر تلك الإبل التي حملته، ثم أمر الطهاة فطبخوا ثم كفأ القدور على الجفان[2] فأشبع أهل مكة، فكان ذلك أول الشبع

---

(١) وأصل الإيلاف حلف حالف عليه هاشم قبائل العرب أن تسير تجارة قريش حيث سارت في قبائل العرب لايقربها أحد بسوء تعظيماً لقريش لأنهم سكان الحرم وسدنة البيت وأطهر العرب.

(٢) جمع جفنة وهي القصعة الواسعة يجتمع حولها مئات الآكلين.

بعد السنة[1] ـ التي أصابتهم، فسمى بذلك هاشماً وقال عبد الله بن الزبعرى في ذلك:

عمرو العلا هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون[2] عجاف[3]

وقال وهب بن عبد قصي في ذلك:

تحمل هاشمٌ ما ضاق عنه وأعيا أن يقوم به ابن بيض

أتاهم بالغرائر متأقات[4] من ارض الشأم بالبر النفيض

فأوسع أهل مكة من هشيم وشاب الخبز باللحم الغريض

فظل القوم بين مكللات من الشيزى حائرها يفيض[5]

فهذا هو أحد أجداد الزهراء، كان رجلاً كريماً تضرب به الأمثال وتقرض فيه الأشعار، وخاصة حين الملمات والأزمات ذلك أن الشدائد هي التي تبين معادن الناس، وهذا معدن هاشم ينبع من الخير، ويفيض بالكرم، ويكفي أن الرحلتين اللتين استنهما قد ذكرهما الله تعالى في كتابه الخالد، في القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤ ﴾.

وكانت لهاشم السقاية والرفادة في الحج فإذا حضر موسم الحج قام في قريش فقال: « يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته وإنه يأتيكم من هذا الموسم زوار الله يعظمون حرمة بيته فهم ضيف الله، وأحق الضيف بالكرامة

---

(١) القحط والمحل.

(٢) السنة: القحط والجدب.

(٣) تاريخ الطبري ٢: ٢٥٢.

(٤) أي مترعات، ممتلئات.

(٥) تاريخ الطبري ٢: ٢٥٣.

ضيفه، وقد خصكم الله بذلك وأكرمكم به، وحفظ منكم أفضل ما حفظ جار من جاره، فأكرموا ضيفه وزواره، يأتون شعثاً غبراً من كلٍّ بلد على ضوامر كأنهن القداح، قد أزحفوا وتلفوا (أي أسرعوا) وأرملوا، فاقروهم واسقوهم. فكانت قريش ترافد على ذلك حتى إن كان أهل البيت ليرسلون بالشيء اليسير على قدرهم، وكان هو يخرج مالاً كثيراً، ويثرد للحجيج الخبز واللحم والسمن والسويق والتمر، ويجعل لهم الماء فيسقون بمنى ـ والماء يومئذ قليل ـ حتى تنقطع الضيافة ويتفرق الناس لبلادهم[1].

وفي المنتقى: «كان هاشم أفخر قومه وأعلاهم وكانت مائدته منصوبة لا ترفع لا في السراء ولا في الضراء، وكان يحمل ابن السبيل ويؤدي الحقائق، وكان نور النبي ﷺ يتلألأ في وجهه يتوقد شعاعه ويتلألأ ضياؤه ولا يراه حبر إلا قبل يده، تغدو إليه قبائل العرب ووفود الأحبار يحملون بناتهم يعرضون عليه أن يتزوج بهن حتى بعث إليه هرقل ملك الروم وقال:

إن لي ابنة لم تلد النساء أجمل منها ولا أبهى وجهاً فاقدم علي حتى أزوجكها فقد بلغني جودك وكرمك وإنما أراد بذلك نور المصطفى ﷺ الموصوف عندهم في الإنجيل فأبى هاشم[2].

وهكذا كان الجد الأكبر ـ لمحمد والد الزهراء ـ صاحب صفات نبيلة، وأخلاق فاضلة، وتنطوي نفسه على سمات إنسانية عالية، وعلى خصال عظيمة تفرد بها بين أهل مكة، وعرف بها بين أبناء جزيرة العرب.

أما جد[3] الزهراء لأبيها ﷺ فهو عبد المطلب، واسمه شيبة الحمد، ولتسميته عبد المطلب قصة وهي أن عمه المطلب بن عبد مناف لما توفي

---

(١) طبقات ابن سعد ١: ٧٨ ط صادر.
(٢) الزرقاني ١: ٣٧.
(٣) هو الجد الثاني أما الأول فهو عبد الله.

أخوه هاشم ولي بعده السقاية والرفادة، وكانت قريش تسميه الفيض لسماحته، وذات يوم جاءه خليل له هو ثابت بن المنذر وهو أبو حسان بن ثابت الشاعر ، فقال له لو رأيت ابن أخيك شيبة فينا لرأيت جمالاً وهيبة وشرفاً، فقال المطلب : لا أمسي حتى أخرج إليه فأقدم به، فقال ثابت : ما أرى سلمى تدفعه إليك ولا أخواله. فمن هي سلمى ؟

هي سلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد من بني عدي بن النجار وقد نزل هاشم في عير من قريش المدينة ووجدوا سوقاً تقام في هذا الوقت من السنة، فباعوا واشتروا ونظروا إلى امرأة على موضع مشرف ـ عال ـ من السوق ، فرآها تأمر بما يشترى ويباع لها ، وكانت امرأة حازمة جلدة مع جمال ووقار. فسألهم هاشم عنها: أأيم هي أم ذات زوج ؟ فقيل له : أيم. وكانت لا تنكح الرجال لشرفها في قومها حتى يشترطوا لها أن أمرها بيدها. فخطبها هاشم، فعرفت شرفه ونسبه فزوجته نفسها ودخل بها، وحملت، وولدت غلاماً في رأسه شيبة، وتوفي هاشم في رحلة من رحلاته في الشام ودفن في غزة وبقي شيبة في رعاية أمه وأخواله حتى أخبر ثابت عمه المطلب، فخرج إليه ليعود به، وأبت سلمى أن ترده إليه أول الأمر، ثم وافقت على ذلك، فعاد به إلى مكة ظهراً، فقالت قريش: هذا عبد المطلب، فقال ويحكم إنما هو ابن أخي شيبة بن عمرو. وظل معروفاً بعبد المطلب.

وخرج المطلب إلى اليمن فمات هناك ، فولى عبد المطلب بن هاشم بعده الرفادة والسقاية، فلم يزل ذلك بيده يطعم الحجاج ويسقيهم في حياض من أدم ـ بمكة، فلما سقى من زمزم ترك السقي في الحياض بمكة، وسقاهم من زمزم حين حفرها، وهو أول من حفر زمزم[1]، وكان يحمل منها الماء إلى عرفة لسقيا الحجاج مادام فيه حج وعمرة، وأنه يمنحها ذكريات عزيزة،

---

(١) فقد دفنت جرهم عين زمزم حين أرغمت على الخروج من مكة .

وهي ذكريات نبي الله إسماعيل عليه السلام، يوم أن أودعهما نبي الله إبراهيم عليه السلام ـ الفلاة، وليس معهما من الزاد والماء إلا القليل، ودعا لهما إبراهيم عليه السلام، وحلت بركات الدعاء، وظهرت في بركة الغلام الصغير إسماعيل عليه السلام، فانبثقت من تحت قدميه عين مباركة، كانت فاتحة الخير عليه وعلى أمه، ثم ردمت مع الأيام، وحفرها عبد المطلب وحده بعد أن رفضت قريش معاونته ، ونذر على نفسه إن رزقه الله عشرة من الولد أن يذبح أحدهم . ولقد حفر عبد المطلب بئر زمزم لتظل رافداً للماء وللذكريات إلى أن تقوم الساعة إن شاء الله .

وقد حكم الله تعالى له ولأبنائه بهذه المياه المباركة، ولم تحكم له الكاهنة، وهذا دليل على أن هذا الرجل قد أودع الكثير من الطهر والبركة، ففاضا في أفعال تنم عنهما، ولم لا . . وقد كان من المتألهين، الذين لم يعبدوا الأصنام قط، وكان يُعْظِم الظلم (أي يكرهه ويمقته)، ويكره الفجور، إنها سجايا فطرية ركبت في هذا الرجل المبارك عبد المطلب .

وتمضي الأيام ويرزق الله تعالى عبد المطلب عشرة ذكور، هم : الحارث، والزبير، وأبو طالب، وعبد الله، وحمزة، وأبو لهب، والغيداق، والمقوم، وضرار، والعباس. وجمعهم عبد المطلب وأخبرهم بنذره، ودعاهم إلى الوفاء لله به، فما اختلف عليه منهم أحد وقالوا: أوف بنذرك وافعل ما شئت، فقال فليكتب كل رجل منكم اسمه في قدحه ففعلوا .

ودخل عبد المطلب في جوف الكعبة وقال للسادن اضرب بقداحهم فضرب، فخرج قدح عبد الله أولها ـ وكان عبد المطلب يحبه حباً شديداً ـ فأخذ بيده يقوده إلى المذبح ومعه المدية ، فبكت بنات عبد المطلب،

وقالت أحداهن لأبيها[1] : أعذر فيه بأن تضرب في إبلك السوائم التي في الحرم وهبت قريش من أنديتها فاجتمعت عليه تقول: والله لا تذبحه، فقال للسادن: اضرب عليه وعلى عشر من الإبل، وكانت الدية يومئذ عشراً من الإبل، فضرب فخرج القدح على عبد الله، فجعل يزيد عشراً عشراً، كل ذلك ويخرج القدح على عبد الله حتى كملت المائة، فضرب بالقدح فخرج على الإبل. فكبر عبد المطلب وكبر الناس معه، وقدم عبد المطلب الإبل فنحرها.

وكأني بهذه الواقعة تعيد ذكريات الفداء، بين طاعة الابن إسماعيل عليه السلام، ورؤيا أبيه أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام. يوم وقف الأب يقص على ابنه رؤياه وأنه رأى في المنام أنه يذبحه، ولا يجد الابن أمامه إلا الطاعة وتلبية رؤيا أبيه، ويقول لأبيه: افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين ويفدي الله نبيه المؤمن إسماعيل لتكون سنة إسلامية تتكرر كل عام، لتذكرنا بالذبح العظيم.

ونظن أن قصة نذر عبد المطلب أن يذبح أحد أبنائه ما هي إلا إلهام من الله تعالى، من أجل إبراز أن نسل الأطهار ممتد من إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إلى عبد المطلب وعبد الله ومحمد ﷺ، فما قصة فداء عبد الله بن عبد المطلب إلا لمحة من الله تؤكد لنا إرهاصات النبوة في النسل الطاهر، وفي رجال اصطفاهم الله من بين عباده ليودعهم الأصالة والطهارة وحسن الخلق، والكرم والسخاء وغيرها من الخصال النبيلة التي تصب في نهر محمد ﷺ نهر النبوة العظيم.

وافتُدي عبد الله بن عبد المطلب بمائة من الإبل، وهو أول من سن دية

---

(١) وسوف يأتي تفصيل ذلك في (عبد الله) انظر ص٥٩

النفس مائة من الإبل، فجرت في قريش والعرب مائة من الإبل وأقرها رسول الله ﷺ على ما كانت عليه.

وجاء في طبقات ابن سعد أن عبد المطلب كان أحسن قريش وجهاً، وأمدهم جسماً، وأحلمهم حلماً، وأجودهم كفاً. وأبعد الناس من كل موبقة تفسد الرجال، ولم يره ملك قط إلا أكرمه وشفعه، وكان سيد قريش حتى مات[1].

وكان من مناقبه الوفاء بالعهد حتى بعد مماته، فقد جاءه نفر من خزاعة فقالوا: نحن قوم متجاورون في الدار هلم فلنحالفك، فأجابهم إلى ذلك، وأقبل عبد المطلب في سبعة نفر من بني المطلب، والأرقم ابن نضلة والضحاك وعمرو ابني أبي صيفي أولاد هاشم، فدخلوا دار الندوة وتحالفوا فيها على التناصر والمواساة، وكتبوا بينهم كتاباً، وعلقوه في الكعبة، وقال عبد المطلب في ذلك:

سأوصي زبيراً إن تراخت منيتي ... بإمساك ما بيني وبين بني عمرو

وأن يحفظ الحلف الذي سن شيخُه ... ولا يُلحِدنْ فيه بظلم ولا غدر

هم حفظوا الإلَّ[2] القديم وحالفوا ... أباك فكانوا دون قومك من فهر

وقد أوصى عبد المطلب إلى ابنه الزبير، وأوصى الزبير إلى أبي طالب، وأوصى أبو طالب إلى العباس بن عبد المطلب.

وحفظ العهد والوعد من الشيم الكريمة، التي تكون مثار فخر وحديثاً حسناً بين القوم عن الذي يتصف بها، وهكذا كان عبد المطلب الجد الأكبر لفاطمة الزهراء رضي الله عنها. والصفات تتوارث وتتوالد في الأبناء

---

(١) طبقات ابن سعد ١: ٥.
(٢) الإلَّ: العهد.

والحفدة، لتمتد الأصول إلى الفروع، وتنمو الفروع مستمدة صفاتها من الأصول وهكذا كانت الزهراء من نسل المصطفى ﷺ الذي هو خيار من خيار.

ومما يروى ويدل على أن عبد المطلب كان رجلاً مباركاً وكان على صلة روحية بالله ما ترويه رقيقة بنت أبي صيفي بن هاشم، قالت: تتابعت على قريش سنون ذهبن بالأموال وأشفين على الأنفس، فسمعت قائلاً يقول في المنام: يا معشر قريش، إن هذا النبي المبعوث منكم، وهذا إبان خروجه وبه يأتيكم الحيا والخصب، فانظروا رجلاً من أوسطكم نسباً طوالاً عظاماً، أبيض مقرون الحاجبين، أهدب الأشفار جعداً، سهل الخدين رقيق العرنين، فليخرج هو وجميع ولده، وليخرج منكم من كل بطن رجل، فتطهروا وتطيبوا، ثم استلموا الركن، ثم ارقوا رأس أبي قبيس، ثم يتقدم هذا الرجل فيستسقى وتؤمنون فإنكم ستسقون، فأصبحت فقصصت رؤياي عليهم، فنظروا فوجدوا هذه صفة عبد المطلب فاجتمعوا إليه، وخرج من كل بطن منهم رجل، ففعلوا ما قصصته عليهم، ثم علوا على أبي قبيس - وهو جبل بمكة - ومعهم النبي ﷺ وهو غلام، فتقدم عبد المطلب وقال: لا هم - أي اللهم - هؤلاء عبيدك وبنو عبيدك، وإماؤك، وبنات إمائك، وقد نزل بنا ما ترى، وتتابعت علينا هذه السنون، فذهبت بالظلف والخف، وأشفت على الأنفس، فأذهب عنا الجدب، وأتنا بالحيا والخصب، فما برحوا حتى سالت الأودية، وبرسول الله ﷺ سقوا، فقالت رقيقة بنت أبي صيفي[1]:

بشـيبة الحمد أسقى الله بلدتنا ... وقد فقدنا الحيا واجلوّذ المطر[2]

فجـاد بالماء جـوني له سـبل ... دان فعاشـت بـه الأنعام والشجر

---

(١) طبقات ابن سعد، ١: ٥٤، ٥٥ «بتصرف».

(٢) ذهب وانقطع.

مَنّـاً مـن الله بالميمون طـائره		وخيـر من بشــرت يوماً به مضر
مبارك الأمر يستسقى الغمام به		ما فـي الأنام لـه عـدل ولا خطر

إن صلة الإيمان كانت موجودة عند الجد الأكبر عبد المطلب بينه وبين الله، وكان يعبد الله على دين إبراهيم خليله عليه السلام.

وذلك الهاتف الذي جاء في منام رقيقة إنما هو إشارة من الله تعالى ومؤشر إلى أن النبوة ستكون في نسل هذا الرجل الطاهر المبارك، وأنه حين استسقى ودعا الله وأجاب الله دعاءه إجابة فورية، إنما يدل ذلك على معدن القلب النقي الخالي من الشرك بالله، ويدل على صفاء النفس والسريرة، فقد اتجهت نفسه بكليتها إلى الله، فاستجاب الله لنفسه البريئة وحقق له ما أراد.

وكان عبد المطلب يسمع عن نبي سوف يأتي، ويتمنى لو كان من أهله، ويسارع في أداء أي عمل يطلب منه في سبيل ذلك، فذات يوم كان في رحلة اليمن، ونزل على أحد عظماء حمير، فوجد عنده رجلاً من أهل اليمن قد أمهل له في العمر وقرأ الكتب، فقال له: يا عبد المطلب: تأذن لي أن أفتش مكاناً منك؟ قال: ليس كل مكان مني آذن لك في تفتيشه. قال: إنما هو منخراك قال: فدونك. قال فنظر إلى الشعر في منخرية، فقال: أرى نبوة وأرى ملكاً، وأرى أحدهما في بني زهرة.

فرجع عبد المطلب فتزوج هالة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة، وزوج ابنه عبد الله آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة. فولدت محمداً ﷺ، فجعل الله في بني عبد المطلب النبوة والخلافة، والله أعلم حيث وضع ذلك الفضل وكانت الأسباب التي أخذ بها عبد المطلب فقادت إلى ذلك الشرف الذي أراده الله عز وجل وقدره.

ولعبد المطلب موقف يدل على ثقته الكبيرة بالله تعالى، وأنه هو القاهر فوق عباده، والقادر على أن يردي أي ظالم أو متكبر في لحظة هينة، وذلك

الموقف هو موقفه من بيت الله الحرام، حين حاول الطاغية أبرهة الأشرم أن يهدمه، وأعد لذلك جيشاً جراراً ومعه فيل ضخم وقيل: اثنان وقيل غير ذلك، ولما اقترب بجيشه من الحرم ودنا منه أمر أصحابه أن يغيروا على نعم الناس فأصابوا إبلاً لعبد المطلب. ودخل عبد المطلب على أبرهة.

فقال له: ما حاجتك؟ قال: ترد عليّ إبلي؟ فتعجب أبرهة من طلبه وقال: ظننت أنك تكلمني في بيتكم هذا الذي هو شرفكم؟! قال عبد المطلب: اردد على إبلي ودونك والبيت فإن له رباً سيمنعه، أو سيحميه. فأمر أبرهة برد إبله عليه، فلما قبضها قلدها النعال وأشعرها وجعلها هديا وبثها في الحرم لكي يصاب منها شيء فيغضب رب الحرم، وصعد عبد المطلب على حراء وقال:

لا هـم إن المرء يمنع رحله	فامنـع حِلالكَ
لا يغلبن صليبهم ومحالهم	غدواً محـالك
إن كنـت تاركهـم وكعبتنا	فأَمرٌ ما بدا لك

فأقبلت الطير الأبابيل وهلك الجيش الغشوم، ونزل عبد المطلب من حراء فأقبل عليه رجلان من الحبشة فقبلا رأسه وقالا له: أنت كنت أعلم.

إنها الشفافية الروحية، والطاقة النفسية الإيمانية العالية، التي تجعل صاحبها يرى ما لايراه الآخرون، وهذا ما كان يتمتع به عبد المطلب الجد الأكبر للزهراء رضي الله عنها. إنها أصول تمتد بسجاياها إلى الفروع، فتفرغ فيها شفافية وروحانية وطهراً ونقاء.

أما جد الزهراء رضي الله عنها لأبيها ﷺ فهو عبد الله بن عبد المطلب أحب الأبناء إلى نفس أبيه. أبوه عبد المطلب بن هاشم وفيه الشرف ولم يبق لهاشم عقب إلا منه، وقد شرف في قومه شرفاً لم يبلغه أحد من أبنائه وأحبه قومه وعظم شأنه فيهم، وأمه فاطمة بنت عمرو بن عائذ المخزومية من صميم

البيت القرشي ، وقد أنجبت لعبد المطلب : أبا طالب، والزبير، وعبد الله، وأم حكيم البيضاء ـ توأمة عبد الله ـ وعاتكة، وبرة، وأميمة، وأروى. وجدة عبد الله لأبيه : سلمى بنت عمرو النجارية التي كانت لا تنكح الرجال لشرفها في قومها، حتى يشترطوا لها أن أمرها بيدها إذا كرهت رجلاً فارقته[1] وجدته لأمه : تحمر بنت عبد الله بن قصي القرشية .

إنها أشجار عريقة الجذور والأنساب، كلهم يتسمون بالشرف في أقوامهم، وإن أبرزها ما في حياة عبد الله هي قصة الفداء، حين هم الأب بذبح ولده، حتى ثارت بنات عبد المطلب، وهبت قريش من أنديتها وقالت: والله لا تذبحه أبداً حتى تُعذر فيه لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتي بابنه حتى يذبحه، فما بقاء الناس على هذا[2] .

ثم افتدى عبد الله بمائة من الإبل، وكانت قصة الفداء قد هزت قلوب أهل مكة، تعلقاً بهذا الشاب الذي كاد أن يذبح وهو صابر مستسلم محتسب لأمر الله تعالى، راض بقدره حتى إذا لم يبق بينه وبين الموت إلا قيد شعرة، انقذه الله بأعظم فدية عرفها العرب آنذاك .

وأقيمت الأفراح في أنحاء بلد الله الحرام وأضيئت المشاعل، ودارت الأحاديث حول قصة الذبيح الأول الجد الأكبر نبي الله إسماعيل عليه السلام حين مضى به أبوه إبراهيم عليه السلام إلى الجبل لكي يذبحه طاعة وتعبداً، فافتداه الله بذبح عظيم بعد أن كان من الموت قاب قوسين أو أدنى إنها القصة التي تناقلها الآباء والأجداد جيلاً بعد جيل، تعود فتمثل في الموضع نفسه من البيت العتيق الذي رفع القواعد منه إبراهيم وولده إسماعيل الذبيح المفتدى عليهما السلام .

---

(١) السيرة الهاشمية ١ :١٤٥ ، وطبقات ابن سعد.

(٢) السيرة ١ :١٦٢، والكامل لإبن الأثير ٢ :٦ .

والمفتدى هذه المرة هو حفيد أصيل من ذرية إسماعيل التي انتشرت في الأرض، وتوارثت مجد الأجداد. وغير مستبعد أن يخطر لبعض المتحدثين أن يصلوا ما بين الذبيحين : اسماعيل ، و عبد الله، وربما ذهب بأحدهم الخيال فحاول أن يلتمس خلف ستار الغد المحجب، ما ينتظر عبد الله من أمر ذي شأن كذلك الذي كان لإسماعيل بعد الفداء.

وكان عبد الله هو ذلك الشاب الذي تحلم به كل فتاة في قريش بل في مكة كلها، فقد كانت بعض النساء يعرضن عليه أنفسهن، ولكنه كان يتأبى عليهن ومنهن : قتيلة بنت نوفل بن أسد بن عبد العزى القرشية، أخت ورقة بن نوفل، التي استوقفت عبد الله قريباً من الكعبة فقالت له : أين تذهب يا عبد الله ؟ قال: مع أبي.

قالت : لك مثل الإبل التي نحرت عنك إذا قبلت أن أهب لك نفسي الساعة. فقال: أنا مع أبي ولا أستطيع خلافه ولا فراقه.

وفي رواية أخرى: مر بها عبد الله، فدعته يستبضع منها ولزمت طرف ثوبه، فأبى وقال : حتى آتيك، ومضى مسرعاً.

ومنهن : فاطمة بنت مر، كانت من أجمل النساء وأعفهن، تقرأ الكتب كما جاء في طبقات ابن سعد، أو كانت كما ذكر الطبري وابن الأثير كاهنة من خثعم[1] دعته إلى نكاحها. وجاء في الطبقات أنها قالت : هل لك أن تقع عليّ وأعطيك مائة من الإبل، فنظر إليها وقال :

أما الحرام فالممات دونه ... والحل لا حل فأستبينه

فكيف بالأمر الذي تنوينه ... يحمي الكريم عرضه ودينه

وقد بلغ شباب قريش ما عرضت على عبد الله ـ وكان شباب قريش

---

(١) الطبقات ١ : ٥٠، ٥١، الطبري ٢ : ١٧٤ الكامل ٢ : ٤.

يتحدثون إليها ـ وتأبيه عليها، فذكروا ذلك فأنشأت تقول :

إني رأيت مخيلة عرضت فتلألأت بحـــناتم القطر

فلمائهـــا نـــور يضيء له ما حوله كإضاءة الفـــجر

ورأيته شـــــرفاً أبوء بـــه ما كل قادح زنـــده يورى

إنه الجد الطاهر، الذي تأبى على الجميلات من نساء مكة، والبلد الذي تسبح فيه بحار الجاهلية، ويشيع فيه الكثير من الرذائل، ولكن عبد الله صاحب قلب يموج بالعفة والطهارة والنقاء، فكانت خطواته محسوبة بالطهر وتقاس بالعفة، وتمضي بالطهارة، إنها ذرية بعضها من بعض، وأهل يموجون في عبير الشرف والسؤود وكريم الأخلاق، ونبيل الخصال[1].

* * * * *

---

(١) وتذكر كتب السيرة ثالثة عرضت نفسها على «عبد الله» أيضاً وقد أبى، وهي «ليلى العدوية».

جدة الزهراء آمنة بنت وهب

المرأة الطاهرة التي اختارها الله من بين نساء العالمين لتكون أماً لسيد البشر حملته في أحشائها جنيناً، وغذته بدمائها وعواطفها وحنانها. . إنها أكرم فتاة في قريش، إنها من بني زهرة بن كلاب شقيق قصي، وهما أشرف أصول قريش، وأبوها وهب بن عبد مناف سيد زهرة شرفاً وحسباً، وأمها من بني عبد الدار، فهي من صفوة قريش أباً وأماً، كذلك زوجها عبد الله بن عبد المطلب، فهما صفوة الصفوة من قريش، كما قال الرسول الكريم ﷺ : «لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة، مصفى مهذباً لا تتشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما».

في هذه الأسرة الكريمة بني زهرة ولدت أكرم أم عرفتها البشرية ولدت في مكة ونمت وترعرت وصارت مطمح آمال شباب قريش وكيف لا وهي زهرة قريش وفتاتها التي لا تدانيها فتاة نبلاً ونسباً وشرفاً وكرم محتد.

وربما كانت ترنو من بعيد بروحها وقلبها إلى ابن عمها عبد الله بن عبد المطلب أنبل فتيان قريش وأكرمهم، ومن البدهي أن يخفق قلبها خوفاً ويمتلىء الصدر شجناً حين ملأ النبأ أرجاء مكة بأن عبد المطلب سيفي بنذره ويذبح أحب أبنائه إليه.

ثم كان الفداء، وكانت نجاة عبد الله من الذبح، وضجت مكة المكرمة بالنبأ السعيد، وامتلأ قلب آمنة من الرضى والسعادة وكان الفداء مائة من الإبل نحرت ثم تركت، لا يصد عنها إنسان ولا سبع.

وما إن فرغ عبد المطلب من نحر الإبل حتى توجه مع جماعة من وجوه بني هاشم إلى بيت سيد بني زهرة وهب بن عبد مناف وإلى يمينه ولده الغالي عبد الله وتساءلت آمنة فيم مجيء وفد بني هاشم؟ . . ودخلت أمها برة لتزف إليها النبأ، ودخل أبوها وهب ليقول في رقة: إن شيخ بني هاشم قد جاء ليطلبك زوجة لابنه عبد الله، وعاد من فوره إلى ضيفه الكريم وترك آمنة في شبه ذهول.

إذن لقد اختارها رب العالمين لتكون زوجاً لفتى بني هاشم الذي امتلأ وجدان أهل مكة حباً له وتعلقاً به، وها هو القلب الطاهر يخفق عالياً من أثر المفاجأة التي حققت حلمها بسرعة لم تكن تتوقعها، وأراحت صدرها على صدر أمها برة لتستمد السكينة من حنانه.

وتسامعت مكة بهذه الأنباء، فاستعدت للاحتفال بزفاف العروسين الشابين النبيلين، أنضر فتى في قريش ومكة إلى أطهر وأكرم فتاة في الدنيا وأضيئت المشاعل في أرجاء الحرم الآمن، وحفلت دار الندوة بوجوه قريش وسادتها. . واستمرت الأفراح ثلاثة أيام بلياليها، وانتقلت إلى دار زوجها الحبيب دار بسيطة لكنها مع الحبيب أجمل من قصور الدنيا كلها.

وكانت البشرى:

تقول آمنة: أتاني آتٍ وأنا بين النوم واليقظة فقال: إنك حملت بسيد هذه الأمة. وتقول: ما شعرت بأني حامل به ولا وجدت له ثقلاً كما تجد النساء، وترى آمنة رؤيا باهرةً هزت كيانها كله، رؤيا ساطعة كأنها الحقيقة ماثلة للعيان: لقد رأت نوراً خرج منها يملأ الآفاق ضياء حتى رأت به بصرى من

أرض الشام وكان زوجها الحبيب قد فارق إلى يثرب واعداً إياها بالعودة إليها قريباً .

كانت تود لو كان معها ليشاركها ما تحس وما تسمع إن الهاتف ما يني يبشر : إنك حملت بسيد هذه الأمة ، وطالت غيبة الزوج الحبيب ، فقد ألمت به وعكة في ديار أخواله بني النجار في يثرب جعلته يتخلف عن القافلة العائدة ليمرض هنالك .

وانتظرت آمنة بفارغ الصبر عودة الرفيق الحبيب ولكنه كان قد فارق الحياة بعد رحيل القافلة عن يثرب بأيام عائدة إلى مكة ودفن في ثرى يثرب .

ما أشد ألم الفراق على القلب الغض قلب آمنة : وما أقسى ما تعانيه من الشجن الحارق يتغلغل في الحنايا ، إذن لقد مضى وانتقل إلى الدار الآخرة وسلك سبيل الذين مضوا قبله ، وبكته آمنة بدموع حرى ورثته بهذه الأبيات :

عفا جانب البطحاء من زين هاشم	وجاور لحــداً خارجاً فـي الغمائم
دعتــه المنــايا دعــوة فأجــابها	وما تركت في الناس مثل ابن هاشم
عشــية راحــو يحملون ســريره	تعــاوره أصــحابه فــي التزاحــم
فإن تـك غالتـه المنـون وريبـها	فقد كان معطــاء كثير التــراحـــم

رحل الغالي وخلف لوعة وحرقة تاركاً أرملة شابة لا يزال خضاب العرس في يديها ، لم يمتع زين الشباب بشبابه ، ولم يهنأ مع عروسه إلا أياماً ، لكن رحمة الله ورأفته بعباده أنزلت السكينة على قلب آمنة التي روعت بنار الفراق فكانت تأنس لما تسمع من هتاف يبشرها بأعظم بشرى .

ومضت أشهر الحمل خفيفة يسيرة حتى إذا حان الموعد العظيم اجتمع حولها نساء بني زهرة ليشهدن مولد ابن عبد الله ولم يدر بخاطرهن أنهن سيشهدن أعظم لحظة في تاريخ البشرية .

وولد الهدى

وامتلأت الغرفة نوراً، بل ينبغي للدنيا كلها أن تمتلىء نوراً وهي تستقبل سيد ولد آدم.

روى السهيلي عن أم عثمان الثقفية قالت: حضرت ولادة الرسول ﷺ فرأيت البيت حين وضع قد امتلأ نوراً، ورأيت النجوم تدنو حتى ظننت أنها ستقع علي.

ولد الهدى فالكائنات ضياء   وفم الزمان تبسم وثناء

يوم يتيه على الزمان صباحه   ومساؤه بمحمد وضاء

والآي تترى والخوارق جمة   جبريل رواحٌ بها غدّاء

واحتفلت مكة كلها بمولد الهادي البشير. يارب صل وسلم وبارك عليه. وسماه جده محمداً ﷺ، وكان المولود العظيم ﷺ تسلية لأمه آمنة التي روعت بفقد زوجها الحبيب فأعطته من حبها وحنانها ما لم تعطه أم.

وظلت ذكرى الفقيد الراحل عبد الله تعاودها فتملأ القلب الغض شجناً برغم مرور السنين، وقد قررت أن تزور القبر الذي ضم رفات الحبيب المفارق، لتخفف بعض ما تجد واصطحبت معها فلذة كبديهما ويممت شطر يثرب لتنزل عند أخوال زوجها، وروحت عن قلبها بعض ما كانت تجد وأقامت نحو شهر، ثم توجهت مع إحدى القوافل عائدة إلى مكة وهناك في الأبواء هبت عاصفة هوجاء أخرت مسيرة القافلة أياماً، وتهاوت السيدة آمنة مريضة لا تقوى على السير، ثم أسلمت الروح بين يدي ولدها الحبيب مودعة إياه بقولها: كل حي ميت، وكل جديد بال، وكل كبير يفنى . . . .

وودع الجثمان الطاهر في صعيد الأبواء، وأوحشت الصحراء كئيبة، وعاد الطفل الحبيب صلوات الله وسلامه عليه ملتاعاً حزيناً كسير الفؤاد. ألا ما أقسى فراق الأحبة على القلوب الرحيمة الرقيقة، لقد ظلت ذكرى الأم الحبيبة وطيفها يعاودان المصطفى ﷺ دهراً طويلاً، فتمتلىء نفسه العظيمة رحمة وشفقة ويفيض الدمع من عينيه سخياً.

وها هو ذا رسول الله ﷺ بعد أكثر من أربعين سنة من فقد أمه تعتاده الذكرى فيستأذن ربه أن يزور قبر أمه فيأذن له فيبكي، ويبكي من حوله.

عن عبد الله بن مسعود قال: «خرج النبي ﷺ وخرجنا معه حتى انتهينا إلى المقابر فأمرنا فجلسنا، ثم تخطى القبور حتى انتهى إلى قبر منها فجلس إليه فناجاه طويلاً ثم ارتفع صوته ينتحب باكياً فبكينا لبكاء رسول الله ﷺ، ثم إن رسول الله ﷺ أقبل إلينا فتلقاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: ما الذي أبكاك يا رسول الله فقد أبكانا وأفزعنا؟ فأخذ بيد عمر ثم أومأ إلينا فقال: أفزعكم بكائي؟ فقلنا: نعم يا رسول الله. فقال ذلك مرتين أو ثلاثاً، ثم قال: «إن القبر الذي رأيتموني أناجيه قبر أمي آمنة بنت وهب، وإني استأذنت ربي في زيارتها فأذن لي».

وبعد فهذه هي السيدة آمنة أم المصطفى ﷺ المرأة الكريمة الطاهرة ذات الحسب والنسب والأصل الشريف والمعدن النظيف، اختارها الله لتكون أم سيد المرسلين وشهدت مكة وساداتها بأنها قد نالت الفضل من رب العالمين وشاء الله أن يظل اسمها وتاريخها وسيرتها أموراً تتناقلها الأجيال وتذكر فضل هذه السيدة ومكانتها وحب الرسول ﷺ لها وحنوها عليه ورأفتها به.

لقد كانت نعم الأم الحانية الفاضلة عاشت حياة كريمة وماتت، وانتقلت إلى جوار ربها وبقيت تلك السمعة العطرة والتاريخ الفواح تتناقله الأجيال جيلاً بعد جيل.

لله شـــاءك أن تكـوني فيـــنا أماً لخـير المرســلين حنونا

فاختارك المولى لحمـل أمـــانة فخلقت آمنةً وضـــعت أمينا

لله احشـــاء توســـــد أحمـــدٌ جنباتها فحنــت علــيه جنينا

لله أصــلاب تقلـــــــب أحمدٌ فيها فســـادت أظهراً وبطونا

يامن كسوتِ الدهرَ أشـرف حلـة وجعلــت درة تاجـــه الإثنينا

جهلوا مقامك حين قالــوا قولـة ولقد أســاءوا في النبي ظنونا

ترجـــوه أمـــته وتيأس أمـه ؟ حاشــاه وهـو ببرهــا يوصينا

ولسـوف يرضيه الإله فهــل ترى يرضـــى لآمنة تذوق الهونا ؟

الله أعلــم حيث يجعـــــل دينه ولقد رضــينا ديـن ابنك دينا

إن كان أشـــــرف بقعة تلك التي أضحى بها خــير الأنام دفينا

فلكونها ضمت عظام المصـطفى لكن ببطــنك كـونت تكوينا

يا أم خيـر المرســلين وجــدة الزهـــــراء أمطــرك الحيـاء هتونـــــا

سعدت بك الأبواء حين نزلتـها فتعطرت ذكــراً وطابت طينا

يا من له الخلق العظيـم ســجية والعفو عندك نـاله الراجــونا

عفــواً رســول الله إن حيــاءنا منع الكلام وهيبة تعـــــرونا

أعطاك ربك رتبــة لـم يعطــها عيسى ولا موسى ولا هارونا

يارب صــل علــى النبي وآلـــه ما قــام حـادي أو تلا تاليــنا

* * * * *



صورة رقم (٧) مكان مولد سيدنا علي رضي الله عنه بشعب علي
ومكانه الآن مدارس النجاح بمكة المكرمة

صورة رقم (٨) جبل شِعب علي - والشِعب

صورة رقم (٩) مدخل شعب علي رضي الله عنه وقد كان من الأماكن المشهورة بمكة المكرمة ولا يزال



صورة رقم (١٠) مكان مولد الرسول ﷺ في مدخل شعب علي

صورة رقم (١١) قبر السيدة آمنة بنت وهب ، أم الرسول ﷺ



صورة رقم (١٢) الوادي الذي يربط بين قرية الأبواء وقبر السيدة آمنة بنت وهب
أم الرسول ﷺ

صورة رقم (١٣) الجبل الذي يقع في أعلاه قبر السيدة آمنة بنت وهب
أم الرسول ﷺ

أما أبو فاطمة فهو محمد بن عبد الله القرشي الهاشمي ويكفيها ويكفينا شرفاً أنه رسول الله ﷺ، ابن الذبيحين، الذي سمعت أمه حين حملت به هاتفاً يهتف في رؤياها : إنك قد حملت بسيد هذه الأمة وقيل حملت بأشرف الإنس والجن وحين وضعته تقول قابِلتُها أمُّ عثمان بنت أبي العاص : رأيت البيت حين وقع امتلأ نوراً وإني لأنظر إلى النجوم تدنو مني حتى إني لأقول : لتقعن علي[1].

أسند ابن سعد من عدة طرق عن آمنة بنت وهب أم محمد ﷺ أنها قالت : رأيت كأن شهاباً خرج مني حتى أضاءت له الأرض[2] وبركة النبوة قد حلت منذ أيامه الأولى مع كل شيء يكون فيه الطفل الرضيع محمد وها نحن أولاءِ نستمع إلى أمه من الرضاعة حين تحكي قصتها معه فتقول : خرجت من بلدي مع زوجي وابن لي صغير أرضعه، وذلك في سنة شهباء لم تبق لنا شيئاً، وخرجت في نسوة من بني سعد بن بكر نلتمس الرضعاء، على أتان لي قمراء[3] ـ معنا شارف[4] ـ والله ما تبض بقطرة، وما ننام ليلتنا أجمع من صبينا الذي معنا من بكائه من الجوع، وما في ثديي ما يغنيه وما في شارفنا ما يغذيه. ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج، فخرجت على أتاني تلك، حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء، فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها محمد ﷺ، فتأباه إذا قيل لها إنه يتيم.

وذلك أنا انما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي فكنا نقول : يتيم؟ وما

---

(١) ابن حجر في الإصابة ، والاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر في ترجمة أم عثمان .
(٢) ابن سعد ١ : ١٠٢ .
(٣) القمرة (بالضم) لون إلى الخضرة ، أو بياض فيه كدرة .
(٤) الشارف الناقة المسنة .

عسى أن تصنع أمه وجده؟ فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعاً، غيري، فلما أجمعنا على الانطلاق قلت لصاحبي: والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعاً. والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه. قال: لا عليك أن تفعلي، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة.. فذهبت إليه فأخذته، وما حملني على أخذه إلا أني لم أجد غيره، فلما أخذته رجعت به إلى رحلي، فلما وضعته في حجري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن، فشرب حتى روى، وشرب معه أخوه حتى روى، ثم ناما، وما كنا ننام معه قبل ذلك. وقام زوجي إلى شارفنا تلك فإذا هي حافل، فحلب منها فشرب وشربت معه حتى انتهينا ريا وشبعا، فبتنا بخير ليلة.. يقول صاحبي حين أصبحنا: والله يا حليمة لقد أخذت نسمة مباركة! فقلت: والله أني لأرجو ذلك.

ثم خرجنا وركبت أتاني وحملت محمداً عليها معي، فوالله لقد قطعت بالركب ما لا يقدر عليها شيء من حمرهم، حتى إن صواحبي ليقلن لي:

يا ابنة أبي ذوئيب، ويحك! اربعي علينا[1]، أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها؟

فأقول لهن: بلى والله إنها لهي هي!

فيقلن: والله إن لها لشأنا.

ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد، وما أعلم أرضا من أرض الله أجدب منها، فكانت غنمي تروح عليّ، حين قدمنا به معنا، شباعاً لُبَّناً، فنحلب ونشرب، وما يحلب إنسان غيرنا.. قطرة لبن، ولا يجدها في ضرع، حتى

---

(١) أي تمهلي وانتظري.

كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم : ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب .

فتروح أغنامهم جياعاً ما تبض بقطرة لبن، وتروح غنمي شباعاً لبناً فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه، وفصلته[1] .

وهكذا كانت البركة في محمد بن عبد الله أبي فاطمة تلازمه منذ ولادته وفي طفولته .

ولما انتقل محمد ﷺ إلى كفالة عمه أبي طالب نهض بحقه على أكمل وجه، وضمه إلى ولده، بل قدمه عليهم، واختصه بفضل احترام وتقدير وظل فوق أربعين سنة يعز جانبه ويبسط عليه حمايته، ويصادق ويخاصم من أجله، وهذا أداء لحق صلة القرابة ولما لمسه في شخصه الكريم من خصال لا توجد في غيره، ولما رآه من فيوضات البركة التي تفيض من حوله، وبه، فقد أخرج ابن عساكر عن جلهمة بن عرفطة قال: قدمت مكة وهم في قحط فقالت قريش يا أبا طالب ومعه غلام، كأنه شمس دجن، تجلت عنه سحابة قثماء، حوله أغليمة، فأخذه أبو طالب، فألصق ظهره بالكعبة، ولاذ بأصبعة الغلام، وما في السماء قزعة، فأقبل السحاب من ههنا وههنا، وأغدق واغدودق، وانفجر الوادي وأخصب النادي والبادي. وإلى هذا أشار أبو طالب حين قال :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

إنه محمد ﷺ قد جمع في نشأته خير ما في طبقات الناس من ميزات وكان طرازاً رفيعاً من الفكر الصائب، والنظر السديد، ونال الحظ الأوفر من حسن الفطنة وأصالة الفكرة وسداد الوسيلة، وبلوغ الهدف، وكان يستعين بصمته

---

(١) ابن هشام ١ : ١٦٣-١٦٤ .

الطويل على طول التأمل وإدمان الفكرة، واستكناه الحق، وطالع بعقله الخصب وفطرته الصافية صحائف الحياة وشؤون الناس وأحوال الجماعات، فعاف ما فيها من خرافة، ونأى عنها، ثم عاشر الناس على بصيرة من أمره وأمرهم، فما وجد حسناً شارك فيه، وإلا عاد إلى عزلته، فكان لا يشرب الخمر، ولا يأكل مما ذبح على النصب، ولا يحضر للأوثان عيداً ولا احتفالاً، بل كان من أول نشأته نافراً من هذه المعبودات الباطلة، حتى لم يكن شيء أبغض إليه منها، وحتى كان لا يصبر على سماع الحلف باللات والعزى.

ومما لاشك فيه أن الله أحاطه بالحفظ، فعندما تتحرك نوازع النفس لاستطلاع بعض متع الدنيا، وعندما يرضى باتباع بعض التقاليد غير المحمودة تتدخل العناية الربانية للحيلولة بينه وبينها. روى ابن الأثير:

قال رسول الله ﷺ: ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون غير مرتين، وكان الله يحول بيني وبينه، ثمم ما هممت به حتى أكرمني برسالته، قلت ليلة للغلام الذي يرعى معي الغنم بأعلى مكة: لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة وأسمر بها كما يسمر الشباب!

فقال: أفعل، فخرجت حتى إذا كنت عند أول دار بمكة سمعت عزفاً، فقلت ما هذا، فقالوا: عرس فلان بفلانة، فجلست أسمع فضرب الله على أذني فنمت، فما أيقظني إلا حر الشمس، فعدت إلى صاحبي فسألني، فأخبرته، ثم قلت: ليلة أخرى مثل ذلك، ودخلت بمكة فأصابني مثل أول ليلة[1].

إنه محمد رسول الله ﷺ الذي قدر الله تعالى له أن يكون سيد ولد آدم وخاتم

---

(١) الكامل ٢: ٢٤.

النبيين وقد صانه الله بحفظه وكان يمتاز في قومه بخلال عذبة، وأخلاق فاضلة، وشمائل كريمة، فكان أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقا، وأعزهم جواراً، وأعظمهم حلماً، وأصدقهم حديثاً، وألينهم عريكة، وأعفهم نفساً، وأكرمهم خيراً وأبرهم عملاً، وأوفاهم عهداً، وآمنهم أمانة حتى سماه قومه الأمين لما جمع فيه من صلاح الأحوال ومرضِي الخصال، وكان كما قالت أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها : يحمل الكل، ويكسب المعدوم، ويقرى الضيف ويعين على نوائب الحق.

وكان أبو الزهراء ﷺ لا يضع قدمه ولا يحضر إلا ما يدعو إلى الحق، فقد حضر حلف الفضول، وهو حلف عقد بين عدة قبائل من قريش : بني هاشم، وبني المطلب، وأسد بن عبد العزى، وزُهرة بن كلاب، وتيم بن مرة، على أثر حرب الفجار فاجتمعوا في دار عبد الله بن جدعان التيمي لسنه وشرفه، وتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى ترد مظلمته، وشهد هذا الحلف رسول الله ﷺ، وقال بعد أن أكرمه الله بالرسالة : لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أدعى إليه في الإسلام لأجبت[١].

وهذا الحلف روحه كانت تنافى الحمية الجاهلية التي كانت تثيرها العصبية الجاهلية ويقال في سبب هذا الحلف أن رجلاً من زبيد قدم مكة ببضاعة واشتراها منه العاصي بن وائل السهمي وحبس عنه حقه فاستعدى عليه الأحلاف عبد الدار ومخزوماً، وجمحا وسهماً وعديا فلم يكترثوا له، فعلا جبل أبي قبيس، ونادى بأشعار تصف ظلامته، رافعاً صوته، فمشى في ذلك

---

(١) البداية والنهاية ٢ : ٢٩١.

الزبير بن عبد المطلب، وقال : ما لهذا مترك ؟ حتى اجتمع الذين مضى ذكرهم في حلف الفضول فقاموا إلى العاصي بن وائل فانتزعوا منه حق الزبيدي بعدما أبرموا الحلف[١] .

وهكذا كانت خطوات والد الزهراء ﷺ كلها خطوات موفقة ومسددة من الله عز وجل الذي هداه لكل خير فكانت لا تمضي به إلا إلى الحق، ولا يجلس إلا في مجلس حق.

وكان المصطفى ﷺ من الكادحين في شبابه يأكل رزقه بعرق جبينه، فلم يكن يقعد وعمه يرعاه، على أنه لم يكن له عمل معين في أول شبابه، إلا أن الروايات توالت أنه كان يرعى غنماً، رعاها في بني سعد وهو طفل، وفي مكة لأهلها على قراريط، وفي الخامسة والعشرين من سنه خرج تاجراً إلى الشام في مال خديجة رضي الله عنها. قال ابن إسحاق : كانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها، وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم، وكانت قريش قوماً تجاراً فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها من صدق حديثه، وعظم أمانته وكرم أخلاقه بعثت إليه، فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجراً وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار مع غلام لها يقال له ميسرة فقبله رسول الله ﷺ وخرج في مالها ذلك، وخرج معه غلامها ميسرة حتى قدم الشام[٢] .

وكانت رحلة رسول الله إلى الشام بتجارة خديجة هي الخيط الأول في نسيج زواجهما المبارك الميمون، فلما رجع إلى مكة رأت خديجة في مالها الأمانة والبركة ما لم تر قبل هذا، وأخبرها غلامها ميسرة بما رأى فيه ﷺ من

---

(١) انظر الروض الأنف ١ :١٥٦ .

(٢) ابن هشام ١ :١٨٨ .

خلال عذبة وشمائل كريمة، وفكر راجح، ومنطق صادق، ونهج أمين.

فوجدت خديجة ضالتها المنشودة في هذا الشاب الصادق الأمين، وكان سادات قريش ورؤساؤها يحرصون على الزواج بها فتأبى عليهم ذلك، وذات يوم تحدثت بما في نفسها إلى صديقتها نفيسة بنت أمية.

وذهبت نفيسة إلى النبي ﷺ تفاتحه في أمر الزواج من خديجة، فرضي بذلك، وكلم أعمامه، فذهبوا إلى عم خديجة وخطبوها إليه، وتم الزواج الميمون، وحضر العقد بنو هاشم ورؤساء مضر، وذلك بعد رجوعه من الشام بشهرين وأصدقها عشرين بكرة، وكان سنها إذ ذاك أربعين سنة، وكانت يومئذ أفضل نساء قومها نسباً وثروة وعقلاً، وعفة وشرفاً، وهي أول امرأة تزوجها رسول الله ﷺ ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت.

وننتهز فرصة الزواج المبارك لنطوف بعض الوقت مع أم فاطمة الزهراء رضي الله عنهما، نغوص في عراقة الأصل والمنبت فقد كانت امرأة عظيمة على خلق وفضل ورجاحة عقل وحسن منبت وتنحدر من جذور عريقة وكريمة.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

السيدة خديجة

خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى، وعبد العزى هذا هو أخو عبد مناف أحد أجداد النبي ﷺ إذ أبوهما قصي بن كلاب، فهي رضي الله عنها تلتقي مع رسول الله ﷺ في الجد الرابع وهو قصي بن كلاب.

ولا ينسى التاريخ موقف خويلد حينما وقف في وجه تبع عندما جاء من اليمن حاجاً، وسولت له نفسه أن ينتزع الحجر الأسود، ويأخذه معه، فتصدى له خويلد وراح ينازعه فيما أقبل عليه ويبين له أن إقباله على هذا الأمر جدير بأن يغضب الله، وأن رب البيت لن يتركه بل ستحل عليه اللعنة التي تؤدي به إلى التهلكة.

وقف خويلد وجماعة معه في وجهه، حتى امتلأت نفسه بالرهبة والخوف وبدأت داخليته تتأثر بما سمع من خويلد، وفكر طويلاً فيما سيقبل عليه، حتى إذا دخل تبع البيت ونامت عينه كان حديث خويلد يملأ عليه تفكيره، ويشغل باله، إذ به يرى رؤيا تفزعه وتحذره من الإقدام على ما نوى عليه، وتنذره بأن اللعنة ستحل به، فما كان منه إلا أن صرف النظر عما كان سيقدم عليه. يقول السهيلي: وخويلد بن أسد هو الذي نازع تبعاً حين حج، وأراد أن يحتمل الركن الأسود معه إلى اليمن، فقام في ذلك خويلد، وقام معه جماعة، ثم إن تبعاً روع في منامه ترويعاً شديداً حتى ترك ذلك، وانصرف عنه.

أما ابن إسحاق فقد تناول القصة بالبسط والتوضيح فقال: فلما أراد ـ تبع ـ الشخوص إلى اليمن، أراد أن يخرج حجر الركن فيخرج به معه فاجتمعت قريش إلى خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي.

فقالوا : ما دخل علينا يا خويلد إن ذهب هذا بحجرنا !

قال : وما ذاك ؟

قالوا : تبع يريد أن يأخذ حجرنا ، يحمله إلى أرضه .

فقال خويلد : الموت أحسن من ذلك . ثم أخذ السيف وخرج ، وخرجت معه قريش بسيوفهم حتى أتوا تبعاً .

فقالوا : ماذا تريد يا تبع إلى الركن ؟

فقال : أريد أن أخرج به إلى قومي .

فقالت قريش : الموت أقرب إلى ذلك ، ثم خرجوا حتى أتوا الركن فقاموا عنده فحالوا بينه وبين ما أراد .

هذا هو خويلد الرجل الشجاع المطاع في قومه ، الذي دافع عن بيت الله تعالى وهو في الجاهلية ، وكان معروفاً بفضائل الخلق والكرم والطهر والإباء .

وأم السيدة خديجة رضي الله عنها هي فاطمة بنت زائدة بن الأصم بن رواحة بن حجر بن عبد بن معيص بن عامر بن لؤى ، وأم فاطمة ، ـ أي جدة خديجة ـ هي هالة بنت عبد مناف بن الحارث الذي يصل إلى لؤيّ بن غالب ، فكلا أبويها من أعرق البيوت في قريش نسباً ، وأعلاهم حسباً ، فقد نبتت في بيت واسع الثراء ، ملتزم بالأخلاق الفاضلة ، ومعروف بالتدين ، والبعد عن الانغماس في الملاهي التي كان بعض بيوتات قريش غارقة فيها .

وكانت عناية الله تعالى ترعى خديجة وتحرسها منذ طفولتها الأولى ، لأنها خلقت لتكون أماً للمؤمنين وليس كل امرأة تصلح لتكون أماً للمؤمنين وقد هيأ الله تعالى لزوجات رسول الله تربية خاصة ، وعناية إلهية حرستهن منذ أن خلقن ونشأن ، واختارهن الله سبحانه وتعالى لحكمة ومهمة يقمن بها ،

ولذلك فإن رسول الله لم يتزوج امرأة مهما كانت منزلتها أو قرابتها إلا بإلهام من الله تعالى إليه وذلك لحكمة خاصة ومهمة ستقوم بها وغرض يتحقق بذلك الزواج.

وكان من عادة بيوت الأشراف من قريش أن تتزوج البنات في سن مبكرة، فإذا جاوزت العاشرة أو أتمتها طلبت للزواج، وكان لا يجرؤ أن يطلب يد واحدة من هذه البيوت، إلا إذا كان شريف النسب معروفًا بالمروءة والفضل.

ولقد تقدم إلى خديجة الفتاة البالغة بعد بلوغها العاشرة بقليل عتيق بن عابد ابن عبد الله المخزومي فولدت له عبد الله ثم مات عتيق ولم يتم الترمل بخديجة فقد خطبها هند بن زرارة بن النباش التميمي فولدت له ابنين هما: هند والحارث، وابنة هي زينب.

وإذا تكلمنا عن أهل خديجة رضي الله عنها وعشيرتها والمقربين إليها وجدنا أن التاريخ لم يذكر أحداً منهم إلا كان علماً في الشجاعة والشمم، فحكيم بن حزام ابن أخي السيدة خديجة رضي الله عنها، كان من ذوي الأموال الطائلة، وكذلك كان ورقة بن نوفل وهو من أبناء عمومتها، ونذكر هذين الشخصين لما لهما من أثر كبير في حياة السيدة خديجة، أما حكيم هذا فقد ولدته أمه في جوف الكعبة، حين دخلتها وجاءها المخاض، فكان هذا شرفاً يعتز به.

وكان حكيم راجح العقل، له دراية ورأي، حكيم النفس، مبسوط اليد في العطاء إلى درجة لم يصل إليها إلا القليل. فقد دخل دار الندوة وأصبح من رجالها وهو ابن خمس عشرة سنة، وكان لا يقبل عضواً فيها إلا من بلغ الأربعين، فقبوله بهذه السن، دليل على ما كان يمتاز به حكيم من رجاحة العقل، وسداد الرأي، وسلامة التفكير ولطالما غبط أبو سفيان في الجاهلية

حكيماً على بلوغه تلك المكانة، وتمنى أن يصل إلى ما وصل إليه حكيم بن حزام.

وصرف حكيم تفكيره ونشاطه إلى التجارة، فكانت قوافله تجوب أنحاء الجزيرة العربية وتصل إلى الشام وبلاد فارس وغيرهما، وقد عادت عليه بالربح الوفير والمال الكثير ولم يكن يدخر كل ما يكسب مع الوفرة، وإنما ينفق على الفقراء من أهل مكة، وعلى الضيفان يبتغي بذلك البركة في المال والمحبة وتأليف القلوب، وكان محباً لعمته، دائم التردد عليها في بيتها، يشاركها الرأي والعمل.

أما ورقة بن نوفل ابن عم السيدة خديجة رضي الله عنها، ذلك الشيخ الكبير الذي كان له أكبر الأثر في التربية الروحية التي كانت عليها السيدة خديجة رضي الله عنها في الجاهلية، قبل زواجها من الرسول ﷺ، فقد زهد في الدنيا وزهد في مباهجها، وكانت حياته كلها للتأمل في الكون، ولعبادة الله، وعكف على التوراة والإنجيل يقرأ فيهما وينقل منهما، ويجري وراء المعرفة ليتعرف على شيء من أوصاف النبي ﷺ الذي بشرت به التوراة والإنجيل وبعض الكتب الأخرى، ولقد جالس الكثير من الرهبان ، والمشتغلين بالكتب المقدسة وسمع منهم أوصاف النبي المنتظر، وكان يتشوق أن يدركه قبل أن يموت، وبخاصة عندما علم أن هذا النبي من ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

وكان ورقة بن نوفل بجانب بعده عن الرجس والأوثان وعبادة الأصنام والتوجه إلى الله خالق الكون والإيمان العميق بالحساب والجزاء والجنة والنار شاعراً رقيق الإحساس كبير النفس والقلب يحب الناس ويألفهم، وكانوا يحبونه ويألفونه، فإذا ما مر بمجلس من مجالس القوم رحبوا به، وتمنوا لو يقضي معهم وقتاً طويلاً إلا أنه كثيراً ما كان يؤثر الوحدة والتعبد.

ولقد تأثرت السيدة خديجة بهذين الرجلين، فكان حكيم بن حزام ابن أخيها مثلها الأعلى في التجارة والغنى ورجاحة الرأي، وكان ورقة مثلها في التحنث والتأمل وقد آمنت إيماناً عميقاً بما يقول، وكثيراً ما مرت خواطر بنفسها الكريمة، وعقلها الراجح، وتفكيرها الهادف وكثيراً ما تساءلت عن الله وآياته، وثوابه وعقابه وجنته وناره، وقيمة العمل الصالح والانفاق على الفقراء والمساكين ومساعدة المحتاجين.

وكان ورقة بصفاء نفسه ورقتها يشعر بما تنطوي عليه نفس ابنة عمه، فقد كانت نفساً خالية من الشوائب الدنيوية، يجيبها عما تسأل مما عرف من قراءته وتجاربه حتى تأثرت به في حياتها الدينية فلم تسجد لصنم من الأصنام، ولم تقدم إليها قرباناً ولا نذرت لها نذراً.

ولهذا كانت حياتها في الجاهلية خالية من الأوثان والأصنام والرجس، والعبادة لغير الله.

وقد تمتعت السيدة الفاضلة خديجة بسيرة ذاتية نقية في أوساط مكة وبين أهلها وخاصة في قريش، وقد لقبت بعدة ألقاب، دلت على تميزها على قريناتها بخصال حميدة لم تجتمع في واحدة منهن وقد عبرت هذه الأسماء بصورة أو بأخرى عن مكانتها والحب الذي كانت تتمتع به في قلوب الناس.

وأول تلك الألقاب الطاهرة ووصفها بهذه الصفة أو فوزها بهذا اللقب، لم يكن جزافاً إنما كان عن جدارة واستحقاق، فلقد تزوجت في الجاهلية مرتين قبل اقترانها بسيد البشر محمد ﷺ ومات زوجها الثاني وهي في مقتبل العمر والشباب، وكانت ترفل في ثوب العز والرفاهية فأقبلت على التجارة تصرف فيها أوقاتها، وكثر طلابها والراغبون فيها وقد أبت أن تتخذ من التجارة ذريعة للاتصال بالرجال.

فقد اتخذت لنفسها طريقا جادة بعيدا عن الأهواء والنوازع والرغبات،

فلقد كانت تجارتها كثيرة ومتنوعة، ولم تكن تتصل بتجار ولم تشترك معهم في اجتماع خاص أو عام، بل كان ينوب عنها في ذلك عبيدها ومواليها وعلى رأسهم مولاها المخلص ميسرة وكانت تلقى إليهم الأوامر لينفذوها، وكان هناك قاعة واسعة منبسطة يبلغ طولها نحو ستة عشر متراً وعرضها نحو سبعة أمتار ويعتقد أنه المكان الذي كانت تخزن فيه تجارتها (انظر الرسم ص (٢١) وقد بقيت آثار ذلك البيت مدفونة حتى عام ١٤١٢ عندما تمت بعض الحفريات حول الحرم من ناحية المسعى (انظر الرسم ص (٢١) ويظهر فيه منزل السيدة خديجة رضي الله عنها.

ومن وسائل الفوز اللقب الطاهرة إنها لم تله أبداً مع النساء اللاهيات، فالمعروف أن بيوت مكة في الجاهلية كثيراً ما يقام فيها ليالي مرح ولهو وغناء، وكانت السيدة خديجة تمر على هذه البيوت، وبعضها بيوت أبناء العمومة أو الخؤولة، وفيها وفيها من اللهو والسهر ما يرفه عن النفوس المثقلة بهموم العمل ومتاعب الحياة. ولكن كل المغريات في هذه البيوتات لم تغر الطاهرة باللهو مهما كان بريئاً مع قريناتها من بنات قريش.

وقد حفظ نساء مكة، وحفظ لها التاريخ، ما كان لها في نفوسهن من منزلة عظيمة، وكن يذهبن إليها زائرات فينلن من كرمها وفضلها، وإذا ما خرجت إلى البيت العتيق لتطوف به، خرجن معها، وقد أحطن به، فلا تلغو واحدة منهن في قولها، ولا تتكلم إلا بالجد من القول، وكن حريصات أن لا تسمع الآذان الطاهرة منهن كلمة تنبو عنها.

وقد ثارت النسوة وغضبن حينما طلع عليهن يهودي وهن عند البيت العتيق وناداهن قائلاً: يا نساء قريش سيظهر نبي في هذا الزمن فمن أرادت أن تكون له فراشاً فلتفعل. فثارت النسوة اللاتي كن مع الطاهرة وقذفنه بالحجارة، أما إذا لم تكن الطاهرة معهن فقد كن لا يتورعن عن اللهو والضحك

والمزاح. ومن ألقابها التي فازت بها دون نساء قريش سيدة نساء قريش ولا يلقب بهذا اللقب الكبير، وهذه الصفة الغالية إلا من حازت صفات تقترب من الكمال، وقد أجمع الناس على ما امتازت به خلقاً وخلقاً، فلم تخضع للمال الذي يفيض عليها من تجارتها، ولم تستعبدها التجارة، فتتحكم في خصالها، وتجعلها لتحقيق رغبة، أو لتجني ثمرة، إنما هي التي تخضع كل هذا لعاطفة سامية، قال العلماء والكتاب في تحليلها : كانت نفسها مشغولة عن الناس، وعن التحدث في أمورهم، بالبحث والسؤال عما وراء هذه الحياة، كانت تسأل عن الرسل الذين أرسلوا، وعن الرسول الذي سيرسله الله لهداية الناس، وعن الإله العظيم، الخليق بالعبادة، والذي ينبغي السجود له والخضوع لسلطانه، يساعدها في هذا التفكير نفسها الصافية، وذكاؤها المتوقد.

فقد روت كتب التاريخ أنها كانت دائمة الحديث مع ابن عمها الشيخ الكبير ورقة بن نوفل عن الرسول الذي سيرسله الله لهداية البشر.

وكانت دائماً تردد أسئلة بينها وبين نفسها : هل قرب زمن هذا النبي ؟ وهل ستراه ؟ وما مكانها منه ؟

لقد أبعدها هذا التفكير السامي في الرسالة المنتظرة والرسول، عن لغو الحياة الذي كان متبعاً في ذاك الزمان، فارتفعت إلى مقام محمود بين الناس، جعلها تفوز بلقب سيدة نساء قريش ولم تكن قريش خالية من نساء كريمات، فقد كان في مكة ـ وفي قريش خاصة ـ كثير من النساء ذوات العقل والفكر وصاحبات الحزم والثبات، لكن السيدة خديجة تفوقت عليهن بفكرها وعقلها وحزمها وثباتها وشرفها وطهارتها وترفعها عن لغو الحياة، كما اشتهرت بين قومها بالفضل والكرم ومعاونة المحتاج، وكان يغشى بيتها

الفقيرات والمحتاجات والضيفان، فكانت تنفق على الجميع من خيرها وبرها، حتى غبطها أهل مكة لمقامها وأخلاقها وذكائها وانفاقها، فلقبوها بهذا اللقب سيدة نساء قريش. وفوزها بلقب أم المؤمنين يرتفع بها إلى منزلة عظيمة، ومكانة مرموقة على مر الأيام والدهور، فلقد بذلت أقصى ما في وسعها لتخفف عن رسول الله ﷺ وعمن معها من الأهل والمسلمين وطأة المقاطعة والحصار، كانت ترسل سراً إلى أهلها وذويها والمخلصين الذين لم يقعوا تحت نير الحصار والمقاطعة، ليرسلوا لها ما يستطيعون إرساله من الطعام، لتستعين به ومن معها من المسلمين وقد ظاهروا أعداء الدعوة، فكانوا أوفياء لها وأسرعوا إلى الاستجابة لطلبها، ولقد كرمها الله بأن جعلها أولى أمهات المؤمنين.

ولعل من أسمى الألقاب وأرفعها وأعظمها منزلة وأشرفها أن تلقب الطاهرة وسيدة نساء قريش وأم المؤمنين بلقب هو سيدة نساء العالمين وهذا اللقب لم تنله سيدة من أمة محمد ﷺ سواء زوجاته الميمونات رضي الله عنهن أو من غيرهن إلا إذا استثنينا السيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله وبنت السيدة الطاهرة خديجة رضي الله عنهما، ولم تنله قبلها إلا امرأتان عظيمتان ممن اختار الله تعالى هما مريم بنت عمران، والسيدة آسية بنت مزاحم.

فقد روى الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خط رسول الله ﷺ في الأرض أربعة خطوط وقال: أتدرون ما هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم قال رسول الله ﷺ: «أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم ابنة عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون». وفي البخاري عن علي كرم الله وجهه عن النبي ﷺ: «خير نسائها مريم وخير نسائها خديجة». وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أفضل نساء

أهل الجنة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم ابنة عمران، وآسية بنت مزاحم زوجة فرعون»[1].

وهذه منزلة استحقها ونالتها أم الزهراء عن جدارة فقد قدمت لله كل ما تملك وضحت في سبيله بكل غال وعزيز وشدت من أزر رسول الله ﷺ، ولم تتخل عن مساعدته ومعاونته، وسوف يتضح ذلك من خلال معالجة حياة الزهراء، وأثرها في حياة ابنتها.

*****

---

(١) هذه الأحاديث وردت في كثير من كتب السيرة والتراجم والتفسير ، وكتب السنة وأورد بعضها البخاري في باب المناقب .

الزواج المبارك وثمرته

عم السرور أنحاء مكة حين ذاع خبر خطبة الأمين محمد بن عبد الله لخديجة بنت خويلد، وأصبحت أخبار هذا الزواج المرتقب تستأثر بمجتمعات مكة وأنديتها وغبطت النساء الثيبات والأبكار خديجة بهذا الزوج الكريم الذي كانت تتطلع إليه العيون وتهفو إليه القلوب من بنات قريش، فما كان في شباب مكة أنضر شباباً ولا أطهر قلباً، ولا أحزم رأياً ولا أصوب قولاً ولا أعلى مكانة ولا أكبر شرفاً من الأمين الذي استحوذ على القلوب بجميل صفاته وعظيم أخلاقه ورفعة نسبه وكمال صدقه وأمانته.

وحدد يوم الزفاف فأقيمت الأفراح ونحرت الإبل، ونصبت الجفان، وحضرت السادة والكبراء، والشباب وعمت المباهج والمسرات بيوت مكة التي كانت تعد محمداً أكرم أبنائها وافضل شبابها، وحضر الاحتفال كبار مكة، وزعماء عشائرها وسادة بطونها، وخيرة شبابها وأبنائها، وتسابق القوم في نحر الإبل وذبح الذبائح وتهيئة الطعام ومدت الأسمطة ونثرت القصاع، وأكل الناس جميعاً حتى شبعوا، وطربوا وغمرهم السرور، وأشرقت السعادة في القلوب، فما في مكة رجل ولا امرأة ولا شاب ولا فتاة إلا شارك بهذه المناسبة العزيزة، وبلغ الفرح مداه، فأي حدث أعظم في نظرهم من هذا الحديث، وإذا لم تسعد مكة بهذا الزواج فبأي زواج غيره تسعد، وبأية مناسبة غيرها تطرب وتفرح وتلعب؟

ومضت الحياة بالزوجين الكريمين هانئة سعيدة طيبة ووجد محمد بن عبد الله في خديجة عطف الزوجة وحنانها وبرها ووفاءها فكانت له نعم الزوج مودة ورحمة وكان لها خير الأزواج عطفاً وحناناً.

ولقد ملأ محمد عليها الدنيا وأحست بالسعادة تملأ البيت، وتفيض على قلبها ونفسها، وقد كانت تعلم أنها تزوجت رجلاً ليس كسائر رجال مكة، بل لا مثيل له ولا مشابه في الجزيرة العربية كلها، إنه رجل لا يأنس إلى خمر، ولا يلجأ إلى جوار صنم، ولا ينتظم به مجلس ميسر، ولا تستخف بعقله مباهج الحياة وإغراءاتها التي جذبت أكثر أبناء مكة من رجال ونساء.

وجدت خديجة نفسها أمام شخصية فذة محت ما علق بذهنها من خيال، إن ذكرت الأخلاق، وما يتحلى به الرجال من صفات فإن محمداً قد بلغ أعلى درجات الكمال الإنساني، وإن ذكرت الرجولة والحكمة، فليس في الوجود من هو أملك لها من زوجها. . لقد وجدت فيه من آيات الرجال وصفاتهم ما لم تره فيمن عرفت، بل ما لم تسمع بمثله أبداً عند أحد من الرجال.

إنه رجل راجح العقل، طيب القلب، نقي السريرة، له همة تعجز أن تقف في طريقها جبال مكة وبطحاؤها، بل همة تسع العالم كله، إنه شخص حين يعرفه من يتصل به يحس على الفور أنه رجل يعد لرسالة عظمى.

ولهذا كان في إحساس خديجة وشعورها إيمان قاطع بأن محمداً هو نبي هذه الأمة، ولكن متى سيكون ذلك، وكيف يكمل الاتصال بينه وبين ربه، وما هو الأمر غير العادي الذي سيكون على يديه؟!

كان الزوج يحب الخلوة، فما اعترضت الزوجة ـ وهي زوجة ـ على مثل هذه الخلوات، بل إنها هي التي كانت تعد له زاده ليستعين به على الخلوة، الخلوة إلى النفس، زاد كل إنسان عابد، متعلق بربه، إنه يخلو إلى نفسه ويخلصها من كل ما يشغله من مشاغل الحياة ويجلس وحده يتفكر في آلاء الله ونعمه، ويكثر من ذكره، ويعمر قلبه بزاد من الخوف والرجاء، الخوف من الله تعالى، القادر المقتدر، والرجاء في رحمته ورضوانه.

وكأن محمداً كان يعد نفسه لتلك الرسالة العظمى التي سوف تخرج الناس من الظلمات إلى النور، ولكن الله عز وجل هو الذي كان يعده لهذا الدور العظيم وكانت عين الله ترعاه في كل خطوة من خطاه ليحمل شرف هذه الرسالة العظيمة التي كانت بانتظاره على أحسن ما يكون الحمل، وأكمل ما يكون عليه البلاغ وكانت الزوجة الطاهرة الوفية المطيعة تعرف حجم ما يدور في فؤاد زوجها، وتقدر تلك المسؤولية المنتظرة، وتعرف مطالبها وتوطد نفسها لتعينه على أدائها.

وتنقضي الأيام وتتعاقب، وخديجة تحرص على ألا تشغله بصغائر الأمور وتهيىء له الجو المناسب لتعبده وخلوته.

ولاحت بوادر الحمل، ففرحت خديجة فرحاً شديداً فما كانت امرأة في قريش أشد لهفة على الحمل منها، وكيف لا تكون فرحتها عظيمة وهي زوجة للصادق الأمين زين شباب مكة، وقد ناهزت الأربعين، وزفت إلى زوجها الكريم بشرى حملها الذي استمرت متاعبه، واستخفت ثقله، فظلت طوال شهوره التسعة تعد دنياها لاستقبال الوليد، وتختار له المرضع قبل أن يولد كما جاء في الإصابة لابن حجر.

وجاءت اللحظة الحاسمة ومضت فترة من الوقت والأب الكريم في انتظار أن تزف إليه البشرى وكله شوق إلى رؤية الفلذة الحية من صلبه، يرى حبة القلب التي سوف تمشي على الأرض، ولم يمض وقت طويل حتى جاءته القابلة وبشرته بمولودته الأنثى، فخفق لها قلبه وفرح بالهبة الربانية الكريمة، وحمد الله على ما حباه من الولد وأجزل له الشكر على سلامة زوجته الغالية، ثم ما لبث أن سماها زينب[1].

---

(١) قيل إن أول مولود للرسول ﷺ هو ولده القاسم، وقيل إنه ولد ومات قبل المبعث، وفي هذا رواية في الروض الأنف عن الزبير بن العوام بن خويلد قال: =

ولم يحزن النبي ﷺ لأن الله رزقه بأنثى كما كان يفعل الجاهليون، فقد استقبلها بفرح وسعادة، ونحرت الذبائح احتفالاً بموولدها، وقد أضفت على البيت مزيداً من الإشراق والبهجة على إشراقه وبهجته بالزوجين السعيدين.

ولم يطل المقام بزينب في البيت وحدها، فقد حملت أمها مرة أخرى، وما هي إلا شهور وقد استقبل البيت مولودة جديدة هي رقية واستقبلها الأبوان بنفس راضية مطمئنة فهما على صلة وثيقة بالوهاب المنان خالق الخلق، وقد عدوا ذلك هبة طيبة من الله تعالى وخيراً وبركة.

ثم جاءت الثالثة من بعدهما أم كلثوم وكان الظن أن يضيق الأبوان بمولد أنثى ثالثة في بيئة مفتونة بالبنين، ولكنهما يدركان أن الأمر في هذا لله وحده، وما كانا ليجحدا نعمته عليهما، ومن ثم أقبلا على طفلتهما الثالثة شاكرين لله

= ولدت خديجة له القاسم وعبد الله وهو الطاهر والطيب، سمي الطاهر والطيب لأنه ولد بعد النبوة واسمه الذي سمي به أولا عبد الله، وبلغ القاسم سن المشي غير أن رضاعته لم تكن كملت عندما مات، وجاء في هذا المرجع نفسه أن رسول الله ﷺ دخل على خديجة رضي الله عنها يوما وهي تبكي فقالت يا رسول الله درت لُبينة القاسم - تصغير لبنة - تعني بها بقايا اللبن في ثديها، فلو عاش حتى يستكمل رضاعته. قالت لو أعلم ذلك لهون علي، فقال ﷺ : إن شئت أسمعتك صوته في الجنة. فأجابت بل أصدق الله ورسوله. وعلى هذه الرواية يكون القاسم مات رضيعا في الإسلام كأخيه عبد الله ومما لا خلاف فيه بين أهل العلم أن القاسم كان ابن خديجة رضي الله عنها، وبه كان يكنى رسول الله. مما لا خلاف عليه أيضا أن خديجة رضي الله ولدت أربع بنات كلهن أدركن الإسلام وهاجرن، فهن زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة. وأنكر بعضهم ولادتها لعبد الله ولكن أكثر الروايات في الاستيعاب والروض الأنف والإصابة وجمهرة أنساب العرب أجمعت على أن خديجة رضي الله عنها ولدت أربع بنات وولدين. ولكن متى ولد الولدان ومتى توفيا، ففيه اختلاف كبير.

ما أعطى، طامعين مع هذا في مزيد من كرمه. ومرت الأيام والزوجان الكريمان والبنات الثلاث يرفلن في حلل السعادة والنعيم وكانت الفتيات الصغيرات ينهلن من مناهل الحب، ويشربن من ينبوع السعادة الثر الفياض.

بسم الله الرحمن الرحيم

علوت فلم تدرك مقاماتك الكبرى … فغيرك لا تدعى ـ وإن عظمت ـ كبرى

وكم في نسـاء العالمين عظيمة … ولكنـها إن قورنت بك فالصغرى

تفرسـتِ في وجه النبي فراسةً … عرفت بها ما كان من أمره سـراً

رأيت به نـور النبوة سـاطعاً … فأسـرعت نحو النور فزت به مهرا

بميسـرةٍ قد يسر الله كل ما … تريدينه فاليسـر قادك لليسرى

ربحت رسـول الله حين خطبته … فكنت له مأوى. شـددت له أزرا

وأصبحت مهداً للرسـالة حاضناً … تلقيتـها من حين ما نزلت إقرا

وأنـت التي طمأنت طه بأنه … تلقى من الله الرسـالة والذكرا

وزملـته. دثـرته، ولورقـة … ذهبت بـه يتلو عليه الذي يقرا

ولما أتـى جبريل قمت بخلعك … النقاب فلم يمكث فأعلنتها بشرى

كتبت حروفـا من حياة محمد … فأصبحت في أعلا صحائفها سطرا

وقد شـكر المولى صنيعك إنه الشـكور وهذا الفعل يستوجب الشكرا

فأهداك ـ مولاك السـلام سلامه … وأعطاك في الفردوس من قصب[1] قصرا

مراتـب لا يعلى عليها ورفعة … لكم خصصت فالله أعلاكـم قدرا

---

(١) القصب: اللؤلؤ المجوف.

ترعرع هـــذا الدين في بيتكم كأنه التوأم الروحـــي لفاطمة الزهرا

فأوليــــــته حباً وصدقاً وطاعة وأحببته نهـــــياً وأحببته أمرا

وأول من صلـــــيت خلف محمد وغيرك لم يعرفن ظهرا ولا عصرا

وعاشـرت خير الرسل عشرين حجةً وبضع سـنين لا يلاقي بها عسرا

وكـــم لقي المختار بعدك من عنا هموم بعام الحزن قد أقبلت تترى

ولكن صـدر المصطفى لم يضق بها فقابلـــها بالحلم وادرع الصبرا

وظل وفياً سـيد الرسـل . ذاكراً ودادك في الأصـحاب حتى قضى العمرا

إذا ذكــــرت يوماً خديجة عنده تنهد مشــــتاقاً وأعجبه الإطرا

وعائشــــــة لما ادعت أفضلية تغيروجه المصطفى الطهر واحمرا

وشـــاهد في بدر قـــلادة زينب وقد أرسـلتها تفتدى الزوج في الأسرى

فرق لها، ســالت من الدمع عينه الشـريفة لما حركت قلبه الذكرى

فحـــبك في قلب النبي ممكن هنيئاً فقد حُزتِ السـعادة والفخرا

أرقته هـــذي انتهـــت بعد مـوته؟ ألم يك في الدنيا رحيما وفي الأخرى؟

حنانـــيك يا أماه إن دموعنا تســيل من التفريط بلَّلت النحرا

ومن يمسح الدمع الغزير إذا جرى من الابن غير الأم فهى بذا أحرى

حنانيك يا أماه فاســـتغفري لنا الله، لعل الله أن يســـبل السترا

ومدى إلى المولـــى يديك بدعوة فحاشـــا إلهي أن يردهما صفرا

وصـــــلى عليك الله بعد محمد وســـلم ما حادٍ حدا أو تلا شعرا

مع الآل والأصـــحاب ما قال قائل علوتِ فلم تدرك مقاماتك الكبرى

عبد القادر جيلاني بن سالم بن علوي خرد

رحلة الزهراء في الحياة

خرجت فاطمة الزهراء إلى الحياة في بيت من أعرق بيوت قريش فالأب الصادق الأمين لا يدانيه أحد من قريش في شرفه وصدقه وأمانته، والأم ليس في مكة من تدانيها شرفاً وعزة ورفعة.

لقد ارتضى الله تعالى لزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة أن يخرجن إلى دنياهن في أكرم بيت، وأنبتهن سلالة قرشية عريقة أصيلة ما يعرف العرب أعز منها ولا أنقى. واستقبلهن البيت الكريم استقبالاً لم تظفر بمثله لداتهن، بخلاف معظم البيوتات في مكة المكرمة، فقد كان أهلها يستقبلون البنات بوجوه مسودة، وقلوب حانقة لأن الأنثى عندهم كانت بشرى سيئة.

أما في بيت الزهراء فقد عد الزوجان محمد وخديجة هذه البشريات الأربع ثمرة طيبة لزواج سعيد قام على المودة الخالصة، وأنه رزق من الله تعالى وهبه لهما، وكانا مضرب المثل الحسن في الرضى بما وهب الله تعالى، وبما منح.

وقد رأى الأب الكريم في بناته الأربع اليانعات صورة لطيفة من زوجته الحنون التي أنسته بحنانها الفياض كل ما ذاق في طفولته من يتم، وكانت له عوضاً جميلاً عما قاسى من حرمان.

وتجد الأم في بناتها الأربع، فلذات حية من زوجها الحبيب الذي أخذت منذ عرفته بجلال طلعته، وأسرها بنبل شخصيته، وجميل خصاله، فتفتح له قلبها المغلق، وأقبلت على الحياة من جديد، تفتح شهيتها أكثر هذه الزهرات اللواتي ملأن البيت فرحاً وسروراً وحبوراً وحيوية.

وإذا كانت البنات الأربع قريبات من قلب الأم فكلهن فلذات من فؤادها إلا أن فاطمة اختصت بجزء أكبر من حبها لسببين :

الأول : أنها أصغر بناتها وهذا حق تفرضه العناية بالصغير .

الثاني : أنها أشبه بأبيها من حيث الجمال والجلال .

ودرجت ـ البنات الأربع ـ في حياتهن الأولى على ما نعرف من تقاليد البيوت القرشية العريقة، فالتمست لهن الأم ـ واحدة بعد الأخرى ـ خير المراضع حتى إذا أدركن سن الفطام عدن إلى حضانة الأم التي كانت لهن خير مربية، وقد قيل كلهن كان لهن مرضعات ما عدا فاطمة فقد فازت وحدها بشرف الرضاعة من ثدي أمها خديجة .

أمضت فاطمة طفولتها سعيدة بحب أبويها وتدليل أخواتها، وبخاصة كبراهن زينب التي كانت لها بمثابة أم صغيرة .

وفي عامها الرابع كانت إرهاصات النبوة تتبدى للأب فيكثر من رحلاته في الخلاء، الأم تعد له الزاد وتحنو عليه ما أقام معها وترسل قلبها في أثره إذا غاب، وقد انتزعته تأملاته من دنيا الناس ومضت به إلى عزلة متأملة .

وكان اختياره ﷺ لهذه العزلة طرفاً من تدبير الله له، ليعده لما ينتظره من الأمر العظيم، ولابد لأي روح يراد لها التأثير في واقع الحياة البشرية فتحولها وجهة أخرى، لابد لهذه الروح من خلوة وعزلة بعض الوقت وانقطاع عن شواغل الأرض وضجة الحياة، وهموم الناس الصعبة التي تشغل الحياة. وهكذا دبر الله للرسول ﷺ وهو يعده لحمل الأمانة الكبرى وتغيير وجه الأرض، وخط التاريخ، دبر له هذه العزلة قبل تكليفه بالرسالة بثلاث سنوات ينطلق في هذه العزلة التامة شهراً من الزمان، يتدبر ما وراء الزمان من غيب مكنون، حتى يحين موعد التعامل مع هذا الغيب عندما يأذن الله .

بدأت فاطمة ترقب ما يدور حولها، وتشاهد عزلة الأب الكثيرة، وها هي ذي قد اقتربت من تمام السنوات الخمس، وقد تكامل لأبيها أربعون سنة، وبدأت بشائر النبوة تلوح وتلمع له من وراء آفاق الحياة، وتلك البشائر هي الرؤيا، الصادقة فكان لايرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. فلما كان رمضان من السنة الثالثة من عزلته، شاء الله أن يفيض من رحمته على أهل الأرض فأكرمه بالنبوة، وأنزل إليه جبريل بآيات من القرآن. « فجاءه الملك فقال: اقرأ، فقال: ما أنا بقارىء، فأخذه الملك فغطه حتى بلغ منه الجهد، ثم أرسله فقال: اقرأ. فقال ما أنا بقارىء، ثم قال له في الثالثة: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾.

فرجع إلى بيته وهو يرتجف، فدخل على زوجته وهو يقول: « زملوني زملوني » فزملوه حتى ذهب عنه الروع. وشاهدت الزهراء ما أصاب الوالد الحبيب، وسمعت أمها تسأله: ما له؟ فأخبرها الخبر وقال: خشيت على نفسي.

فقالت الزوجة: كلا، والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلَّ، وتَكسِبُ المعدوم وتَقري الضيف، وتُعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى أتى ورقة بن نوفل فقال له: هذا الناموس الذي نزله الله على موسى، ياليتني فيها جذعاً ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: أو مخرجي هم؟

قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً».

عاد الحبيب مع زوجته، وجلس في بيته وسمع أولاده ما قاله له ورقة بن نوفل وتعجبت الصغيرة فاطمة لم يخرجه أهله، ولماذا يعادونه؟ ماذا فعل

لقد كانت هذه الكلمة أكبر من تصوراتها، فقد بلغت الخامسة من عمرها، ونضجت نضجاً عظيماً، ولكنها مازالت في ملابس الصبا لم تخلعها بعد، ولعل تلك الكلمات ترددت في ذهنها وأخذت عليها مجامع قلبها.

إلى أن عاد الأب مرة أخرى وهو يرتجف ويقول: « دثروني . . دثروني » ماالذي يحدث للأب، وأين يذهب ويعود هكذا مرتجفاً، أخذت هذه الأحداث البسيطة تأخذ فاطمة من طفولتها، وترغمها على الوحدة لتفكر في ما يدور حولها، واهتمام الأم الأكبر بما يحدث للزوج والأب، وتلك الأحاديث التي تدور بينهم على لسان ورقة بن نوفل الذي يحترمه الجميع، وتسأل نفسها: من يكون النبي الذي يتحدثون عنه، ولماذا يؤذيه أهله؟!

*****

فاطمة وسرية الدعوة

بدأت مسيرة الدعوة إلى الله تعالى بالحيطة والحذر والسرية التامة، فمكة مركز دين العرب، وكان بها سدنة الكعبة والقوام على الأوثان والأصنام المقدسة عند سائر العرب، فالوصول إلى المقصود من الإصلاح فيها يزداد عسراً وشدة عما لو كان بعيداً عنها، والأمر يحتاج إلى عزيمة لا تزلزلها المصائب والكوارث، وكان من الحكمة تلقاء ذلك أن تكون الدعوة في بدء أمرها سرية لئلا يفاجا أهل مكة بما يهيجهم.

وكان من الطبيعي أن يعرض الرسول ﷺ الإسلام أولاً على ألصق الناس به وآل بيته وأصدقائه، فدعاهم إلى الإسلام، ودعا من توسم فيهم الخير ممن يعرفهم ويعرفونه، يعرفهم بحب الحق والخير ويعرفونه بتحري الصدق والصلاح.

فأجابه من هؤلاء ـ الذين لم تخالجهم ريبة قط في عظمة الرسول ﷺ وجلالة نفسه وصدق خبره ـ جميعهم عرفوا في تاريخ الإسلام بالسابقين الأولين.

وكان في مقدمتهم زوجة النبي ﷺ خديجة رضي الله عنها التي طالما انتظرت هذه اللحظة التي يختار فيها الله تعالى زوجها ليكون نبياً، فلم تتوان لحظة في قبول الإسلام، بل كانت مسرعة سباقة إليه، ثم أسلم مولى النبي ﷺ زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي[1]. ثم أسلم علي بن أبي طالب، وكان

(١) كان زيد أسر ثم أصبح رقيقاً، واشترته السيدة خديجة رضي الله عنها، ثم وهبته للنبي ﷺ، وجاء أبوه وعمه ليذهبا به إلى قومه وعشيرته، فاختار عليهما رسول =

صبياً يعيش في كفالة رسول الله رداً لجميل عمه في كفالتهَ وتربيته، وتخفيفاً عنه أعباء الإعاشة فقد كان أبو طالب كثير العيال. وأسلم صديق النبي ﷺ أبو بكر الصديق، أسلم هؤلاء في أول يوم من أيام الدعوة.

ونشط هؤلاء في الدعوة إلى الإسلام، وفي مقدمتهم أبو بكر الصديق فكان رجلاً محبباً سهلاً، ذا خلق، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه، لعلمه وتجارته، وحسن مجالسته، فجعل يدعو من يثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه، فأسلم على يديه عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله. ثم أسلم بلال بن رباح وأبو عبيدة بن الجراح، وأبو سلمة، والأرقم بن أبي الأرقم، وعثمان بن مظعون وأخواه قدامة وعبد الله، وعبيدة بن الحارث وسعيد بن زيد العدوي، وامرأته فاطمة بنت الخطاب، وخَبّاب بن الأرت وعبد الله بن مسعود، وغيرهمم من السابقين الأولين في الإسلام.

ثم دخل الناس في الإسلام أرسالاً من الرجال والنساء حتى فشا ذكر الإسلام بمكة وتُحُدِّث به.

أسلم هؤلاء سراً وكان الرسول ﷺ يجتمع بهم ويرشدهم، إلى الدين متخفياً لأن الدعوة كانت لاتزال سرية، وقد أدركت فاطمة هي وأخواتها الثلاث دعوة الإسلام في بواكيرها السرية.

وكان الوحي قد تتابع وحمى نزوله بعد نزول أوائل المدثر، وكانت الآيات وقطع السور التي تنزل في هذا الزمان آيات قصيرة ذات فواصل رائعة منيعة، وإيقاعات هادئة خلابة تتناسق مع ذلك الجو الهامس الرقيق، تشتمل على

= الله ﷺ فتبناه حسب قواعد العرب، وكان لذلك يقال له: زيد بن محمد. حتى جاء الإسلام فأبطل التبني.

تحسين تزكية النفوس، وتقبيح تلويثها برغائب الدنيا، تصف الجنة والنار كأنها رأي عين، تسير بالمؤمنين في جو آخر غير الذي كان فيه المجتمع البشري آنذاك .

وتشربت فاطمة الزهراء هذا الجو الروحاني الطاهر، وامتلأ قلبها الغض ابن السنوات الخمس والمقبل على السادسة، امتلأ بخلال فاضلة على خلالها وحسن خلق على حسنها .

ومع أن الدعوة كانت سرية وفردية إلا أن أنباءها بلغت قريشاً بيد أنها لم تكترث ـ أي قريش ـ بها . يقول الشيخ محمد الغزالي في كتابه فقه السيرة[1] « قد ترامت هذه الأنباء إلى قريش فلم تُعِرْها اهتماماً، ولعلها حسبت أن محمداً أحد أولئك الموحدين الذين يتكلمون في الألوهية وحقوقها، كما صنع أمية بن أبي الصلت، وقس بن ساعدة، وزيد بن عمرو بن نفيل وأشباههم، إلا أن قريشاً توجست خيفة من ذيوع خبره، وامتداد أثره، وأخذت ترقب على الأيام مصيره ومصير دعوته» .

قريش ترقب الرسول ﷺ، وفاطمة تعب من رحيق الزاد الإسلامي، لقرب المنهل منها، فالرسول ﷺ أبوها، وأمها أول المؤمنين به .

وتتوالى الأيام وتمر ثلاث سنوات وتكون فاطمة قد بلغت من العمر السابعة، وتقبل على الثامنة، ولم تزل الدعوة سرية وفردية، وخلال هذه الفترة تكونت جماعة من المؤمنين تقوم على الأخوة والتعاون وتبلغ الرسالة وتمكنها من مقامها، ثم نزل الوحي يأمر النبي ﷺ بإنذار قومه ومجابهة باطلهم ومهاجمة أصنامهم بالحكمة والموعظة الحسنة .

ثم كان الحادث الأجل الذي هز الجزيرة هزاً، فانتزع فاطمة من شواغلها

---

(١) فقه السيرة ص ١٧٦ بتصرف .

الخاصة وأيقظها في عنف من أحلام الطفولة، وألقى بتلك الأحلام في دوامة الأحداث الهائلة التي أعقبت المبعث.

ووجدت نفسها، وهي في السابعة من عمرها تواجه رجة عنيفة وتقف في لهيب الإعصار الذي أثارته الوثنية العاتية في وجه الدين الجديد.

وقد انتزعت بهذا التحول الجديد من حياتها، ومن مرح الصبا، ولهو الطفولة، لكنها لم تأس قط على مافاتها من ذلك المرح ولا عز عليها أن تتخلى هكذا سريعاً عما كانت تنعم به من راحة وخلو بال، بل حلت تمائم صباها راضية، وهجرت ملاعب أترابها من غير تردد، واستقبلت الحياة الجديدة بمصاعبها ومشاقّها وهي تدرك على صغر سنها معنى بنوتها للنبي ﷺ الذي أصبح رسولاً نبياً، وأصبحت تعي ثقل العبء الذي يجب عليها أن تحمله لتكون جديرة بمكانها من المصطفى ﷺ الذي يلقى قريشاً مجتمعةً، أعزل إلا من إيمانه بالحق وحيداً إلا من فئة قليلة مضطهدة.

ودار في فكرها ما كان يردده خالها ورقة الرجل الطيب المبارك أن قومه سوف يخرجونه وتساءلت على صغر سنها، لماذا هذه الضجة حول أبيها، وهو رجل يشهد له الجميع بالصدق، وحسن الخلق، وفضائل الأعمال؟!

وقد شدت هذه الأحداث المتلاحقة فاطمة من طفولتها ومن وحدتها الطارئة عليها.

وأبوها في عزلته وتأملاته يقضي معظم الوقت، والأم مشغولة بالزوج الحبيب متتبعة أثره، مهيئة له جو الدعوة والعبادة، وفاطمة تقضي أوقاتاً مع لداتها، وأحياناً تمضي هي الأخرى إلى وحدتها.

فجاءت الأحداث لتنتزعها من تلك الوحدة لتدور في فلك الأحداث، وترقبها عن كثب وتفاجىء الأيام فاطمة بما يقطع عليها وحدتها وساعات

تأملها، ويقطع على أبيها وأمها تأملاتهما فقد طلق عتبة وعتيبة ابنا عبد العزى (أبي لهب)، رقية وأم كلثوم.

وكانت قريش قد ائتمرت بسيدنا محمد ﷺ في بناته قائلة:

إنكم قد فرغتم محمداً من همه، فردوا عليه بناته فاشغلوه بهن. ومشوا إلى أصهار الرسول الثلاثة فقالوا: لهم واحداً بعد الآخر فارق صاحبتك ونحن نزوجك أي امرأة من قريش شئت.

أما أبو العاصي بن الربيع فأبى مؤثراً صاحبته على نساء قريش جميعاً، وأما ابنا أبي لهب فاستجابا على الفور، واختار عتبة زوجة من آل سعيد بن العاص بدلاً من رقية بنت محمد

ولسنا في حاجة إلى القول أن ابني أبي لهب لم يكونا في حاجة إلى سعي من قريش في طلاق العروسين، فقد تكفلت به أم جميل بنت حرب الحاقدة، امرأة أبي لهب، فقد أقسمت ألا يظلها هي وبنتي محمد سقف واحد، ثم مازالت بزوجها أبي لهب حتى أثارت حفيظته على العروسين، فقال لولديه:

رأسي من رأسيكما حرام إن لم تطلقا ابنتي محمد، ولم يكن الظن أن يفعل الابنان هذا، وما كان الظن أن يفعل العم هذا في بنات ابن أخيه الذي ابتهج لمولده وأعتق جاريته ثويبة الأسلمية حين بشرته بولادته.

لكنها أم جميل الحاقدة كانت وراء الجميع، ووراء زوجها تسلبه عقله وإرادته ونخوته وتتركه مضيع المروءة فاقد الإرادة، وتسمم دمه الهاشمي الذي يجري في عروقه، وتنسيه ما توجبه عليه قرابته لمحمد من نجدة وشهامة، لكنها الغيرة العمياء الحمقاء، فقد فاز الهاشميون واستأثروا بأكثر المجد والشرف، أما قومها بنو عبد شمس فلم يفوزوا بمثل ما فاز الهاشميون، خاصة وأن النبوة المنتظرة قد غدت حقيقة واقعة وسعد بها

الهاشميون فسعت الحاقدة تفرق شملهم، مستغلة النخوة الجاهلية الحمقاء نحو الآباء وآلهتهم.

فاستغلت إعلان النبي ﷺ ما أرسل به من ربه، وأرادت أن تنتقم من خديجة حقداً عليها، فقد استأثرت هي الأخرى بالكثير من الشرف والمهابة والجلال، فقد كانت ملء الأسماع عزة ونبلاً، فراحت تؤجج بحقدها اللعين غضب القوم لتغيظ به خديجة وتعكر عليها صفو سعادتها التي كانت مضرب الأمثال في قريش وغير قريش. وطار صواب الحاقدة زوجة أبي لهب، فلم تكتف أن ردت إلى البيت النبوي رقية وأم كلثوم بل خرجت في حرب سافرة، خرجت إلى صميم المعركة الشرسة بين قريش والجاهلية، وبين محمد والإيمان.

وكان موقف أبي لهب وزوجته من أشد المواقف العدائية للنبي ﷺ ولم يؤذه أحد من بني هاشم مثلما آذاه أبو لهب وزوجته، على أنه كان هناك من الهاشميين وأعمام النبي ﷺ، من وقف بجوار النبي ﷺ وشد من أزره وشجعه مثل أبي طالب، الذي لم يكن على دين محممد ﷺ، وموقف حمزة ابن عبد المطلب الذي دفعه الغضب من أبي الحكم بن هشام (أبي جهل) حين آذى ابن أخيه أن ينتقم للنبي ﷺ ويسلم. ولاشك أنها من معجزات القرآن الكريم ومعجزات المصطفى ﷺ من ربه الذي علّمه وكرمه وأكرمه، فهذا القرآن ينزل على سيدنا محمد ﷺ ويؤكد له أن أبا لهب وزوجته الحاقدة حمالة الحطب أم جميل بنت حرب سوف تكون في النار مع زوجها، فلو أن أبا لهب أعلن ولو كذباً إسلامه وزوجته وقال للناس: هذا القرآن ينص على أني في النار ومعي زوجتي وأنّا أسلمنا، ولكنها إرادة الله وقضاؤه، الذي لايبدل القول لديه ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور وهو سبحانه

وتعالى يعلم أن أبا لهب سوف تغلب عليه شقوته هو وزوجته وأن مصيره إلى النار جزاء ما فعل بمحمد ﷺ.

فلم يخذل أحد من بني هاشم وبني عبد المطلب محمداً سواء في ذلك الذين أسلموا منهم والذين لم يسلموا غير أبي لهب.

وعاشت الزهراء تشدها الأحداث المتلاحقة، وكانت أشد التصاقاً بأبيها، ووالدتها، وأخواتها، وربط الإسلام بينها وبين أخواتها المسلمات برباط أقوى من النسب وأغلى من الدم وأقرب من الرحم، ونسي كل فرد في البيت المحمدي شواغله الخاصة، منذ تلاقوا جميعاً حول دين واحد لايدينون بغيره، ورب واحد يجثون له سجداً، لايشركون به إلهاً آخر ولايعبدون رباً سواه.

وودت فاطمة لو يسلم الجميع حتى يحسوا بالنعمة التي تحس بها، وتغمرهم السعادة التي تغمرها، فقد فرحت فرحاً كبيراً وسرها أن علي بن أبي طالب كان أحد الثلاثة الذين أسلموا، إذ كان بمثابة أخ لها عزيز، ويصعب عليها أن يختلف بهما الدين، فتحظى هي بنعمة الإسلام دونه، ويترك هو مكانه في بيت سيد البشر، ليلحق بالعصبة الكافرة التي باءت بغضب من الله.

وتمنت لو يسلم ابن خالتها أبو العاص بن الربيع زوج شقيقتها الكبرى زينب بل ودت لو يسلم بنو هاشم جميعاً، فهم آل أبيها وعشيرته الأقربون، ولم يكن قلبها الطاهر النقي يعي أن الله تعالى أراد أن يمتحن آل النبي ﷺ ويصهرهم في بوتقة الابتلاء، ومما ابتلاهم به الله عداء بعض أقاربهم، وشاء الله تعالى أن يضرب الرسول الكريم ﷺ في قوة العقيدة وصدق الإيمان وجلال التضحية، المثل الأعلى.

وقد آثر الله تعالى، فاطمة الزهراء بالحظ الأوفى من الألم والامتحان،

ومن الابتلاء الكريم، والمعاناة العظيمة، فكتب لها أن تشهد المحنة وعظم البلاء منذ طفولتها الباكرة ومنذ نعومة أظافرها، وتعيش دون أخوتها جميعاً مع أبيها منذ بدء الوحي حتى يجود البطل الأسمى، والصابر العظيم والمعلم الكبير بأنفاسه ويلحق بالرفيق الأعلى، فقد كانت معه وبجواره لم تفارقه حتى بعد زواجها من علي كرم الله وجهه وإلى حين انتقاله للرفيق الأعلى.

وقد أخذت فاطمة تتحرك نحو ميدان المعركة، وكان صغر سنها يتيح لها أن تخرج من البيت وتتحرك خارجة وتتبع أباها حيث ذهب، وتشاهده وهو يدخل إلى أندية قريش ومحافلها داعياً ومبشراً ونذيراً، ويلقى في سبيل دعوته ورسالته ما يلقى من أذى السفهاء وكيدهم.

كانت الزهراء خلف أبيها يوم مضى إلى الكعبة فاستلم الركن، فما أن لمحه المشركون حتى وثبوا إليه وثبة رجل واحد، وأحاطوا به يقولون: أنت الذي تقول كذا وكذا؟ ـ وعدوا ما قال من تكفير آبائهم وعيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم.

فيقول عليه الصلاة والسلام في ثبات الإيمان، وشموخ الصدق: «نعم.. أنا الذي يقول ذلك»

وتثور حمية الجاهلية البلهاء، فيأخذ أبو جهل بمجمع رداء أبيها، وتملك الذعر فاطمة الزهراء ووقفت مكانها حيث هي لا تتحرك، وأخرجها من ذعرها موقف بطولي لأبي بكر الصديق حيث قام دون رسول الله ﷺ وهو يقول منكراً ما يفعله ذلك الجاهلي الأحمق، ويقر فعلته جميع الحمقى الآخرين: فيقول في ثورة تستند إلى الإيمان الصادق: أتقتلون رجلاً أن يقول: ربي الله؟.

وصرف النظر بقوله هذا عن النبي ﷺ، فالتفتوا إليه وشرر الغضب والحمق

يتطاير من أعينهم، ومن رؤوسهم وأيديهم، فجذبوه من لحيته، ولم يتركوه إلا وقد صدعوا رأسه[1].

وغادر محمد ﷺ البيت الحرام ومشى في الطريق، و فاطمة الزهراء خلفه عن كثب، حتى بلغ بيته، فتدثر في فراشه من شدة ما أصابه.

وجلست فاطمة الزهراء في حيرة تسأل نفسها: لقد كان والدي مضرب المثل في الصدق، باعتراف جميع الناس صغيرهم وكبيرهم، حرهم وعبدهم، فما الذي جعله الآن في نظرهم كاذباً، وقد كان السؤال أكبر من فؤادها، وأكبر من تخيلات عقلها الذكي الصغير، فتدثرت هي الأخرى في فراشها ونامت.

ويوم خرج أبوها إلى الحرم، وتبعته فاطمة الزهراء ووقفت غير بعيد منه، ترقبه وتحوم بعينيها وبقلبها الطاهر حوله. وإذا هو ساجد في الحرم، وحوله ناس من مشركي قريش[2]، فجاء عقبة بن أبي معيط بسلى جزور[3]، فقذفه على ظهره الشريف، فلم يرفع ﷺ رأسه، فهرولت الزهراء مسرعة نحو أبيها وأخذت السلى - من على ظهره الطاهر، ثم أخذت تدعو على من صنع ذلك، وسمع النبي ﷺ صوتها الطاهر الندي، وإذا به يرفع رأسه ويقول:

---

(١) السيرة الهاشمية ١: ٣١٠.

(٢) روى البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في المسجد وهو يصلي، فقال أبو جهل: ألا رجل يقوم إلى فرث جزور بني فلان فيلقيه على محمد وهو ساجد؟ فقام عقبة بن أبي معيط، وجاء بذلك الفرث، فألقاه على النبي ﷺ، وهو ساجد، فلم يقدر أحد من المسلمين الذين كانوا بالمسجد على إلقائه عنه لضعفهم عن مقاومة عدوهم، ولم يزل عليه الصلاة والسلام ساجداً حتى جاءت فاطمة ابنته فأخذت القذر ورمته. فلما قام دعا على من صنع هذا الصنع القبيح فقال: « اللهم عليك بالملأ من قريش . . . ».

(٣) غشاء الولد من الناس أو المواشي وهو في بطن أمه، وخص بعضهم السلى بالمواشي والمشيمة بالناس.

اللهم عليك بالملأ من قريش! اللهم عليك بأبي جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة وعقبة بن أبي معيط، وأبي بن خلف فخشع المشركون لدعائه، وغضوا أبصارهم حتى انتهى من صلاته، وانصرف إلى بيته في صحبة ابنته الطاهرة فاطمة الزهراء وتمضي الأيام سراعاً وقد صُرع كلُّ من دعا عليهم أبوها حول ماء بدر، إلا ابن أبي معيط فقد قتله الرسول ﷺ في طريق العودة من بدر وذلك لما كان يقول في القرآن والرسول وما كان ينزله من أذى بالذين آمنوا، يضاف إلى ذلك قبح صنيعته يوم دعا النبي ﷺ إلى طعام، ولما حضر الطعام قال له النبي ﷺ والله لا آكل طعامك حتى تؤمن بالله فتشهد أن لا إله إلا الله ،فبلغ ذلك أبي بن خلف الجمحي القرشي وكان صديقاً له فقال: ما شيء بلغني عنك؟ قال: لا شيء دخل منزلي رجل شريف فأبى أن يأكل طعامي حتى أشهد له فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم فشهدت له. قال أبي: وجهي من وجهك حرام إن لقيت محمداً فلم تطأ عنقه، وتبزق في وجهه وتلطم عينه، فلما رأى عقبة رسول الله ﷺ فعل به ذلك، ومن أشد ما صنعه ذلك الشقي برسول الله ﷺ ما رواه البخاري في صحيحه قال: بينما النبي ﷺ يصلي في حجر الكعبة إذ أقبل ابن أبي معيط فوضع ثوبه في عنق رسول الله ﷺ وخنقه خنقاً شديداً فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبيه ودفعه عن النبي ﷺ وقال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم، وفيه نزلت: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾[1].

---

(١) سورة الفرقان الآيات ٢٧-٢٩.

الرسول ﷺ يضرب بفاطمة المثل

عندما نزل قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ خرج النبي ﷺ ينادي بصوت عال، فخرجت قريش إليه لترى ماالخبر، ووقفت فاطمة ترقب أباها، وما سوف يدور بينه وبين القرشيين من أهله، فقال :

« يا معشر قريش اشتروا أنفسكم، لا أغنى عنكم من الله شيئاً. يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس يا بن عبد المطلب، يا عم رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا صفية بنت عبد المطلب يا عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً»[١].

تقول الدكتور عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطيء) تعليقاً على هذا الموقف : وخفق قلب فاطمة حناناً وتأثراً، فهمست تقول : لبيك يا أحب والد وأكرم داع . . .

ثم جمعت نفسها وسارت بين الناس بجرمها الصغير ـ أي بهيكلها وجسمها الصغير ـ اللطيف، مرفوعة الهامة، مشرقة الأسارير، وكأنما ازدهاها أن يختارها أبوها ﷺ من بين أخواتها جميعاً، بل من بين أهل بيته الخاص، ليؤكد للبشر أنه لا يغنى من الله شيئاً عن أعز الناس وأحبهم إليه وأدناهم منه[٢].

---

(١) حديث متفق عليه أخرجه الشيخان من عدة طرق : البخاري في كتاب الوصايا، ومسلم في كتاب الإيمان، بروايات مختلفة.

(٢) تراجم سيدات بيت النبوة ص٥٩٣.

لقد بدأ بقريش قومه وقبيلته، ثم ببني عبد مناف عشيرته الأقربين، ثم بعمه العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، ثم بعمته صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها، ثم كانت ابنته فاطمة هي آخر من يتخذه النبي ﷺ مثلاً، في ذلك الموقف الجليل فعندها إذن ينتهي أقصى ما يبلغه ﷺ في العظة والاعتبار، وإذا كان محمد لا يغني عن ابنته فاطمة الزهراء رضي الله عنها من الله شيئاً فهل يطمع غيرها، كائناً من كان في أن يغني عنه أحد من الله شيئاً[١].

وليست هذه هي المرة الوحيدة التي يضرب بها المصطفى ﷺ بها المثل تأكيداً لما يريد نشره وترسيخه في أمته، من مبادىء وحدود وأخلاق.

فلقد حدث أن سرقت امرأة من قريش من بني مخزوم حلياً بعد أن أسلمت، وبلغ النبي ﷺ أمرها، وأشفقت قريش أن تقطع يدها، فاستشفعوا النبي ﷺ بغير واحد، ثم كلموا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ وابن حبه، وكان المصطفى ﷺ يشفعه، فلما أقبل أسامة ورآه النبي ﷺ، قال «لا تكلمني يا أسامة فإن الحدود إذا انتهت إلي فليس لها مترك ولو كانت بنت محمد فاطمة سرقت لقطعت يدها» (متفق عليه). وفي رواية، قال رسول الله ﷺ: أتشفع في حد من حدود الله تعالى، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها.

وبعدما انصرف القرشيون من الموقف الذي جمعهم فيه المصطفى ﷺ واطمأنت فاطمة الزهراء أن هذا الموقف قد مر بسلام، هرولت بنت الثامنة مسرعة إلى بيتها، وارتمت في أحضان أمها خديجة رضي الله عنها والدموع تملأ عينيها من الفرحة، وكأني بها والدنيا لا تسعها من فرط سرورها، فقد ساوى النبي ﷺ بينها وبين عمه وعمته، وهما من هما في قريش، وهي

---

(١) تراجم سيدات بيت النبوة ص٥٩٣، ٥٩٤.

الطفلة الصغيرة التي بدأت خطى سنها تقفز من على عتبات الثامنة، وهي تعي كل تلك المعاني التي يريدها المصطفى ﷺ، ويضرب بها الأمثلة.

وربتت الأم على ابنتها حانية وهي تسمع منها حديثها الفرح، وتألمت الأم في الوقت نفسه، وكأنها كانت تحس بأن نهاية العمر قد اقتربت وأن فاطمة مازالت في عمرها الغض، والرسول ﷺ يلاقي وسيظل يلاقي العنت من الكفار والمشركين والمعاندين، مثله مثل أي نبي كان قبله، وسوف تلاقي معه فاطمة مصاعب الدعوة، فهي ابنته التي لاتنفصل عنه، وهي الصغرى التي حظيت بحب أبيها المصطفى ﷺ.

وأحست الزهراء بفطنتها ما يدور في خلد الأم، وما سوف تلاقيه من العذاب والعنت الذي ينتظرها مع أبيها من أذى قريش وغير قريش من المعاندين، ومن الضاربين بقضية التوحيد، عرض الحائط، ومن المتمسكين بأصنام لا تضر ولا تنفع لمجرد أنهم وجدوا آباءهم على عبادتها عاكفين.

ودار حديث ذو شجون بين أم المؤمنين رضي الله عنها وبين الزهراء الطاهرة، اطمأنت فيه الأم على مدى صبر ابنتها على المعاناة، فقد بدأت تحتمل العذاب بقدر ما استأثرت به من الحظ الأوفى في محبته واعزازه.

وهاجت قريش وماجت وأخذت تمعن في تعذيب من تعلم أنه مسلم، حتى إن النبي ﷺ لم يسلم من أذى قريش والقرشيين، وكان أشدهم على النبي ﷺ هو عمه عبد العزى أبو لهب ـ كما سبق ذكره ـ الذي كان كثيراً ما يقذف النبي ﷺ بالحجارة، وكانت أم جميل الحاقدة تحمل الأشواك لتلقيها في طريق المصطفى ﷺ وأمام بيته ليلاً، ولما أنزل الله تعالى فيها وفي زوجها قوله تعالى: «تبت يدا أبي لهب وتب، ما أغنى عنه ماله وما كسب، سيصلى ناراً ذات لهب، وامرأته حمالة الحطب، في جيدها حبل من مسد»

أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة، ومعه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وفي يدها حجارة، فما أن وقفت عليهما حتى أخذ الله ببصرها عن رسول الله ﷺ، فلا ترى إلا أبا بكر! فقالت أين صاحبك؟ فقد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر ـ الحجر الصلب ـ فاه، أما والله إني لشاعرة ثم قالت في حقد وغيظ:

مـــــذمـــــاً عصينـــــا

وأمـــــره أبينـــــا

ودينـــــه قلينـــــا

ثم انصرفت، فقال أبو بكر: يا رسول الله أما تراها رأتك؟ فقال: ما رأتني، لقد أخذ الله ببصرها عني(١).

وأخذ الكافرون يتفنون في تعذيب الرعيل الأول من المؤمنين، فيضعونهم على حر الرمضاء وقت الظهيرة، ويمنعون عنهم الماء، ويلبسونهم دروعاً من حديد حتى تكوي جلودهم، ولم يرحموا في ذلك النساء، فأول شهيدة في الإسلام كانت امرأة هي سمية بنت خُبّاط أم عمار بن ياسر رضي الله عنهم، وكل ألوان وصنوف العذاب التي كانت تراها فاطمة الزهراء، كانت امتحاناً لها ولإيمانها بأقسى ما يمتحن به مثلها، فقد كان تعلقها الشديد بأبيها يجعلها تتألم لما يلقى من فادح الأذى، وتروع بالذي يكابده من عنت الكافرين، وحرصهم على قتله، فقد حاول ذلك أبو لهب ـ في بعض الروايات ـ أن يقتله بخنجر، وحاول أبو جهل أكثر من مرة بحجر، وغيرهما.

وتعتصر ألماً لما يكابده المسلمون الأوائل، من المستضعفين والموالي،

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ١: ٣٣٥، ٣٣٦.

من اضطهاد سافر، حتى لتكاد تحس لهيب الشمس، ولسع الصخور الملتهبة التي كانت تلقى عليهم حين يحمى القيظ، وتتحسس على بدنها الرقيق أثر السياط التي كانت قريش تلهب بها ظهور من تقدر عليه من المؤمنين المستضعفين.

وتتعجب المؤمنة الصغيرة من عقول تلكم الفئة المعاندة، الذين لا يتدبرون الأمر بروية وتعقل، إن الذين يعذبون بأيديهم يزدادون إيماناً على إيمانهم، وهم يموتون كل يوم ـ في نظر الأعداء المجرمين ـ ولكنهم رغم ذلك لا يتراجعون، بل يتشبثون بدينهم أكثر وأكثر، وهذا دليل على ما يحسون من حلاوة الإيمان، وأثره في نفوسهم الطاهرة، وقلوبهم النقية، ولكن المعاندين لا يرجعون إلى رشدهم لحظة واحدة، ليقفوا مع نفوسهم وقفة تأمل تأخذهم إلى الحقيقة الناصعة.

أما المؤمنون فكانوا يردون ذلك إلى حكمة ارتضاها الله تعالى. نعم! إنها حكمة ارتضاها الله تعالى فكلما اشتد البلاء قوي إيمان المؤمنين، وهذه الفئة المعذبة كلما زاد عذابها، وزادت محنتها، واشتدت آلامها، وقويت في مواجهة الشدائدالمقبلة، وإن أي شدة سوف تأتي مهما تكن في شدتها لن تضارع أو تساوي ما مر بهم من شدائد، وهؤلاء الصفوة الذين اختارهم الله بسبقهم إلى الإسلام إنما هم الركائز القوية التي سوف يقام عليها بنيان الإسلام في دولته الجديدة، وهم بقوتهم الروحية والإيمانية إنما يمنحون تلك الدولة قوة مهيبة بين أقرانها ممن يتربصون بها السوء.

وتشاهد فاطمة الزهراء المصطفى ﷺ يدعو للمستضعفين بالخير، فتدعو لهم بالخير، ويدعو الله أن يكفيه والمسلمين شر المشركين ويدفع أذاهم وأن يحبط الله أعمالهم، ويقذف في قلوبهم الرعب والخور.

الهجرة إلى الحبشة وفراق رقية للزهراء

كانت بداية الاضطهاد في أواسط أو أواخر السنة الرابعة من البعثة، وكانت الزهراء قد بلغت منتصف السنة الثامنة من عمرها أو كادت تبلغ التاسعة، واشتدت الاضطهادات وتفاقمت في أواسط السنة الخامسة، حتى ضاق بالمسلمين المقام في مكة، وحملتهم المحنة على التفكير في وسيلة تنجيهم من هذا العذاب الأليم، وفي هذه الظروف المضنية الحالكة نزلت سورة الكهف وقد تضمنت ردوداً على أسئلة أدلى بها المشركون إلى النبي ﷺ، وقد اشتملت على ثلاث قصص فيها إشارات بليغة من الله تعالى إلى عباده المؤمنين.

(أ) قصة أصحاب الكهف:

فهذه القصة ترشد إلى الهجرة من مراكز الكفر والعدوان، حين مخافة الفتنة على الدين، واللجوء إلى الله في مكان آخر قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾.

(ب) قصة الخضر وموسى عليه السلام:

وهي قصة تفيد أن الظروف لا تجري ولا تنتج حسب الظاهر دائماً، بل ربما يكون الأمر على خلاف الظاهر، ففيها إشارة لطيفة ـ تفهم ضمنا ـ إلى أن

الحرب القائمة ضد المسلمين ستنعكس تماماً، وسوف ينتصر هؤلاء الضعفاء المقهورون.

(جـ) قصة ذي القرنين:

وتفيد هذه القصة أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده المؤمنين بالله، وأن الفلاح دائماً هو في سبيل الإنسان المؤمن بالله، وأن الله لا يزال يبعث من عباده، بين آونة وأخرى من يقوم بنجدة الضعفاء من يأجوج ذلك الزمان ومأجوجه، وأن الأحق بإرث الأرض إنما هم عباد الله الصالحون.

ثم بعد هذا التمهيد غير المباشر للهجرة، نزلت سورة الزمر وفيها إشارة شبه صريحة إلى الهجرة فقد أعلنت بعض آياتها الكريمة أن أرض الله واسعة وليست ضيقة قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾.

وكان المصطفى ﷺ قد علم أن أصحمة النجاشي ملك الحبشة ملك عادل، لا يظلم عنده أحد، فأمر المسلمين أن يهاجروا إلى الحبشة فراراً بدينهم من الفتن.

وفي رجب سنة خمس من النبوة هاجر أول فوج من الصحابة إلى الحبشة وكان مكوناً من اثنى عشر رجلاً وأربع نسوة، ورئيسهم عثمان بن عفان، ومعه السيدة رقية بنت رسول الله ﷺ. وقد قال النبي ﷺ فيهما أنهما أول بيت هاجر في سبيل الله بعد إبراهيم ولوط عليهما السلام. وودعت فاطمة الزهراء أختها رقية رضي الله عنهما، وفي الفراق وحشة، ولكنها تهون في سبيل دين الله، فكل الأشياء تهون، الولد يهون والمال يهون، والوطن يهون، في سبيل إعلاء كلمة الحق والدين، وقد هاجرت رقية رضي الله عنها، وهي بنت المصطفى ﷺ، وكانت أول المهاجرين، لتفتح باب الهجرة أمام المؤمنين،

ولا فرق في ذلك بين أبناء رسول الله ﷺ وبين المؤمنين كافة، لأن الإسلام ليس دين تمييز ولا دين عنصرية.

ومسحت فاطمة من عينيها دمعة وداع أختها، وعلى شفتيها ابتسامة لما سوف تجنيه أختها من أجر حسن من الله تعالى، ومضت بعد الوداع إلى أمها لترى في عينيها دمعة وعلى شفتيها ابتسامة وتمت هجرة الميامين الأول إلى الحبشة بسلام، وفاطمة وأبوها ﷺ في شوق إلى سماع أخبار رقية رضي الله عنها، واستجاب الله تعالى للرغبة الجامحة في قلبيهما، فقدمت امرأة من قريش فقالت: يا محمد قد رأيت ختنك ـ صهرك ـ ومعه امرأته على حمار وهو يسوقها، فقال رسول الله ﷺ: صحبهما الله إن عثمان أول من هاجر بأهله بعد لوط ـ عليه السلام ـ وفي رواية: إنهما لأول من هاجر إلى الله تعالى بعد لوط[1].

ولم تكن رقية رضي الله عنها بأقل شوقاً من أبيها وأمها وأخواتها، بل لعلها كانت من أشد المهاجرين حنيناً إلى مكة، ولعلها ما افتقدت أبويها وأخواتها من قبل، مثلما افتقدتهم آنذاك، فلقد أثرت الأحداث الشداد التي مرت بها في صحتها، وخاصة بعد أن أسقط حملها الأول، حتى خيف عليها من فرط الضعف والإعياء.

لكنها وجدت من رعاية زوجها وحبه، ومن عطف المهاجرين وعنايتهم، ما أعانها على اجتياز الأزمة الحرجة، حتى عاودتها العافية بورود الأنباء من مكة أن قريشاً يئست من أن تنال من رسول الله ﷺ وأصحابه فرفعت الحصار المنهك الذي ضربته على الهاشميين.

وأساس هذه الشائعة أن رسول الله ﷺ خرج في رمضان من السنة نفسها إلى

(١) انظر أسد الغابة ١٣:٧.

الحرم، وهناك جمع كبير من قريش كان فيه ساداتها وكبراؤها. وكان الحرم حافلاً بهذا الجمع الحاشد، وقف الرسول ﷺ في وسط هذا الجمع.

وتسمرت أقدام فاطمة في مكانها وهي ترى شجاعة أبيها وإقدامه على جمع كبير من أعدائه، ويتوسطهم، وإذا بها تسمع صوته النديّ وهو يقرأ سورة النجم، إن أولئك الكفار لم يكونوا سمعوا كلام الله قبل ذلك، لأن أسلوبهم المتواصل كان العمل بما أوصى به بعضهم بعضاً من قولهم: ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْءَانِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾.

فلما باغتهم المصطفى ﷺ بتلاوة هذه السورة، وقرع آذانهم كلام الهي رائع ـ لا يحيط بروعته وجلاله البيان ـ ذهلوا عما هم فيه، وبقي كل واحد منهم مصغياً إليه، لا يخطر بباله شيء سواه، حتى إذا تلا في خواتيم هذه السورة قوارع تطير لها القلوب، ثم قرأ ﴿ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ ۩ وَاعْبُدُوا﴾ ثم سجد فلم يتمالك أحد نفسه حتى خر ساجداً[1].

لقد هال فاطمة ما رأت، إنه لمنظر بديع، هذا الذي تشاهده، أئمة الكفر وجبابرته، بروعة الحق قد صدعت، وحطم العناد في نفوس هؤلاء المستكبرين والمستهزئين، فما تمالكوا أنفسهم أن يخروا لله ساجدين، دون أية سيطرة على نفوسهم، فقد خوت واهترأت فجأة عندما مسها تيار اليقين الصادر من آيات الذكر الحكيم.

وكان هذا الموقف إشارة لكل المسلمين إلى أن قوى الشر مهما كان طغيانها، ومهما كان جبروتها، لن تصمد أمام كلمات النور، وستتصدع أركانها إذا مسها هذا السر الخفي في كلمات الله.

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤: ٢٦٤-٢٧٩ والبداية والنهاية ٣: ٩٠ وإتحاف الورى بأخبار أم القرى ١: ٢١٥-٢١٨.

وذهبت فاطمة إلى بيتها قريرة العين بما رأت وشاهدت، وخاصة وأن المصطفى ﷺ على الرغم من هذه الحشود الكافرة خرج من بينهم سالماً مرفوع الرأس، هادىء النفس قرير البال.

ووجد المشركون أنفسهم وقد سقط في أيديهم لما أحسوا أن جلال كلام الله لوى زمامهم، فارتكبوا عين ما كانوا يبذلون قصارى جهدهم في محوه وإفنائه، وقد توالى عليهم اللوم والعتاب من كل جانب، ممن لم يحضر هذا المشهد من المشركين.

ووصلت أخبار هذا المشهد إلى مهاجري الحبشة، ولكن في صورة تختلف تماماً عن صورته الحقيقية، وبلغهم أن قريشاً أسلمت، فرجعوا إلى مكة في شوال من السنة نفسها، فلما كانوا دون مكة ساعة من نهار، وعرفوا جلية الأمر رجع منهم من رجع إلى الحبشة ولم يدخل مكة منهم أحد إلا مستخفياً أو في جوار مشرك من قريش[1] مثل: الوليد بن المغيرة المخزومي، أو ابي طالب بن عبد المطلب الهاشمي.

وعادت رقية المهاجرة وزوجها الكريم وعندما وصلت رقية إلى مشارف مكة يممت وجهها إلى بيت أبيها مشوقة مجهدة، فخفت أختاها أم كلثوم وفاطمة للقائها، وتشبثتا بها معانقتين وهما تغالبان الدمع لهذا الفراق القصير الطويل، القصير في مدته، الطويل بأشواقه وحرمانه وآلامه ثم ما لبثت الحقيقة أن ظهرت وأن قريشاً لم تزل على كفرها وعنادها وايذائها.. وعاد المهاجرة إلى الحبشة.

وعادت رقية مع زوجها عثمان بن عفان رضي الله عنهما مهاجرين مرة أخرى، ورأت قريش أن الخطر قد يكمن في هؤلاء المهاجرين، وخافوا أن

---

(١) انظر الرحيق المختوم للمباركفوري ص٩١.

تتسع دائرة الإسلام خارج مكة، ويصبح لهؤلاء المسلمين في مكة من ينصرهم ويمدهم بما يحتاجون إليه .

وفكر طغاة قريش أن يرسلوا رسولين، ويحملوهما ما استطاعا أن يحملاه من الهدايا للنجاشي، واختارت قريش رجلين من دهاتها، لكي يفسدوا ما بين النجاشي وبين المهاجرين، ووقع اختيارهم على عبد الله بن أبي ربيعة والد الشاعر عمر بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص بن وائل السهمي وجمعوا لهما هدايا للنجاشي، ولبطارقته، فانطلقا بها على مرأى ومسمع من محمد ﷺ ومن بقي إلى جانبه من أصحابه وآله .

وقد أشفق أبو طالب على من بأرض الحبشة، وفيهم ولده جعفر بن أبي طالب وولدا ابنتيه برة وأميمة، وعلى رقية حفيدة أخيه عبد الله أشفق عليهم من مكيدة عمرو وصاحبه، فأنشد شعراً يستثير فيه كرم النجاشي ويحضه على أن يحمي جواره ومما قاله :

ألا ليت شعري كيف في النأي جعفر ... وعمـــرو وأعداء العدو الأقارب

وهل نالت افعال النجاشـــي جعفرا ... وأصحابه، أو عاق ذلك شاغب؟

تعلّمْ، أبيتَ اللعنَ، أنـــك ماجد ... كريم، فلايشقى لديك المجانب

وأنك فيض ذو ســــجال غزيرة ... ينال الأعـــادي نفعها والأقارب

وسمع هذا النداء رجلان من قريش، وقال أحدهما مستهزئاً: ما يبلغ صوت الشيخ من مكيدة عمرو وصاحبه؟ وماذا تجدي الكلمات من الهدايا التي حملها مبعوثا قريش إلى النجاشي وبطارقته؟

وكأني بالسيدة فاطمة قد اهتز قلبها النقي خوفاً على أختها رقية وزوجها، وخوفاً على باقي المسلمين الميامين في جوار النجاشي، ورأت أمها على وجهها ما لم يعلنه لسانها من قلق دخيل عليها .

ولعل أم كلثوم قد طمأنتها وبادرتها قائلة: إن الله سوف ينصر هؤلاء المهاجرين الغرباء على عمرو وصاحبه وإن نصر الله تعالى قريب، ألم تشاهدي بالأمس يا فاطمة ذلك الموقف الرائع المهيب، حينما قرأ أبوك سورة النجم، وسجد جبابرة الكفر والعناد، أليس هذا نصراً من الله تعالى، وإشارة من الله تعيها القلوب المؤمنة، إن هؤلاء الكفار إن لم يؤمنوا سيذلوا، ألم يكن هذا الموقف منهم دليل تسليم وإذلال رغم أنوفهم، إن الله تعالى مع هؤلاء المهاجرين الذين خرجوا في سبيله، ولن يخذلهم الله أبداً، وإن الله تعالى ينصر من ينصره، وهم يريدون نصر الله وإبلاغ دينه لكل من في الأرض قاطبة.

وكان موقف الرسول ﷺ الصامت يطمئن فاطمة لأنه لا ينطق عن الهوى، وما من شيء إلا رؤى في وجهه إن كان خيراً، فاض وجهه بالبشر والسعادة، وإن كان شراً، تغير وجهه بادياً ما يتحمل في نفسه..

وذهب الرسولان إلى الحبشة، ودفعا لكل بطريق هدية، ثم قدما للنجاشي هديته، وسألاه أن يرد عليهم هؤلاء الذين فارقوا دينهم وكانت مساجلة بين الحق والباطل، بين الإيمان والكفر، بين منابع الخير ومواطن الشر، وانتصر فيها الحق والإيمان والخير على الباطل والكفر والشر، والقصة معروفة في كتب السيرة.

ورجع عمرو وعبد الله إلى قريش بخُفّي حنين، يجران أذيال الخيبة والخزي، وعلمت قريش بما كان من موقف النجاشي، وإن كل من عنده أصبح في حمايته، آمنا، ولن تفلح معه أية محاولة قرشية في استعدائه على المسلمين المهاجرين.

وأيقنت فاطمة أن الرسولين قد عادا مخذولين، وعلمت أن الله سوف ينصر هذا الدين سواء كان في مكة أو خارجها، وما الأحداث التي تمر بالمسلمين

إلا إشارات من رب العالمين يطمئن بها قلب كل مؤمن، وإنها إشارات واضحة لا لبس فيها ولا غموض، وذات مغزى عظيم تقوي قلوب المؤمنين.

وهكذا دائماً فإنه حين تتراكم الغيوم ويلتمع البرق مبشراً بسقوط المطر، وإن أول الغيث قطر، وفي اشتداد العسر، يكون وميض اليسر، فالعسر واليسر ممتزجان ويتعالجان، حتى يغلب اليسر العسر، ومهما اشتدت وطأة العسر فلابد لليسر يوماً أن ينتصر عليه.

وهدأ بال الزهراء واطمأن قلبها على أختها في غربتها عند النجاشي ولكن كيف يطمئن قلبها على أبيها والمؤامرات تدبر له، وطغاة قريش يحاولون القضاء عليه، وها هم أولاء عند أبي طالب يهددونه ويقولون له: يا أبا طالب إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه، وانا والله لا نصبر على هذا الذي شتم آباءنا وسفه أحلامنا، وعاب آلهتنا، حتى تكفه عنا، أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين.

وعظم على أبي طالب هذا الوعيد والتهديد الشديد، فبعث إلى رسول الله ﷺ وقال له:

يا ابن أخي إن قومك قد جاءوني، فقالوا لي كذا وكذا فأبقِ علي وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق، فظن رسول الله ﷺ أن عمه قد خذله، وأنه ضعف عن نصرته، فقال: «يا عم! والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته ـ حتى يظهره الله أو أهلك دونه» واستعبر، وقام.

فلما ولى ناداه أبو طالب فلما أقبل قال له: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً.

وأنشد أبو طالب في هذا شعراً فقال:

والله لن يصـــلوا إليك بجمعهم   حتى أوســـد في التراب دفينا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة   وابشـــــر بذاك وقر منه عيونا

ورددت فاطمة الزهراء القولين؛ قول أبيها: « والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه». وبكت فاطمة لسماع هذه الكلمات القوية التي تدل على قمة الإيمان بالرسالة.

ثم رددت قول أبي طالب الذي قاله شعراً، وفرحت لنصرته لأبيها، وتمنت في نفسها لو يسلم أبو طالب ذلك الرجل الذي ينصر الرسول ﷺ وتجعل قريش له منزلة في نفسها، تكون مانعاً إلى حد ما من أذاهم للرسول.

ولاشك أن قلق فاطمة على أبيها قد ازداد رغم إعلان أبي طالب نصرته له أمام قريش صراحة، إلا أن القوم لا يفتأون يدبرون له المؤامرات ويريدون التخلص منه، وها هم أولاء يذهبون مرة أخرى إلى أبي طالب في وفد يمثلهم، وتساءلت ماذا يريدون مرة أخرى غير أن ينتهي أمر رسول الله وأمر الدعوة إلى الله، ورددت قول أبيها المصطفى ﷺ: يا «عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ـ حتى يظهره الله أو أهلك دونه ـ ما تركته».

وقالت : إن الله سوف يظهر أمره، ولو كره هؤلاء المشركون، وأخذت خطوات فاطمة تمضي بها دون أن تدري إلى بيت عمها أبي طالب لترى ماذا يريد هؤلاء من أبيها.

وعلمت أن القوم أخذوا معهم عمارة بن الوليد بن المغيرة، ليأخذه أبو طالب مكان النبي ﷺ، ويسلمهم أباها ليقتلوه.

فرد عليهم أبو طالب في إباء وشموخ وقال: والله لبئس ما تسومونني أتعطونني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه؟! وبكت فاطمة إنهم

لا يريدون إلا قتله، وأسرعت إلى أمها خديجة رضي الله عنها، وارتمت في أحضانها باكية، ورددت على مسمعها ما قاله المشركون لأبي طالب وما رد أبو طالب عليهم به.

فابتسمت لها، وربتت على كتفيها وأخبرتها أن النبي ﷺ قد جاء برسالة من الله، وأن الله باعثه إلى الناس أجمعين وسوف يحمي الله تعالى رسوله ورسالته حتى يظهرها للناس، فلا تقلقي واعلمي أنه كلما ازدادت المحن، اقترب الفرج وأن الله سيجعل بعد عسر يسرا.

ولم تمض أيام خلال هذا الجو الملبد بالغيوم، وبسحائب الظلم والطغيان، إلا وقد أضاء نور في سماء المقهورين، فقد أسلم حمزة بن عبد المطلب عم النبي ﷺ وقد عز المسلمون بإسلامه أيما إعزاز، فهو فتى جلد، قوى الشكيمة، ومن أعز فتيان قريش.

وبعد ثلاثة أيام من إسلام حمزة أسلم عمر بن الخطاب[1] وكان هذا نجماً آخر أشد بريقاً خلال هذا الجو الملبد بسحائب الظلم والطغيان، وها هي ذي دعوة الرسول ﷺ تتحقق حين قال: «اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك، بعمر بن الخطاب، أو أبي جهل بن هشام» فكان أحب الرجلين إلى الله عمر بن الخطاب رضي الله عنه[2].

وكان عمر رضي الله عنه معروفاً بحدة الطبع وقوة الشكيمة. ولاح لفاطمة باسلام هذين الرجلين حمزة وعمر رضي الله عنهما، أنوار الفرج، التي هلل

---

(١) في هذا رواية رواها ابن الجوزي في تاريخ عمر بن الخطاب عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما ص٦، ٧.

(٢) الترمذي، أبواب المناقب، مناقب أبي حفص عمر بن الخطاب، ٢: ٢٠٩.

لها المسلمون فرحين مستبشرين. فقد كبر الرسول ﷺ وكبر من كان معه حين جاءه عمر وأعلن إسلامه[1].

كان عمر رضي الله عنه ذا شكيمة لا يرام، وقد أثار إسلامه ضجة كبرى في بطون قريش التي شعرت بالذلة والهوان، وكسا المسلمين عزة وشرفاً وسروراً، كان إسلام حمزة وعمر رضي الله عنهما في نهاية السنة السادسة من النبوة، وفاطمة قد بلغت سن الحادية عشرة، وأصبحت تدرك إدراكاً تاماً كل ما يدور، وتعي الحوادث وعي إنسانة مؤمنة راجحة العقل وتفهم ما وراءها وقد علمت أن إسلام الرجلين العظيمين سيكون له أثر حسن على أبيها وعلى المسلمين.

وفعلاً بدأت سحائب الظلم المبين تنقشع عن المسلمين، وأفاق المشركون من سكرة استعلائهم وظلمهم وتنكيلهم بالمسلمين، وأظهروا شيئاً من اللين مع المسلمين وساوموا النبي ﷺ مباشرة، باغداق كل ما لديهم من متع الدنيا ليصرفوه عن دعوته، ولكن لم يدر هؤلاء الكافرون أن كل ما تطلع عليه الشمس لا يساوي جناح بعوضة أمام دعوته.

وعرضوا عليه زائل الدنيا فقالوا: «إن كنت تريد مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا».

ورد الرسول ﷺ على من عرض عليه ـ عتبة بن ربيعة ـ المساومة بقراءة القرآن، وقرأ عليه سورة فصلت، فرجع عتبة إلى القوم وقد بهره القرآن بسحر بيانه وقال لهم: خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله

---

(١) انظر ابن هشام تاريخ عمر، ص٧،٨،٩،١٠،١: ٣٤٣.

ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله، قال: هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم[1].

هنا أدرك المسلمون جميعاً وفي مقدمتهم فاطمة الزهراء أن سحب الضباب لابد أن تنقشع ولابد من أن تشرق الشمس عليها، لتزيل غشاوتها، وأن قريشاً لقلة حيلتها، وضعفها أمام الحق، أصبحت هي التي تسعى إلى النبي ﷺ وتعرض عليه أن يتخلى عن دعوته وتبذل له الوعود وتعرض عليه أي مطلب يطلبه، ولم يكونوا يعلمون أنه لا يريد شيئاً من عرض الدنيا، وكان تركيزهم على ما هو فانٍ وزائل وهو ﷺ ماض في طريقه زاهد فيما عندهمم وراغب فيما عند الله.

وهكذا تغير مجرى الظروف وتبدلت الأوضاع والأحوال، وأصبحت الدعوة الإسلامية في نشاط غير معهود، بعد أن عز الإسلام بعمر بن الخطاب وحمزة ابن عبد المطلب رضي الله عنهما.

ولكن أبا طالب لم يزل يتوجس خيفة من المشركين على ابن أخيه، وأخذ ينظر في الحوادث الماضية، فقد هدده المشركون بالمنازلة، وساوموه على قتله ويعطونه عمارة بن الوليد بدلاً منه، وحاول أبو جهل أن يرضخه بحجر ليقتله، وعتبة بن أبي معيط خنقه بردائه وكاد يقتله، وابن الخطاب خرج بالسيف ليقضي عليه فكان من أمره أن أسلم ثم مشى إلى خاله عمرو بن هشام الذي كان أشد أعداء الإسلام يخبره بإسلامه ليغيظه فقال له خاله: قبحك الله وقبح ما جئت به.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾. وابن هشام ١: ٢٩٤،٣٩٣.

تدبر أبو طالب كل تلك الحوادث، وشم فيها رائحة الشر، ومن كل ما مر عليه علم أن المشركين عازمون على التخلص من ابن أخيه، وأن حمزة، وعمر وغيرهما، لن يغنوا عنه شيئاً إذا انقض أحد من المجرمين المشركين عليه فقتله ولم يكن يعلم أن الله عز وجل حافظه وعاصمه من شرور الناس.

ولهذا قام أبو طالب في أهل بيته من بني هاشم وبني المطلب ولدى عبد مناف، ودعاهم إلى ما هو عليه من منع ابن أخيه والقيام دونه، فأجابوه إلى ذلك مسلمهم وكافرهم عطفتهم الرحم واستخفتهم الحمية للعشيرة، إلا ما كان من أخيه أبي لهب فقد فارقهم، وظل مع قريش.

وازدادت رغبة فاطمة الزهراء في أن يمن الله تعالى على أبي طالب بالإسلام، فهو نعمة لا تدانيها نعمة، وشكرت الله على ما يصنع من أجل أبيها وهو مازال على دين قومه، وقد اطمأنت على مسيرة الدعوة وأدركت أن الله تعالى يضع أسباباً أمام الناس لتمضي مشيئته وتنفذ حكمته، وأصبح قلبها الطاهر مطمئناً بعدما جمع أبو طالب أهله على كلمة رجل واحد، ولكن هذا الاطمئنان كان يقطعه أحياناً بعض هواجس الشك وبواعث الظن والخوف على حياة أبيها الكريم، ثم ما تلبث أن تزول وتتذكر ما كانت تسمعه منه وهو يضمها إلى صدره.. «إن الله مانع أباك».

إن الشكوك التي ساورت قلب الزهراء الطاهر، بدأت تتحقق، وهاهي ذي محنة أخرى كبرى يتعرض لها المسلمون، وذلك بعد أخذ أبي طالب العهد من أهله، ليحموا رسول الله ﷺ، فقد تنادت قريش واجتمعوا وكتبوا كتاباً على بني هاشم ألا يناكحوهم، ولا يبايعوهم، ولا يخالطوهم، وكان الذي

كتب الصحيفة منصور بن عكرمة العبدري فدعا عليه الرسول ﷺ، فشلت يده[1].

ثم علقت قريش الصحيفة في جوف الكعبة، وحصروا بني هاشم وبني المطلب في شعب أبي طالب، أما أبو لهب فقد انضم إلى قريش ووقف من أهله موقف العداء.

*****

---

(١) انظر طبقات ابن سعد ١ : ١٤٠، وقيل إن الذي كتبها: النضر بن الحارث، وقيل غيره.

الزهراء ومحنة الحصار

وصحبت فاطمة الزهراء أبويها إلى شعب أبي طالب، ومعهم أم كلثوم، حيث عاشت هنالك معهم بين أسوار الحصار المنك.

وأقام القوم على ذلك ثلاث سنين[1] حتى جهدوا، فقد شددت قريش الحصار وقطعت عنهم الميرة والمادة، فلم يكن المشركون يتركون طعاماً يدخل مكة ولا بيعاً إلا بادروه فاشتروه، حتى أصاب الجهد بني هاشم واضطروا إلى أكل الأوراق والجلود، وكان لا يصل إليهم شيء إلا مستخفياً ومن أراد أن يصل قريباً له من قريش كان يصله سراً.

كان الرجل يخرج بالنفقة فما يُبايَع. لقد اشتدت بهم الحال، حتى إنه كان يسمع من وراء الشعب أصوات نسائهم وصبيانهم يتضورون من أثر الجوع، وإذا خرجوا في الأشهر الحرم ليشتروا حوائجهم يشترون من العير التي ترد مكة من خارجها، وكان أهل مكة يزيدون عليهم في قيمة السلعة حتى لا يستطيعوا الشراء.

ولنا أن نتصورر أثر الإيمان في نفوس المؤمنين ونأخذ مثالاً أم الزهراء خديجة رضي الله عنهما، فقد تربت في منابت العز والرفاهية ولكنها في داخل الشعب كانت تتحمل آلام الحياة وشظف العيش وهي صابرة محتسبة صامدة بجوار زوجها المصطفى ﷺ، تحرسه وترعاه ليلاً ونهاراً تراقبه مخافة

---

(١) وقيل سنتان. ولكن المرجح هو ثلاث سنوات انظر طبقات ابن سعد ١: ١٤١ والرحيق المختوم ص١٠٧.

أن تغدر به قريش أو يصيبه أي مكروه.

وقد بذلت خديجة المجهود لشراء الزاد للمحاصرين وكان يساعدها ابن أخيها حكيم بن حزام بن خويلد وتعرض له مرة أبو جهل وهو يقود جملين يحملان الطعام للمحاصرين فتماسك الرجلان وتوسط بينهما أبو البختري ولكن أبا جهل رفض وساطته فضربه أبو البختري وشج رأسه ودخل الجملان إلى الشعب يحملان الطعام[(١)].

وعاشت فاطمة في مرحلة تأمل في تلك السنوات وقد دخلت الشعب وهي تخطو نحو الثانية عشرة من عمرها، وقد نضجت نضجاً فكرياً عظيماً، وكانت تشاهد بعض بني هاشم وبني المطلب، رغم الجوع والحصار والعذاب يفضلون الموت ويدخلون في دين الله تعالى، ويرفضون أن يخرجوا إلى قريش ويتمتعوا معها في نعيمها الزائل.

وكان كل يوم يمر على الزهراء أثناء هذه المحنة التي دامت ثلاث سنوات يُدخلها هي والمؤمنين في طور جديد من أطوار الصبر الجميل والجلد العظيم فقد قاسى جميع المحاصرين الكثير من مرارة الجوع وآلامه ولكنهم آمنوا وصبروا وكان ذلك خير إعداد لهم ليتحملوا خوض الجهاد في سبيل الله وكأن الله سبحانه وتعالى أراد أن يمهد لهم من وراء هذا الجهاد أن يزداد المؤمنون الأول إيماناً مع إيمانهم حتى يصبحوا مهيئين لتحمل أعباء الجهاد ومشاقه وينهضوا مع النبي ﷺ في كفاح لبناء المجتمع الإسلامي الجديد الذي أنشأه بعد الهجرة الشريفة وعلى الرغم من المعاناة والجهد الذي كان فيه المؤمنون إلا أن عين الله كانت تحرسهم على رغم أنف الكافرين كانت تمتد لهم يد الخير بالطعام والشراب. لقد كان بنو أسد يعرفون أن خديجة

---

(١) سيرة ابن هشام خبر الصحيفة ص٣٤٥.

رضي الله عنها يؤذيها الجوع وهي التي كانت ترفل في أسباب الترف والكرم والنعمة والعز، فرتبوا أنفسهم أن يبعثوا لها ما تريده، فيعدون ما يظنون أنها تحتاجه، من متاع وغذاء وشراب، ثم يضعونه على بعير، أو راحلة ثم يؤتى بها إلى فم الشعب، ثم تضرب لتدخل الشعب، ولم تكن المؤمنة تستأثر بما يأتي، بل كانت تفرقه على من في الشعب فهو فضل ساقه الله تعالى، إلى عباد الله المؤمنين، فيشاركها الكل فيما أفاض الله.

ومن عجب أن ذلك السهم الذي أطلقته قريش، ارتد عن المؤمنين دون أن يزعزع إيمانهم مثقال ذرة، أو يزحزحهم قيد شعرة عن موقفهم من نصرة النبي ﷺ، وعاد السهم منطلقاً إلى معسكر قريش فأصاب منها مقتلاً.

ذلك أن نفراً من مشركي قريش روعهم الحصار الغاشم المضروب على المؤمنين فثارت ضمائرهم وسلطت عليهم سوط عذاب يُقِضُّ مضاجعهم. لقد بدأ الحصار يهتز ويتداعى تحت وطأة الندم وعذاب الضمير.

لقد سرى خبر حكيم بن حزم بعدما شنع به أبو جهل وبدلاً من مناصرة أبي جهل وإحكام الحصار، راح القوم يفعلون ما يفعل حكيم لعمته، لقد تحدثت بيوت قريش ونساؤها بذلك، وتناقله الناس، وعابوا على من لم يفعل مثله، بل واتهموهم بالضعف والبعد عن النخوة والرجولة فأخذتهم الحمية والشهامة.

فقد حدثوا أن هشام بن عمرو بن ربيعة العامري، وكان ابن أخي نضلة بن هشام لأمه، كان يأتي ليلاً بالبعير قد أوقره طعاماً، حتى إذا بلغ به فم الشعب، خلع خطامه من رأسه ثم ضربه على جنبه، فيدخل البعير على بني هاشم وبني المطلب بما يحمل[1].

---

(١) سيرة ابن هشام ٢ : ١٧.

واستمر هشام بن عمرو على ذلك وهددته قريش فقد أدخل في ليلة واحدة ثلاثة أحمال طعاماً، فقال لهم: إني غير عائد بشيء تحالفتم عليه، فقال لهم أبو سفيان بن حرب: دعوه، رجل وصل أهله ورحمه، أما إني أحلف بالله لو فعلنا مثل ما فعل لكان أحسن بنا[١].

لقد بدأت المحنة تنقشع كما انقشع قبلها محن أخرى، ودار حديث بين خديجة رضي الله عنها وابنتيها أم كلثوم وفاطمة رضي الله عنهما، حول فضلها على المؤمنين واستعبرت خديجة وبكت، وهال البنتين ما تريان من دموع أمهما صاحبة القلب القوي، والهمة العالية، وسألتها أم كلثوم:

- لماذا تبكين يا أماه؟

- فقالت: لقد نالت السنون مني يا بنيتي، ولابد للأجل المحتوم أن يأتي قريباً.

- فقالت فاطمة: لا بأس عليك يا أماه؟

- فقالت: إي وربي لا بأس علي يا بنيتي.. ما من امرأة في قريش حظيتْ بما حظيتُ به من نعمة، بل ما من امرأة في هذه الدنيا نالت مثل الذي نلت من عز، حسبي من دنياي أنني زوج رسول الله ﷺ، وحسبي من آخرتي أنني المؤمنة الأولى بين المسلمات ثم أسبلت الأم عينيها وتوجهت إلى الله قائلة:

اللهم لا أحصى ثناء عليك! اللهم إني لا أكره لقاءك، ولكن أطمع في مزيد من الجهاد لأكون أهلاً لما أنعمت علي!

وصمتت فاطمة الزهراء وصمتت أم كلثوم وكأن الكون كله كان صامتاً، وأرهف الليل سمعه لهذه النجوى المؤثره، فما عاد يسمع فيه سوى أنفاس أم

---

(١) اتحاف الورى بأخبار أم القرى ١: ٢٨٣، عن كتاب تراجم سيدات بيت النبوة.

المؤمنين المجاهدة الصابرة، وخفقات قلبي بنتين راحتا تدعوان لأمهما بالخير والصحة والعافية.

وقطع الصمت فتح الباب، فقد دخل المصطفى ﷺ، وما كادت خديجة ـ التي تحس بدبيب العلة في أوصالها ـ أن تراه حتى هبت للقائه، وقد سرى في جسدها المتعب فيض من القوة والعافية، وأصغت فاطمة وأم كلثوم مع أمهما إلى ما كان النبي ﷺ يحمل من الأنباء، فأحست كل منهن كأن ظلام الليل ينقشع رويداً رويداً، كيما يفسح المجال لنور فجر جديد، وجاء بعده أبو طالب ليحكي ما يدور في مكة.

فقد سخر الله تعالى المشركين لنقض تلك الصحيفة الظالمة، وكانوا من قبل يبذلون كل جهودهم لإحكام الحصار، فقد مضى هشام بن عمرو ليلاً إلى زهير بن أبي أمية، أخي هند ـ أم سلمة ـ بنت زاد الركب فقال له: يا زهير، أقد رضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب، وتنكح النساء وأخوالك حيث علمت؟ أما أني أحلف بالله أن لو كان أخوال أبي الحكم بن هشام ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه من مقاطعتهم، ما أجابك إليه أبداً.

فأصغى زهير ملياً، وفكر ثم سأل:

– ويحك يا هشام! فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد والله لو كان معي رجل آخر لقمت في نقض الصحيفة حتى أنقضها.

– قال هشام قد وجدت رجلاً.

فسأله زهير من هو؟

– قال: أنا.

– قال زهير ابغنا رجلاً ثالثاً.

فذهب هشام إلى المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، وأبي البختري

بن هشام، وزمعة بن الأسود بن المطلب، فوافقوا جميعاً واجتمعوا ليلاً بخطم الحجون ـ بأعلى مكة ـ وأجمعوا أمرهم على القيام في أمر الصحيفة حتى ينقضوها واتفقوا على أن يبدأ زهير فيكون أول من يتكلم في مجتمع القوم.

وأخبر الرسول ﷺ عمه أن الله أطلعه على أمر الصحيفة، وأنه أرسل عليها الأرضة ـ دابة من دواب الأرض ـ فأكلت جميع ما فيها من ظلم وقطيعة إلا ذكر الله جل وعلا.

وذهب أبو طالب إلى المسجد الحرام وجلس حتى يرى ماذا يفعل المشركون مع هؤلاء النفر الذين أزمعوا وعقدوا العزم على نقض الصحيفة.

وتكلم زهير فقال: يا أهل مكة، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يباع ولا يبتاع منهم؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة.

قال أبو الحكم بن هشام وكان في ناحية المسجد:

كذبت والله لا تشق.

فصاح زمعة:

أنت والله أكذب، ما رضينا كتابتها حين كتبت.

وثنى أبو البختري على كلام زمعة، وأيدهما المطعم، ثم تابعهم هشام بن عمرو.

فقال أبو الحكم بن هشام: هذا أمر قضى بليل تشوور فيه بغير هذا المكان.

فقام أبو طالب إليهم وكان جالساً في ناحية المسجد فأخبرهم أن ابن أخيه قال إن الله أرسل على الصحيفة الأرضة فأكلت جميع ما فيها إلا ذكر الله، فإن كان كاذباً خلينا بينكم وبينه، وإن كان صادقاً رجعتم عن قطيعتنا

وظلمنا، فقام المطعم إلى الصحيفة ليشقها فوجد الأرضة قد أكلتها إلا باسمك اللهم، وما كان فيها من اسم الله لم تأكله[1].

ووجمت قريش، وأسقط في يدها، وأحست بالسهم الذي راشته إلى صدور المؤمنين المستضعفين قد ارتد إلى صدرها فيمزقه، وأنها كما سعت إلى الحصار هي التي سعت إلى فكه.

ونهض أبو طالب يسعى إلى الشعب بالبشرى، وكل من في الشعب ينتظر الفرج، وفي طريقه من البيت العتيق إلى الشعب تذكر الذين هاجروا إلى الحبشة فهتف منشداً لعله يبلغهم هناك صدى من صوته فقال:

ألا هل أتـــى بحريِّـــــنا صنعُ ربنا	على نأيهم، والله بالـــناس أرود
فيخبرَهم أن الصــــــحيـفَة مُزقت	وأنْ كلُّ ما لم يرضـــه الله مُفسَد
تراوحـــــــهـا إفك وسحر مجمع	ولم يلف سحر آخرَ الدهر يصعد
جـــزى الله رهطاً بالحجون تتابعوا	على ملأ، يَهدي لحـــزم ويُرشِدُ
قـعـودا لـدى خَطم الحجون كأنهم	مَقاوِلةٌ، بل هم أعـــــز وأمجد
قضوا ما قضوا في ليلهم ثم أصبحوا	على مهل، إذ ســائر الناس رقد

ووصل صوته إلى كل من في الشعب، فهب من نومه من كان نائماً، وأخذ الكل يهتف بالبشرى، وصاح المسلمون منهم: الله أكبر، الله أكبر.

وباتوا ليلتهم وما تمس جنوبهم مضجعاً لفرط الفرح والانفعال، والكل يتهيأ للخروج صباحاً إلى الكعبة ثم إلى دورهم في مكة. وخرجت فاطمة وأم كلثوم مع أمهما التي بدأت تحس بدبيب المرض يزحف إليها، خرجوا

---

(١) انظر حديث الصحيفة والحوار بين أبي جهل والآخرين في سيرة ابن هشام ٢: ١٤-١٦.

ومعهم المصطفى ﷺ إلى بيت الله الحرام، وطافوا حول الكعبة ثم رجعوا إلى دارهم.

فأضجعت خديجة رضي الله عنها على فراشها وهي تحمد الله كثيراً، لقد حقق لها أملاً كان يراودها وهو أن يمهلها الأجل حتى تنجلي المحنة، وها هي المحنة قد انجلت، ولعل ما قد أصابها من المرض كان من أثر الجوع والحرمان الذي لاقاه كل المسلمين، فقد خرجت فاطمة كذلك هزيلة الجسم، نحيلة العود، مصفرة الوجه مثلها مثل باقي المسلمين فقد كانت المحنة لا تميز بين أحد منهم وكانوا يواجهون المحنة بالصبر والمصابرة ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

وبدأ الكل يسترد عافيته، وقريش في ذهول من أمرها، فكلما أبرمت أمراً وأحست أن فيه نهاية محمد وأصحابه، تجد فيه غير ما أرادت، وفي هذه الأيام، وقريش تتماوج في غيها الذي لا يبرح مكانه بينما استفاد المسلمون من الظروف الجديدة في الدعوة، وفي تعويض ما مضى من أيام الحصار.

واستردت أم الزهراء بعد عدة أسابيع صحتها، ولكنها ظلت تعالج أسباب الضعف الذي أصابها، وكانت قد ناهزت الخامسة والستين من حياتها.

وبعد فترة من الهدوء يسيرة مضت قريش مرة أخرى إلى أبي طالب ليعقدوا هدنة أو صلحاً، ليكف محمد عنهم، ويكفوا عنه، وليدع دينهم ويدعوا دينه، فقال لهم الرسول ﷺ، «كلمة واحدة تقولونها، تملكون بها العرب، وتدين لكم العجم» قالوا ما هي؟!

قال: «تقولون: لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه» فصفقوا بأيديهم، ثم قالوا: أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً، إن أمرك لعجب.

ثم قال بعضهم لبعض، إنه والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئاً مما تريدون

فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم، حتى يحكم الله بينكم وبينه، ثم تفرقوا.

وفي هؤلاء نزل قوله تعالى: ﴿ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧ ﴾[1].

*****

(١) انظر سيرة ابن هشام من ١: ٤١٧-٤١٩، والرحيق المختوم للمباركفوري ص ١١٠-١١١.

أثر موت أبي طالب

مضت الأيام سريعة متلاحقة، ومرض أبو طالب الذي كان ركنا ركينا في منعة المسلمين وحمايتهم من أذى الكفار والمشركين، وها هو ذا أبو طالب يجتمع عنده في مرضه سادة قريش، وأراد أن يوصيهم فقال:

يا معشر قريش أنتم صفوة الله في خلقه وقلب العرب ، واعلموا أنكم لم تتركوا للعرب في المآثر نصيبا إلا أحرزتموه، ولا شرفا إلا أدركتموه، فلكم بذلك على الناس الفضيلة، ولهم به إليكم الوسيلة، والناس لكم حرب، وعلى حربكم إلب .

وإني أوصيكم بتعظيم هذه البنية، فإن فيها مرضاة للرب، وقواما للمعاش، وثباتا للوطأة، صلوا أرحامكم ولا تقطعوها، فإن صلة الرحم منسأة في الأجل، وزياد في العدد.

اتركوا البغي والعقوق ففيهما هلكت القرون قبلكم، أجيبوا الداعي وأعطوا السائل، فإن فيهما شرف الحياة والممات، عليكم بصدق الحديث، وأداء الأمانة، فإن فيهما محبة في الخاص ومكرمة في العام.

وإني أوصيكم بمحمد خيرا فإنه الأمين في قريش، والصديق في العرب، وهو الجامع لكل ما أوصيتكم به، وايم الله كأني أنظر إلى صعاليك العرب وأهل البر في الأطراف، والمستضعفين من الناس، قد أجابوا دعوته، وصدقوا كلمته، وعظموا أمره، فخاض بهم غمرات الموت فصارت رؤساء قريش وصناديدها أذنابا، ودورها خرابا، وضعافها أربابا، وأعظمهم عليه أحوجهم إليه، وأبعدهم منه أحظاهم عنده.

قد محضته العرب ودادها، واصفت له فؤادها وأعطته قيادها، دونكم يا معشر قريش ابن أبيكم، كونوا له ولاة ولحربه حماة، والله لا يسلك أحد منكم سبيله إلا رشد، ولا يأخذ أحد بهديه إلا سعد، ولو كان لنفسي مدة ولأجلي تأخير لكفيت عنه الهزاهز، ولدفعت عنه الدواهي[1].

فما نراه من هذه الوصية وما قاله في ابن أخيه المصطفى ﷺ إلا قد فعل أكثر مما قال، فقد دافع عنه بكل ما يملك من دفاع، وما أوتي من حيلة، وحث القوم على البعد عن الإساءة إليه، وهو يتمنى لو كان في عمره بقية فيظل يدافع عنه.

ودار الحديث عن أبي طالب وما قدمه للمسلمين بين المؤمنة الأولى خديجة رضي الله عنها، وبين بناتها الثلاث زينب وأم كلثوم وفاطمة رضي الله عنهن، وتم استعراض عشر سنوات مضت هي عمر النبوة، وموقف أبي طالب منها بعد خروج الدعوة إلى العلن.

وأخذت الأم تدعو الله أن يوفقه إلى الإسلام، وأن يختم عمره بقول لا إله إلا الله محمد رسول الله.

قالت فاطمة: ليته يقولها حتى تعصمه من نار جهنم.

وقالت أم كلثوم: إنه يعمل لها ومن أجلها، ولكن لا ينطق بها، هل يضمر الإسلام ولا يعلنه، لسبب لا نعرفه.

وقالت زينب: إن رسول الله ﷺ دعاه كثيراً إلى الإسلام، ولو كان يخفيه لأخبره.

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي الشامي ٢: ٥٦٤، ٥٦٥ بتصرف.

قالت أم المؤمنين: لا نملك إلا أن ندعو الله له في هذه اللحظات الحاسمة أن يوفقه الله وينطق بالشهادتين.

تذكرت فاطمة ما قاله أبوها وهي مازالت صغيرة: «يامعشر قريش اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً... يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً، يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً».

ودار حديث بينها وبين نفسها ـ أخذها من أمها وأخواتها ـ فقالت: أهكذا يا عم رسول الله تضيع هذا الماضي الناصع في مساندة ابن أخيك وفي مساندة الدعوة الإسلامية، في مقابل الشهادتين تنطقهما من قلبك وليس من لسانك.. كلمتان: لا إله إلا الله، خفيفتان، تنقلان الإنسان من نار إلى جنة، ومن عذاب مقيم إلى نعيم مستديم..

أتفضل يا عم رسول الله أن تبقى في العذاب إرضاء لجهل وحمقهم الذين أخذتهم حمية الجاهلية فأعمتهم عن الصراط المستقيم، أتفضل هؤلاء يا عم رسول الله على أن ترضي الله وتسلك طريق الحق بكلمتين، ليكون طريقك إلى الجنة، ومع المؤمنين، وتحق لك شفاعة رسول الله ﷺ.

وانسلت من بين أخواتها واتجهت إلى بيت أبي طالب، لعلها تسمع خبراً يريح فؤادها، ويثلج قلبها، ويكون قد أسلم وتخلى عن عهده القديم وولائه لدين الآباء والأجداد.

لقد انتابتها موجة حزن عميقة لأنها أخبرت بأنه مازال على دين قومه، وعلمت أن رسول الله ﷺ جاءه فوجد عنده أبا جهل، وعبد الله بن أبي أمية فقال رسول الله ﷺ: يا عم قل: لا إله إلا الله كلمة أشهد لك بها عند الله،

فقال أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟

فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعودان لتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله[1].

وعادت من حيث ذهبت باكية.. وارتمت في أحضان أمها المريضة، وقد أحست أمها بها دون أن تنطق بكلمة واحدة، فقد كانت تتمنى ما تتمناه البنت.

وعاد الرسول ﷺ إلى بيته والحزن باد على وجهه، لقد كان حزيناً حزناً شديداً، ولم يدر ما يقوله والروح توشك أن تبلغ الحلقوم من جسد أبي طالب، وهو ما يزال على موقفه، ولم تظهر منه بادرة تدل على أنه استجاب لابن أخيه، ومات أبو طالب!!

أما الرسول ﷺ فقد قال: أما والله لأستغفرنّ لك ما لم أُنهَ عنك[1].

فأنزل الله تعالى بعد ذلك: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ ﴾[2].

وأنزل الله على نبيه في أبي طالب قرآناً يتلى فقال تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾[3].

---

(١) انظر سبل الهدى والرشاد ٢:٥٦٥، وصحيح البخاري باب قصة أبي طالب ١:٥٤٨، والرحيق المختوم ص١١٢.

(٢) سورة التوبة الآية (١١٣).

(٣) سورة النساء الآية (١١٧).

ولا حاجة إلى بيان ما كان عليه أبو طالب من الحياطة والمنع، فقد كان الحصن الذي تحتمي به الدعوة الإسلامية من هجمات الكبراء والسفهاء، وكانت وفاته في رجب سنة عشر من النبوة على أرجح الأقوال[1].

*****

(١) الرحيق المختوم ص ١٢٢.

موت خديجة رضي الله عنها

حزن الرسول ﷺ حزناً شديداً على موت عمه أبي طالب، ولكن الحياة لا تتوقف وخاصة مع من أنيطت بهم رسالات السماء.

وقد بدأت وطأة المرض تشتد على أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها، ولكن لم يكن يشغلها ما تعانيه من مرض، بل كان كل شغلها رسول الله ﷺ وأصحابه والدعوة إلى الله تعالى.

وتصبر على آلامها فتبتسم له حين يدخل عليها، وهموم الدعوة إلى الله ترسم آثارها على وجه الحبيب، فتشد خديجة رضي الله عنها عليه بيدها الحانية، وتمسح عنه بهذا التأييد كل آثار التعب أو النصب.

أو ليس ذلك دور الزوجة الصادقة، الصالحة، الصابرة مع زوجها: « إذا نظر إليها سرته » وهو دور الأم الحانية تمسح عن جبين ولدها، كل وعثاء الطريق، وتزيل عنه كل آلام الدنيا.

كانت خديجة في مرتبة الأم للرسول في وقت كان أحوج ما يكون إلى أم تحنو عليه وتمسح عن جبينه مرارة اليتم.

وحمدت المؤمنة أم المؤمنين الله كثيراً أن وفقها إلى الإيمان، ووفقها أن قامت بدورها في خدمة دعوة الله ودينه الخالد محتسبة ما قامت به لله، بل إن خدمتها لزوجها الأمين ورسوله الذي خصه بالرسالة إنما كان لله، وأن حب الله قد نقش في قلبها وسيظل مختلطاً بروحها بعد أن يفنى هذا الجسد الضعيف.

إنها تفتح عينيها فتجد الزوج الوفي يحوطها بعطفه وحنانه، ولا يملك لها

إلا الدعاء الذي يرجو من الله قبوله، أما الصغيرة فاطمة فإن الدموع تنهمر من عينيها وهي تنظر إليها من بعيد، فتقبل عليها ثم تولى بعيداً لتمسح الدموع من عينيها، إنها تنظر إلى الذين يلتفون حول الأم الرءوم والدموع تتساقط من أعينهم، وهم يبكون، ولا تملك إلا أن تبكي مثلهم.

ولبث الرسول ﷺ إلى جوار زوجته المريضة، يرعاها ويؤنس وحشتها، ويقف إلى جوارها لحظة الاحتضار، هذه السيدة التي كان لها قصب السبق[1] في الإسلام وهي التي احتضنت الدعوة الوليدة بقلبها المؤمن المستيقن، وهي التي واست النبي ﷺ والمسلمين بمالها، وجاهها، وفوق هذا كله صاحبة البشرى الواعدة بأن لها بيتاً في الجنة.

لقد أتى جبريل أمين الوحي عليه السلام إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله هذه خديجة قد أتت ومعها إناء فيه إدام، أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب - قصب اللؤلؤ - لا صخب فيه ولا نصب[2].

سمعت بناتها تلك البشرى التي بشر بها الله خديجة إنها الأم التي استحقت أن يبعث الله تعالى إليها مع أمين الوحي جبريل عليه السلام وأن يعدها ببيت في الجنة! إنها بشارة لا يظفر بمثلها إلا من استحقها من عباد الله الصالحين ثم بعد ذلك كله السلام من جبريل الرسول الأمين.

بكت فاطمة وأخواتها فرحاً بتلك المنزلة التي خص الله بها أمهن الغالية، وربطت فاطمة الزهراء سريعاً، بين موقف أمها التي يسلم الله عليها، وموقف عم أبيها أبي طالب بالأمس القريب، والرسول ﷺ يحاوره من أجل أن يشهد

---

(١) قصب السبق كلمة تقولها العرب لمن يكون سابقاً في أي أمر، فقد كانوا في السباق يعدون قصبة لمن يصل أولاً من المتسابقين.

(٢) صحيح البخاري باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها ١:٣٩٥.

شهادة الحق التي تنجيه من عذاب أليم.

ورددت قول الله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾.

لقد أتى الخاصة من الأهل والأقارب يهرولون ليهونوا على أم المؤمنين مرضها، بإحاطتها بالرعاية والود، وإسباغ مشاعر المحبة عليها، واقترب منها المصطفى ﷺ أكثر، إنه يرى أن وداعها قد حان وأنها الآن أوشكت على الفراق، في هذه اللحظات قال لها المصطفى ﷺ: «بالكره ما أرى منك يا خديجة، وقد يجعل الله لي في الكره خيراً»[1].

ثم أسلمت الروح لبارئها وهي بين يدي رسول الله ﷺ وقام رسول الله وهو حزين يحاول مغالبة عبراته أمام بناته الثلاث، بينما كان وجهه يقول: لقد ماتت خديجة.

سرى الخبر في أرجاء مكة يحمل نبأ وفاة أعظم امرأة عرفها الناس في تلك الأرض الطاهرة، ووقع الخبر على أهل مكة كالصاعقة. لقد ماتت خديجة بنت خويلد الطاهرة، سيدة نساء قريش، تقبل الناس هذا الخبر بالحزن الأليم، والذكرى الحسنة لسيدة طاهرة فاضلة، فهي نمط لا يتكرر.

لقد مرت الطاهرة على الحياة كالنسيم العليل، لم تسيء إلى إنسان، ولم تخرج من فمها كلمة تخدش السمع، أو تمس الحياء، ولم تتدخل فيما لا يعنيها أبداً، ولم تخرج عن سمتها الخلقي، وطورها الإنساني على الرغم مما كان يلاقيه أحب الناس إليها في دعوته إلى الله، وكانت تكتفي بشد أزره، وتقويته على أداء رسالته، وتصبره على ما يعانيه من القوم.

لم يكن في مكة رغم عداء معظم أهلها لزوجها، من يقول إنها أساءت له

---

(١) إتحاف الورى بأخبار أم القرى ١: ٣٠٤، عن كتاب تراجم سيدات بيت النبوة.

وإنما كان إحساسها يصل إلى الجميع وأخلاقها تسع الجميع لها طبع سليم، وعقل راجح، ونفس عطوف، وقلب كبير إنها شخصية فريدة قلما يتكرر على ظهر الأرض مثلها بل قل، وأنت على ثقة : إن الأرض لم تعرف بعدها مثلها أبداً.

شاهدت فاطمة وهي تبكي ذلك الموقف المهيب الذى تجمع له كل المسلمين الذين أسلموا في مكة، والتفوا حول الرسول ﷺ، وقلوبهم تنفطر على ما أصاب نبيهم، فهم يعرفون مكانتها عنده، وحبه لها، وتقديره العظيم لما قامت به، حتى إذا شيعت إلى قبرها شاركه المسلمون في ذلك وهم في غاية الحزن والأسى.

وهناك في الحجون نزل رسول الله ﷺ في حفرتها، ولم تكن صلاة الجنازة قد شرعت، ووسدها ﷺ بنفسه، ودعا لها كثيراً.

عادت فاطمة إلى مخدع أمها وهي تبكي وصورة خديجة الحبيبة لا تفارق عين فاطمة، لكأنها الآن أمامها بشحمها ولحمها، وهي تبتسم للنبي ﷺ حين قال لها ما قاله له جبريل عليه السلام :

« اقرأ عليها السلام من ربها ومنى ».

لكأنها الآن أمام فاطمة وهي تردد: الله السلام ومنه السلام وعلى جبريل السلام، وعليك السلام يا رسول الله.

ترى فاطمة الابتسامة على طيف أمها الماثل أمام عينها، فتبتسم الزهراء، وهي تبكي في آن واحد، تبتسم للنعيم الذي تحيا الآن فيه الطاهرة سيدة نساء قريش وسيدة المسلمين وأم المؤمنين، وتبكي لذلك الفراق الجسدي المكتوب على كل حي في هذه الحياة الدنيا، إنها فطرة الله في خلقه، وإنها عواطف ركبها الله تعالى في الإنسان، عواطف الحزن والفرح.

وداعاً يا أم المؤمنين، وداعاً يا زوج الحبيب، وداعاً يا أم الدعوة الإسلامية

أم الإسلام، قد رعيته وليداً، يطل على الدنيا بوجه صبوح، فأرضعته من لبن يقينك وإيمانك وصدقك، وحنوت عليه بذلاً، وعطاء، وحناناً، فكنت خير باذل وأجود منفق.

آه لو أنك تُطلين الآن من روضتك التي فيها تحيين لتري أن الإسلام الذي تركته في المهد قد شب عن الطوق وأصبح فتياً يملأ بقاع الدنيا كلها.

وعلى الفور توقفت عن البكاء وأخذت تستعد للوقوف هي وأختها إلى جوار الأب الحزين، وأخذت ترتب في البيت، وتعيد نظامه من لحظتها، وشعر الأب لتوه أن تحولاً خطيراً طرأ على ابنته في هذه اللحظة، وهي تردد بصوت مسموع:

« إنا لله وإنا إليه راجعون ».

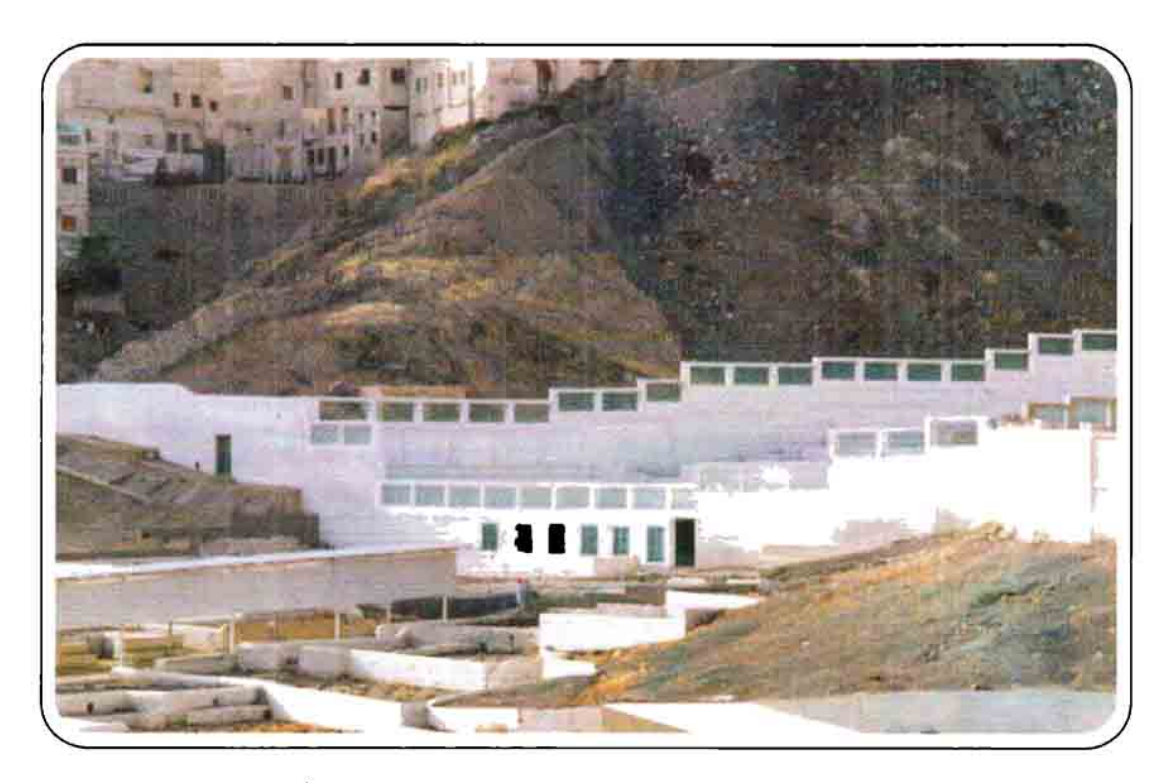
*****



صورة رقم (١٤) المقام القديم

قبر السيدة خديجة رضي الله عنها، داخل القبة
وكان المشرفون على القبر (السدنة) آل باروم[١]

(١) كان للأماكن الشريفة في مكة المكرمة مشرفون (سدنة) يقومون على شؤون تلك الأماكن، أو ينظمون استقبال الزائرين لها . أذكر من ذلك:
١- مكان مولد سيدي رسول الله ﷺ يقوم عليه بيت المرحومي وأعرف منهم شخصياً الشيخ إبراهيم المرحومي.
٢- مكان مولد الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه - بيت سنبل وأعرف منهم شخصياً الشيخ عبد الإله سنبل.
٣- مكان مولد سيدي أبي بكر الصديق رضي الله عنه - بيت الشلي. وأعرف منهم صديقي السيد هاشم شلي.
٤- مكان مولد سيدنا حمزة بن عبد المطلب وقد كان المشرفون - على قبره - بيت ولي وأعرف منهم شخصياً السيد سراج ولي رحمه الله.



صورة رقم (١٥) صورة مقربة لقبر السيدة خديجة رضي الله عنها (المقام الجديد)

لمست فاطمة عبء الأحزان على أبيها فقد مات اثنان كانا نصيرين له، وبعد موتهما اشتدت المصائب وبلغت ذروتها، فقد تجرأ الكفار على النبي ﷺ، وكاشفوه النكال والأذى بعد موت أبي طالب، وكما اشتدت وطأة كفار مكة على النبي ﷺ اشتدت على أصحابه حتى التجأ رفيقه أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى الهجرة عن مكة يريد الحبشة حتى أرجعه ابن الدغنة في جواره[١].

(١) انظر القصة مروية بطولها في سيرة ابن هشام ١:٣٧٢-٣٧٤ وفي صحيح البخاري ١:٥٥٣-٥٥٣.

قال ابن إسحاق : لما مات أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تطمع به في حياة أبي طالب، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسه تراباً، ودخل بيته، والتراب على رأسه، فقامت إليه ابنته فاطمه، فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي. . . ورسول الله ﷺ يقول لها: «لا تبكي يا بنية، فإن الله مانع أباك» . . . ثم كان يقول بين ذلك «ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب»[1]. وقد سمى المصطفى ﷺ هذا العام بعام الحزن، وبهذا اللقب صار معروفاً في التاريخ.

وترى فاطمة الزهراء أن المحنة قد ازدادت واشتدت، فالكفار زاد إيذاؤهم للمسلمين.

بلال يوضع على صدره الحجر العظيم.

ماتت سمية بنت خُبّاط[2]. عذب وقتل زوجها ياسر.

أين قول العرب: إن العرب لا تقتل النساء؟ أين هذه الرجولة التي يتحدثون عنها؟ أين الرحمة؟

القرآن الكريم يرددها في صراحة: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾.

ولكنهم يريدونها شركاً ووثنية وإلحاداً وكفراً.

رغم التحدي المعجز بالقرآن. . . وهم أهل فصاحة. . . رغم معرفتهم بصدقه، بأمانته، رغم كل شيء. . . ولكنهم يحاربونه ويحاربون المؤمنين عناداً وغطرسة وكبرياء وجاء القرآن يتحدث عن رغبتهم الدفينة ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾[3] إذن لا بد من سبيل من مخرج.

---

(١) ابن هشام ١: ٤١٦.

(٢) كانت أمة لأبي حذيفة بن المغيرة فزوجها لحليفه ياسر بن عامر بن مالك.

(٣) سورة الزخرف الآية (٣١).

ضاق الأمر بالمسلمين. . هكذا نرى فاطمة وتلك الصور تتراءى أمام عينها فترى أن كل شخص مسلم أصبح مطارداً في منزله، في رزقه في عمله. .
الآباء قيدوا الأبناء بالحديد. . . حبسوهم. . عذبوهم. . منعوا عنهم الطعام.

السادة صبوا العذاب على العبيد. . بالنار. . وبالقيود. . بالماء المغلي. . بكل صور العذاب ليفتنوهم عن دينهم. .

إنها المحنة الكبرى. . ورغم كل هذه الصور القاتمة الحزينة إلا أن شفتي فاطمة تنفرج عن شبه ابتسامة، فقد تعودت منذ نعومة أظفارها أن المحنة يعقبها فرج بمثلها أو أشد منها وهي الآن اشتدت بأقصى ما تكون. . إذن فالفرج قادم لا محالة.

وتتألم فاطمة ألماً شديداً لأن الوالد الكريم ﷺ بدأ يعرض نفسه على القبائل خارج مكة، وكلها تقابله بالصدود، فقد سعت قريش سعيها الظالم لتسد عليه المنافذ في كل مكان.

ويمضي إلى الطائف لعله يجد من يؤمن به ويؤيده حتى يبلغ رسالة ربه فلا يجد منهم إلا الصد والرد المسيء وها هو ذا يعود من الطائف مهموماً مكدوداً قد أدميت قدماه من قذفه بالحجارة، وقد دخل مكة في جوار مشرك هو المطعم بن عدي.

ويجلس إلى ابنته الصغيرة في السن فقد بلغت الخامسة عشرة من عمرها، الكبيرة في فكرها وفي تصرفها.

لقد عرض على أبيها الزواج من أرملة ومن فتاة غضة صغيرة، الأولى: سودة بنت زمعة، وكانت ممن أسلمن قديماً بمكة ثم هاجرت إلى الحبشة في الهجرة الثانية، وكان زوجها السكران بن عمرو قد أسلم وهاجر معها فمات بأرض الحبشة أو بعد الرجوع إلى مكة، فلما حلت، خطبها الرسول ﷺ

وتزوجها وآثرها على غيرها رحمة منه وعطفاً وتقديراً، وكانت أول امرأة تزوجها بعد وفاة خديجة، وبعد عدة أعوام وهبت نوبتها لعائشة.

وفي شوال من السنة نفسها تزوج رسول الله ﷺ عائشة الصديقة رضي الله عنها، وهي بنت ست سنين وبنى بها بالمدينة في شوال في السنة الأولى من الهجرة وهي بنت تسع سنين[١].

*****

(١) صحيح البخاري ١: ٥٥١.

زواج النبي ﷺ وأثره على الزهراء

لم تعترض فاطمة على ما فعل أبوها فهي ترى الأيام تمضي ثقيلات الخطا مرهقات بأعباء الجهاد، والليالي كوالح مسهدات، مشحونة بالذكريات، وأبوها في وحدته بعد خديجة يخلو إلى نفسه كلما أجهده ما يلقى من قومه ليتذكر طيف التي ملأت حياته سعادة وتضحية وحباً.

وحسبها أن أباها كان دائماً يذكرها بالخير فقد قال في حقها: «آمنت بي إذ كفر بي الناس وصدقتني إذ كذبني الناس وواستني بمالها إذ حرمني الناس»[1].

ولعل الزواج من سودة بنت زمعة يكون فاتحة خير على أبيها فتخرجه من آلامه ووحدته، وقد حاولت فاطمة أن تشغل مكان أمها وتحمل المسؤولية مكان الأم والزوجة والأبنة، ولكنها كانت تحس بحاجته إلى زوجة ترعاه وتؤنسه.

وقد منّ الله تعالى على أبيها في شهر رجب برحلة لم يفز بمثلها أحد قبله سواء كان نبياً أو رسولاً أو ولياً، إنها رحلة الإسراء والمعراج. فقد كانت تفريجاً وتسلية وترويحاً عن النبي ﷺ، وكانت بداية مرحلة جديدة من التثبيت، فقد رأى الرسول ﷺ في تلك الليلة ما يزيده ثباتاً على الطريق.

---

(١) رواه البخاري.

وأعلن النبي ﷺ نبأ تلك الرحلة المباركة، وهاجت قريش وماجت عن بكرة أبيها، وارتد من المسلمين من كان هش الإيمان، وظهرت بطولات الصديق الإيمانية في تلك المرحلة لتكون مثالاً يحتذى في الإيمان بالله تعالى والإيمان بالغيب.

وبدأت طلائع المهاجرين إلى الحبشة تعود إلى مكة فقد أبرم الرسول ﷺ بيعتين مع أهل المدينة، وفي هاتين البيعتين كان مفتاح الخير الأكبر، فقد أذن النبي ﷺ للمسلمين أن يهاجروا إلى المدينة فهناك سيجدون الحماية، ويجدون الراحة من عذاب مشركي مكة.

في هذه الآونة عادت المهاجرة الأولى رقية بنت المصطفى ﷺ، عادت متلهفة إلى مراتع الصبا، إلى حضن الأب، وإلى حنان الأم...

آبت رقية إلى بيت أبيها مشوقة مجهدة، فخفت أختاها أم كلثوم وفاطمة الزهراء للقائها. وتشبثتا بها معانقتين، وهما تغالبان الدمع، وتتكلفان التجلد.. وأفلتت من عناقهما وسألت مستريبة: أين أبي؟ وأين أمي؟

أجابتا: أبوك بخير، وقد خرج للقاء العائدين معك من مهاجرة الحبشة، ثم اختلجت شفاه فاطمة الزهراء وأختها أم كلثوم وبدت في عيونهما دموع حزن متجدد عميق.

وعادت رقية تسأل وقد أوجس قلبها خيفة: وأمي، أين هي؟! فأطرقت أم كلثوم صامته لا تجيب، وأما فاطمة فغادرت الغرفة باكية حزينة.

هناك كفت رقية عن أسئلتها، وسارت مترنحة نحو مخدع أمها حيث تهالكت على فراشها جامدة العين زائغة البصر، مثلجة الأطراف.

إلى أن جاء أبوها ﷺ، فأذاب ذلك الجمود بحرارة لقائه وأزاح بحنوه ما ران على قلب ابنته من أثر الصدمة. وأسعفها الدمع ما شاء لها حزنها، ثم أوت إلى الصدر الرحب الكريم وثابت إلى السكينة والصبر.

هجرة المصطفى ﷺ والزهراء

ومرت الأيام سراعاً وبدأت هجرة المسلمين إلى المدينة تشتد على قدم وساق، إلى أن جاء الإذن للنبي ﷺ بالهجرة، ومضى في طريقه إلى المدينة هو وصديقه الأثير أبو بكر الصديق.

ارتحل النبي الكريم ﷺ وترك خلفه الزوجة سودة بنت زمعة وبنتيه أم كلثوم وفاطمة.

ورقية هاجرت مع زوجها عثمان بن عفان.

وزينب مازالت في بيت زوجها أبي العاص بن الربيع إذ لم يكن الإسلام قد فرق بينهما بعد.

أخذت مكة كلها تتسمع أخبار المهاجر العظيم وصاحبه ومطاردة قريش المحمومة لهما تريد الظفر بهما.

ووصلت الأخبار من يثرب بوصول النبي ﷺ بسلامة الله إلى هناك وقد استقبله أهلها استقبالاً عظيماً، بترحاب ينم عن حب كبير وشوق للقاء هذا النبي الكريم والرسول العظيم ﷺ.

وعلى أثره هاجر علي ابن العم أبي طالب، وكان قد تمهل ثلاثة أيام في مكة، ريثما أدى عن النبي المهاجر الودائع التي كانت عنده للناس.

ومضت الأيام في سيرها متباطئة مشحونة بالقلق واللهفة، ومضت الليالي مثقلات بالسهد والشجن، حتى جاءت البشرى، فقد جاء زيد بن حارثة وأبو رافع ومعهما راحلتان وخمسمائة درهم كي يحضروا سودة بنت زمعة وأم كلثوم وفاطمة الزهراء من بيت النبوة ومن آل أبي بكر عائشة وأمها.

وأمضت بنتا النبي ﷺ يومهما الأخير بمكة مع أختهما زينب زوج أبي العاص، يذكرن الأمس السعيد، ثم أغلقن الدار التي شهدت ماضيهن الخلي، وسعين إلى الحجون فروين قبر الأم الطاهرة بدموعهن يودعن أمهن الراقدة تحت التراب وأغلقت دار المصطفى ﷺ بمكة كما أغلقت دور المسلمين فيها، فلم يعد فيها ساكن ولا أنيس.

وأمسكت أم كلثوم بيد أختها فاطمة الزهراء ومضت بها إلى حيث كان زيد ينتظرهما متهيئاً للرحيل.

لم تمض رحلتهما بسلام، فما كادتا تودعان أم القرى وينفصل بهما الركب مستقبلاً طريق المدينة، حتى طاردهما اللئام من مشركي قريش، وباء الحويرث بن نقيذ بن وهب بن عبد بن قصي - وكان ممن يؤذي أباهما النبي ﷺ بمكة - باء بإثم اللحاق بهما حتى نخس بعيرهما فرمى بهما إلى الأرض[1].

فسارتا بقية الطريق متعبتين من أثر وقوعهما على أديم الصحراء إلى أن بلغتا المدينة وما تكاد ساقاهما تنهضان بهما، فلم يبق هناك من لم يلعن الحويرث وتمر السنون وأبوهما ﷺ لا ينسى هذه الفعلة الآثمة، ففي العام الثامن للهجرة، يذكر الحويرث يوم الفتح الأكبر ويسميه مع النفر الذين عهد إلى أمرائه أن يقتلوهم وإن وجدوهم متمسكين بأستار الكعبة.

وكان علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، أحق هؤلاء الأمراء بقتل الحويرث، وقد فعل[2].

قبل أن يبعث النبي ﷺ في إحضار فاطمة الزهراء كان قد شرع في بناء

---

(١) السيرة لابن هشام ٤ : ٥٢.

(٢) السيرة لابن هشام ٤ : ٥٢، وتاريخ الطبري حوادث السنة الثامنة للهجرة.

مسجده ومنزله، حيث بركت ناقته القصواء عند وصوله إلى دارالهجرة، ونزل ﷺ ريثما يتم البناء، في دار أبي أيوب الأنصاري، وهي الدار التي صارت من بعده إلى مولاه أفلح فاشتراها منه المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بألف دينار، بعدما خربت وتداعت جدرانها، فأصلحها وتصدق بها على بعض فقراء المدينة.

وكان ﷺ يعمل في بناء مسجده وبيته الجديد، مما حفز همة المهاجرين والأنصار فأقبلوا يتنافسون على العمل، وقائلهم يقول:

لئـــن قعـــدنـــا والنبـــي يعمـــــل   لـــذاك منـــا العمـــل المضلـــل

ويرتجز المسلمون وهم يبنون.

لاهُـمَّ إن العيـش عيـش الآخـــرة   فـارحـم الأنصـار والمهـاجـــــرة

ورئى المصطفى ﷺ يومئذ وهو ينفض بيده الكريمة وفرة عمار بن ياسر وقد جاء مثقلاً بما يحمل من اللبن، وسمع علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ينشد مرتجزاً:

لا يستوي من يعمر المساجدا

يدأب فيه قائمـــاً وقاعـــداً

ومن يـرى عن الغبـــار حائداً

فأخذهما عنه عمار وجعل يرتجز بها حتى تم البناء.

وكان البيت يتكون من حجرات بسيطة مفتوحة على فناء المسجد النبوي، بعضها من حجارة مرصوصة، وبعضها من جريد يمسكه الطين، وكانت جميعاً مسقوفة بالجريد.

وأما ارتفاعها فيقول الحسن بن علي سبط النبي وابن بنته الزهراء: كنت أدخل بيوت النبي ﷺ وأنا غلام مراهق، فأنال السقف بيدي.

وفي صحيح البخاري، أن بابه عليه الصلاة والسلام كان يقرع بالأظافر، يعني لا حلق له.

وأما الأثاث فأقصى ما عرفت المدينة يومئذ قلة وخشونة وتواضعاً، وكان سريره ﷺ خشبات مشدودة بالليف.

إلى هذا المنزل الجديد المتواضع، جاءت فاطمة بنت محمد مهاجرة من مكة لترى أباها ﷺ في أعز موضع، ولتجد المهاجرين وقد أطمأن بهم المقام وآخى ﷺ بين المهاجرين والأنصار، ليذهب عنهم وحشة الاغتراب، ويشد بعضهم أزر بعض.

كانت فاطمة وقتئذ قد قاربت عامها الثامن عشر وما تزال منصرفة عن الزواج زاهدة فيه لتظل في رعاية الوالد الحنون ﷺ ولتظل أم أبيها ولكن مع توالي الأعوام، أدركت حكمة الزواج، وأحست بفطرتها أنه أمر في طبيعة كل أنثى ولا تستقيم الحياة إلا به.

ما أجمل الصورة التي تراها الآن، الأخوة الظاهرة، والحب الظاهر بين المهاجرين والأنصار وما أروع ما تشاهد.. ما من مهاجر يأتي المدينة إلا ويسارع إليه العشرات من الأنصار. كل يرغب في استضافته.. وكل يرغب في أن يكون أخاه.

ماالعمل إذن وكيف يكون إرضاء الجميع؟

لابد من إجراء قرعة بين الجميع فمن كانت من نصيبه ظهرت عليه السعادة والتهاني تزف إليه، فقد فاز بأخ حبيب..

وترتد فاطمة بخيالها إلى الأمس القريب.. في مكة المكرمة.. هناك حيث الايذاء والفتنة والعداوة

وهنا في المدينة المحبة والخير والإيثار.

في مكة إذا أسلم مسلم أسرع أهلها إليه يكيلون له الإهانات والسباب والعذاب.

في المدينة إذا هاجر مسلم فالكل يسارع إليه لإكرامه والسهر على راحته في ضيافة وكرم وحب.

وقالت فاطمة الزهراء محدثة نفسها ما أهون الهجرة، إذا كنا قد تركنا الديار فقد وجدنا الأنصار.

إذا كنا قد تركنا الأهل.. فقد وجدنا الأحباب.

وبدأ أهل الإيمان المهاجرون يستقرون، قد وسعتهم بيوت الأنصار، أعطاهم الأنصار نصف الدور، ونصف الأموال، حتى إن بعض الأنصار كان عنده امرأتان فخير أخاه أن يطلق له امرأة ليتزوجها.

إن المقارنة صعبة بين قريش، وبين الأنصار فقد آذتهم قريش في أبدانهم. وحاصرتهم في شعب أبي طالب، ومنعتهم أموالهم وصادرت أملاكهم، خرجوا منها خائفين يترقبون. والآن يحسون بكل معاني الأمن والاستقرار، ويجدون الكفاية من الحاجات.

وأهل شهر شوال من العام الثاني من الهجرة المباركة، وتزوج النبي ﷺ عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، ولم يكن زواجها مفاجأة للزهراء رضي الله عنها، ولا لأحد من المسلمين فقد خطبها قبل هجرته من مكة، يوم سعت إليه خولة بنت حكيم متلطفة مترفقة تقول: «يا رسول الله كأني أراك قد دخلتك خلة لفقد خديجة» ثم ما زالت به حتى أذن لها أن تمضي فتخطب له سودة بنت زمعة، وعائشة بنت أبي بكر رضي الله عنهما.

وما كانت الزهراء لتكره أن يجد أبوها النبي ﷺ من تسكن نفسه إليها ويرتاح لها فؤاده، وإنها لتعرف ما يحمل من أعباء الرسالة ومشاق الجهاد،

وما يجده من محنة الصد عن البيت العتيق وقسوة الاضطهاد من قومه وعشيرته[1].

*****

(١) انظر تراجم سيدات بيت النبوة ، للدكتورة بنت الشاطىء ص٦٠٤ بتصرف.

هجرة أختها زينب رضي الله عنها

كان موقفاً صعباً على زينب بنت النبي ﷺ، فقد خرج زوجها أبو العاص بن الربيع مع كفار قريش إلى بدر لمحاربة النبي ﷺ والمسلمين.

فهي تريد أن ينتصر أبوها الرسول ﷺ، ولا تحب أن تحدث مواجهة بينه وبين زوجها، إنه موقف صعب ولكنه حدث.

وانتصر المسلمون وكان من الأسرى زوج زينب رضي الله عنها، وعلمت زينب بنصر أبيها والمسلمين وعلمت بأسر زوجها وكان ذا مال، وقد أراد أهله أن يغلوا في فدائه لكن زينب آثرت أن تفتديه بما هو أغلى من المال.

سيق أسرى بدر إلى يثرب ، فتأملهم الرسول ﷺ ملياً، ثم نحى عنهم صهره أبا العاص بن الربيع وفرق الباقين بين أصحابه وقال : « استوصوا بالأسارى خيراً ».

وبقي أبو العاص عند النبي ﷺ حتى جاءت رسل قريش في فداء أسراهم، وغالوا في الفداء حتى إن المرأة لتسأل عن أغلى ما فدى به قرشي، فيقال لها: أربعة آلاف درهم، فتبعث بمثلها في فداء ابنها، أو زوجها، أو أبيها[1].

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ٢:٣١٦، وانظر الطبري حوادث السنة الثانية للهجرة، وانظر الطبقات الكبرى لابن سعد ٢:١١.

وأرادت زينب رضي الله عنها أن تفدي زوجها، فأرسلت عمرو بن الربيع إلى النبي ﷺ وبعثت معه صرة، لا يعرف عمرو ما فيها.

وتقدم عمرو أخو أبي العاص فقال للنبي ﷺ:

بعثتني زينب بنت محمد بهذا في فداء زوجها، أخي، أبي العاص بن الربيع[1].

وأخرج من ثيابه صرة قدمها إلى المصطفى ﷺ فإذا فيها قلادة من جزع ظفار ـ بلد باليمن

ولم يكد النبي ﷺ يراها حتى رق قلبه لها رقة شديدة وتحقق أنها لخديجة وأنها لذكرى للعزيزة خديجة الراحلة، وكأني بالحبيب وقد طاف بذاكرته في مكة حيث يرقد جثمان الطاهرة في ـ الحجون ـ وحيث تلك الأيام المواضي التي تحملت معه فيها أشد الأيام، وصبرت معه وصبرته على مايلاقي من شدة قومه وأذاهم.

لقد كانت هذه القلادة لخديجة رضي الله عنها، وقد أهدتها إلى ابنتها زينب رضي الله عنها يوم عرسها حين زفتها إلى أبي العاص، ابن خالتها هالة.

وأطرق الصحابة رضوان الله عليهم خشعاً وقد أخذوا بجلال الموقف: انه موقف متشابك العواطف متلاطم الذكريات، يموج بالدموع، قلادة الحبيبة الغائبة، تبعث بها بنت النبي ﷺ إلى أبيها، فداء زوجها الحبيب.

وهي تستدر عاطفة أبيها بذكريات عزيزات على نفسه ونفسها، وتحاول أن

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ١: ٣١٧، والاستيعاب والإصابة في ترجمة أبي العاص بن الربيع.

تحدثه من خلال قلادة الأم الغائبة، أن تستشفع بها لدى الزوج والأب والصهر.

وتكلم المصطفى ﷺ بعد فترة صمت، فقال في حنان الأب العطوف والنبي الرحيم «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا».

قالوا: نعم يا رسول الله.

وأدنى النبي ﷺ إليه صهره الذي غلبه التأثر لهيبة الموقف، فأسر إليه المصطفى ﷺ حديثاً، لم يعلم من حوله ما هو، فحنى أبو العاص بن الربيع رأسه موافقاً، ثم حيا المصطفى ﷺ ومضى، فلما أبعد، التفت النبي ﷺ إلى أصحابه من حوله، فأثنى على أبي العاص بن الربيع خيراً وقال: «والله ما ذممنا صهراً»[1].

وانتظرت زينب زوجها الغائب، فقد كانت نعم الزوجة، فلما رأت أن تفديه فدته بأغلى ما تملك، وهي بهذا تضرب مثالاً ناصعاً للمؤمنات في الحرص على الزوج.

فالإسلام لم يكن قد فرق بينها وبين زوجها بعد، وهو ابن خالتها هالة وزوجها، وقد خرج مشركاً محارباً ضد صهره ـ أبيها ـ وضد المسلمين.

ولكن زينب رضي الله عنها، كانت ترى في أخلاقه أنها أخلاق إسلام، وأنه قريب من الإسلام.. وعلمت ببصيرة المؤمنة أن هدايته قادمة وإن طال بها الوقت.. وعليها أن تسعى بكل الطرق ليظل زوجها.

ودخل أبو العاص على زوجته، فوثبت إليه فرحة، وقامت إليه مرحبة مهنئة

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ٢: ٣١٧، وانظر طبقات ابن سعد ٨: ١٣، وانظر تاريخ الطبري ٢: ٢٩١، وانظر الاستيعاب في معرفة الأصحاب ٤: ١٧٠١، وقد أخرج بنحوه مسلم في كتاب الفضائل حديث رقم ٢٤٤٩-٤.

بسلامته، واتجهت إلى الله سبحانه وتعالى تحمده أن رده إليها سالماً، وتضرعت إلى الله تعالى في بكاء أن يهديه ويشرح صدره للإسلام.

ولكنها وجدت وجوماً بادياً على وجه الزوج العائد، وسألته زينب عما به، وحاولت أن تسري عنه ما ألم به، إنه زوج محب لها. وهي تذكر له بكل فخر، يوم تمسك بها متحدياً قريشاً في مساومتها لأصهار محمد ﷺ ليردوا إليه بناته ليشغلوه بهن عن أمر الدعوة، وقد استجاب لمساومتهم زوجا أختيها رقية وأم كلثوم فرداهما إلى أبيهما، وأما أبو العاص فتركهم يقولون: فارق صاحبتك ونحن نزوجك أي امرأة من قريش.

ثم صدمهم برده الذي ما يزال يتردد على لسان زينب ولاتنساه ذاكرتها أبداً؛ والله إني لا أفارق صاحبتي، وما أحب أن لي بامرأتي امرأة من قريش[1].

ماذا بك يا ابن الخالة؟

أجاب أبو العاص بن الربيع: جئتك مودعاً يازينب!

واختنقت كلماته بدموع متحجرة في العيون.

فقالت له: هل أثرت عليك قريش هذه المرة، وأجبرتك على أن تفارقني.

لماذا استجبت لهم هذه المرة، لقد تمسكت بي منذ عدة سنوات؟!

وصمت أبو العاص لا يستطيع أن يرد عليها، إنه الفراق الأبدي بينه وبين من أحب إذا لم يسلم.

فاستحثته على أن يتكلم، وأن يفصح عما يخفي في قلبه، ويرحم هواجسها، وأدرك الزوج الحبيب ما يدور في قلب الزوجة الحبيبة من

---

(١) السيرة ٢:٣٠٨، وانظر الإصابة في تمييز الصحابة، والاستيعاب في معرفة الأصحاب ترجمة «أبي العاص بن الربيع».

هواجس فبادرها في حنو وكأنما ذاب قلبه في صوته :

رحماك يا حبيبة إن أباك هو الذي طلب مني أن أردك إليه، فقد فرق الإسلام بيني وبينك، وقد وعدته أن أدعك تسيرين إليه، وما كنت لأنكث عهدي.

وجلست زينب فقد أصابها الإعياء، ولكن فرحة غامرة اجتاحت قلبها، فسوف تهاجر إلى أبيها، وإلى أختيها، وسوف تلقى نظرة على قبر أختها الراحلة رقية وسيكون عيشها بين مجتمع المؤمنين في المدينة، وتلتقي مع المهاجرين الذين هجروا بيوتهم ووطنهم، وانتشت بهذه الفرحة الغامرة الطارئة وسألت : كم من الوقت بقي لنمضيه سوياً؟

أجابها أبو العاص في صوت واهن تخنقه العبرات : ليس بالكثير ما هي إلا أيام قليلة تتجهزين فيها للسفر . . وتمضين.

سألت ملهوفة : وحدي؟!

أجابها : لا في صحبة زيد بن حارثة ومعه صاحب من أنصار أبيك وسوف ينتظرانك عند بطن يأجج على بعد ثمانية أميال من مكة حتى تمري بهما فيصحباك إلى أبيك بيثرب، وقد وعدته ولن أُخلف وعدي[1].

وسألت زينب متلهفة : ألا ترافقني إلى دار الهجرة؟!

قال : كلا يا ابنة الخالة . . وأمسك دموعه وخرج من البيت.

وأدركت زينب أن الله تعالى قد أمر بهذا الفراق وما عليها إلا أن تمتثل لأمر ربها، وتنتظر الأيام حتى تأتي بالفرج.

وأخذت تتهيأ للسفر، ولما كان غداة موعد سفرها، قابلتها هند بنت عتبة التي روعها مصابها في يوم بدر، ولم يخف على هند بذكائها اللماح أن زينب

---

(١) السيرة الهاشمية ٢ : ٣٠٨، وتاريخ الطبري ٢ : ٣٩١.

إنما تتجهز لتلحق بأبيها، لكنها أرادت أن تستوثق من الأمر، فدنت منها، وقالت متلطفة: يا بنت محمد: بلغني أنك تريدين اللحاق بابيك؟

وتحيرت زينب، ولم تعرف بماذا تجيب، وأضافت هند قائلة:

أي ابنة عمي، إن كانت لك حاجة بمتاع مما يرفق بك في سفرك فإن عندي حاجتك، فلا يدخل بين النساء ما يدخل بين الرجال.

ولمست هذه الكلمات الرقيقة قلب زينب رضي الله عنها، وهمت أن تخبرها بموعد هجرتها القريب، ولكنها شعرت بما يشبه الخوف، فموقفها في تأجيج نار الحقد والثأر في قريش واضح بين لا لبس فيه.

وقالت زينب: والله ما أراها قالت ذلك إلا لتفعل، ولكني خفتها فأنكرت أن أكون أريد اللحوق بيثرب[1].

وحل الموعد، وودعت زينب أبا العاص بن الربيع وداعاً حاراً، وداع محبة غير قالية ولا هاجرة، خاصة وأن في أحشائها جنيناً يربط بينهما.

ولم يستطع أبو العاص أن يمضي بزينب إلى المكان المحدد، فقد تخونه عواطفه، وينهار أمامها باكياً فيزيد من آلام فراقها، وأنه يتألم كما يتألم، ولكنه آثر أن يكبح جماح نفسه، وينفرد بها بعيداً عنها، ويتلفع بحزنه وحده دونها، حرصاً على مشاعرها الغالية.

وترك أخاه كنانة بن الربيع يمضي بزينب إلى حيث ينتظر زيد بن حارثة وصاحبه. وانطلق كنانة يقود بعيرها نهاراً جهاراً أمام قريش، وعلى مسمع ومرأى منهم، وقد أعد قوسه وكنانته متأهباً، لأي هجوم أو مضايقة.

وهال قريشاً ان تخرج بنت محمد ﷺ هكذا في تحد سافر لهم ولمشاعرهم، فخرج رجال منهم في أثر المهاجرة العظيمة وأسرعوا السير

---

(١) انظر المرجعين السابقين: ابن هشام ٢:٣٠٨، والطبري ٢:٣٩٢.

حتى أدركوها في مكان يقال له «ذو طوى» وكان أسبقهم إليه الأنكد هبار بن الأسود الأسدي الذي جن جنونه حزناً على فقد ثلاثة أخوة له صرعوا جميعاً يوم بدر بأيدي المسلمين أصحاب محمد ﷺ[1].

وروع الكافر الذي فقد كل معاني الإنسانية، روع المؤمنة المهاجرة بالرمح، ثم نخس البعير الذي ألقى براكبته على صخرة هناك، فوقعت على ظهرها.

وهنا وقف كنانة دونها ونثر كنانته وهو يزأر:

والله لا يدنو رجل مني إلا وضعت فيه سهماً.

فرجع الجبناء المطاردون، ووقف أبو سفيان بعيداً يقول لكنانة كف عنا نبلك حتى نكلمك.

فكف كنانة وتقدم أبو سفيان حتى دنا منه وقال:

إنك لم تصب يا ابن الربيع: خرجت بالمرأة على رؤوس الناس علانية وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا وما دخل علينا من محمد، فيظن الناس أن ذلك عن ذل أصابنا، وأن ذلك منا ضعف ووهن، ولعمري ما لنا بحبسها عن أبيها من حاجة، ولكن ارجع بالمرأة حتى إذا هدأت الأصوات وتحدث الناس أن قد رددناها، فتسلل سراً فألحقها بأبيها[2].

وكبر على كنانة أن يردها ليعود فيتسلل بها سراً بعد أن يذاع في الناس أن قد ردتها قريش، لولا أن سمع توجعها وتألمها، فالتفت إليها فراعه أن رآها تنزف دماً، وقد طرحت على أثر وقوعها جنينها على أديم الصحراء.

وعاد بها إلى مكة مرة أخرى، حيث كان أبو العاص بن الربيع إلى جانبها

---

(١) السيرة ٢: ٣٦٦.

(٢) سيرة ابن هشام ٢: ٣٠٩، وتاريخ الطبري ٢: ٣٩٣.

بعض الأيام لا يفارقها حتى تمالكت بعض قواها، فخرج بها كنانة مرة أخرى حتى أسلمها إلى زيد بن حارثة وهي تعاني من الإعياء بسبب الإجهاض الذي حدث لها.

ولم يتبعها أحد من الكفار المشركين الذين جن جنونهم بالأمس القريب بسبب خروجها فقد عيرتهم هند بنت عتبة بكلام مثل السهام قرعت به أسماعهم، وسخرت منهم به فقالت:

أمعركة مع أنثى عزلاء.. فهلا كانت هذه الشجاعة يوم بدر؟

وأنشدت تقول:

أفي السلم أعياراً، جفاء وغلظة وفي الحرب أشباه النساء العوارك

ورجع كنانة إلى أخيه أبي العاص بن الربيع بعد أن اطمأن عليها في صحبة زيد بن حارثة وصحبه، وعاد وهو يرفع صوته منشداً:

ولست أبالي، ما حييت، عديدهم وما استجمعت قبضاً يدي بالمهند[1]

وقلقت فاطمة الزهراء على أختها الكبرى زينب رضي الله عنهما، فقد تأخرت بضعة أيام، ولم تكن تعلم أن قريشاً قد خرجت في أثرها تريد بها شراً، ولم يكن قلقها مصدره زوجها أبو العاص بن الربيع فهو ابن خالتها هالة وهي تعلم خصاله النبيلة، وتعلم مدى حبه لأختها، وأنه من الشهامة بمكان لا يؤذي أختها أبداً.

وظلت فاطمة قلقة حتى وصلت زينب رضي الله عنها إلى المدينة، ومعها ابنها علي وابنتها أمامة.

وهُرعت فاطمة رضي الله عنها مسرعة للقاء الحبيبة الكبرى وقد هالها ما رأته من إعياء باد عليها، وأثر مرض يطوف على وجهها المشرب بالصفرة.

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ٢: ٣١٠، وانظر شرح السير في الروض الأنف ٧: ٦٨.

واستمعت مع أبيها رسول الله ﷺ، إلى ما لاقت أختها الكبرى رضي الله عنها من رجال قريش الأنكاد، واستمعا إلى موقف هند بنت عتبة المرأة التي نهرت الرجال وويختهم واستهزأت بهم، وموقفها من زينب رضي الله عنها.

وتعجبت فاطمة من هند وموقفها وهي تعلم من هي ومن زوجها أبو سفيان وموقفها الواضح من النبي ﷺ وخاصة بعد غزوة بدر الكبرى ومقتل أبيها وعمها.

وغضب الصحابة لما أصاب العقيلة الكريمة عند خروجها من مكة، وحملت الركبان إلى قريش قول شاعر الأنصار منذراً متوعداً:

أتاني الذي لا يقدر الناس قدره ... لزينب فيهـــــم من عقوق ومأثم

فأقســـمت لا تنفك منا كتائب ... ســـراةُ خميس في لهام مُسَوّم[1]

تروع قريش الكـفر حتى نعلها ... بخاطــــــمة فوق الأنوف بميسم

ننزلهم أكنـــــاف نجد ونخلةٍ ... وإن يُتهــموا بالخيل والرجل نُتهم

فأبلغ أبا ســــــفيان إما لقيته ... لئن أنت لم تخلص سجوداً وتسلم

فأبشر بخزي في الحياة معجل ... وســربال قار خـــالداً في جهنم[2]

وغضب الرسول ﷺ، وتحدثت بغضبه الركبان وتناقلوا ذلك إلى مكة.

وقد أمر الرسول ﷺ أصحابه أن يحرقوا بالنار الرجلين الآثمين ـ هباراً وزميله ـ إذا هم ظفروا بهما لكنه ﷺ لم يكد يخلو إلى نفسه ويتدبر ما كان من أمره بإحراق الرجلين حتى رأى أنه جاوز فيهما ما يحق لمثله من الحلم فلما تنفس الصبح بعث إلى أصحابه مسترجعاً ما سبق من أمره، ومستبدلاً بالإحراق عقوبة القتل.

---

(١) سراة: سادة، والخميس: الجيش،واللهام: الكبير، والمسوم: المعلم بعلامة.

(٢) السيرة الهاشمية ٢: ٣١٠.

حدث أبو هريرة رضي الله عنه قال:

بعث رسول الله ﷺ سرية أنا فيها، فقال إن ظفرتم بهبار بن الأسود أو الرجل الآخر الذي سبق معه إلى زينب - سماه ابن إسحاق فقال: هو نافع بن عبد قيس - فحرقوهما بالنار.

فلما كان الغد بعث إلينا فقال: إني كنت أمرتكم بتحريق هذين الرجلين إن أخذتموهما، ثم رأيت أنه لا ينبغي لأحد أن يعذب بالنار إلا الله، فإن ظفرتم بهما فاقتلوهما[1].

وعاشت زينب الكبرى في بيت أبيها ﷺ مع أختها أم كلثوم رضي الله عنهما، ولم تكن الزهراء رضي الله عنها ببعيدة عنهما، فكل البيوت كانت متقاربة، واللقاءات كانت كثيرة.

وتسامرت الأخوات، وسكبت زينب رضي الله عنها دمعة على أختها الغائبة رقية رضي الله عنها وترحمت عليها.

وبدأت زينب تبرأ من آلامها التي حدثت لها بسبب الإجهاض الذي حدث لها، وأخذت ترعى ابنها علياً وابنتها أمامة، وتنشّئهما تنشئة إسلامية منذ الصغر.

*****

(١) تراجم سيدات بيت النبوة ص٥٢٩عن ابن إسحاق في السيرة ٢: ٣١٢.

زواج الزهراء رضي الله عنها

وكأني بالزهراء العفيفة الحبيبة وقد أحست بأن والدها المصطفى ﷺ قد أكرمه الله بالزواج بهذه الإنسانة الفاضلة الصديقة بنت الصديق التي آنسته وملأت عليه المنزل، ولم تعد قلقة عليه كما كان الحال في سابق الأيام بل اطمأن قلبها وسكن روعها واستراحت نفسها وأحبت السيدة عائشة رضي الله عنها التي كانت لها أيضاً نعم الرفيق والأنيس، وبدأ تحرك ابن العم علي بن أبي طالب رضي الله عنه الذي أخذ يقترب من رسول الله ﷺ ويحاول أن يفاتحه في الموضوع، وقد كانت الزهراء لاهية عن أي رغبة أو فكرة للزواج في السابق فقد شغلتها الأحداث العظام عن أي تفكير آخر وتوالت الحوادث وهي قريبة من الأب الحبيب لا تفكر في غيره ولا تهتم إلا بأمره ولا يعنيها شأن غير شؤونه.

وبعد أن تزوج والدها رسول الله ﷺ عائشة بنت الصديق، بدأ يصل إلى مسامعها تقرب علي بن أبي طالب إلى رسول الله ﷺ مبدياً رغبته في الزواج بها، وهو ليس بغريب.

لقد تربى معها في بيت واحد، بعد أن أخذه النبي ﷺ وهو صغير ليخفف مؤونة العيال عن عمه أبي طالب، وليرد له جميل صنيعه معه حين تكفل بتربيته بعد وفاة جده عبد المطلب.

وعلي بن أبي طالب صاحب تاريخ مشرف منذ أن وعى الحياة، فهو لم يسجد لصنم، وهو أول من آمن من الصبيان والفتيان، وهو أول فدائي في الإسلام، فقد رضي أن ينام في فراش النبي ﷺ ليلة هجرته، وهو يعلم أن

قريشاً قد أجمعت على قتله واختارت من كل قبيلة فتى جلداً.

وقد أبلى بلاء حسناً في غزوة بدر، وأظهر من البطولات ما لم يظهره إلا القليلون في تلك المعركة.

ثم ما أن وصل علي بن أبي طالب كرم الله وجهه مهاجراً إلى المدينة، حتى أخذ رسول الله بيده وقال قولته المشهورة: «هذا أخي»[1].

وبقوله هذا، قد منع الأنصار الأطهار أن يتسابقوا لشرف استضافته والفوز بأن يكون أخا لأحدهم، وأي شرف هذا الذي ناله علي كرم الله وجهه أن يكون أخا في الله لأشرف الخلق أجمعين، ولماذا خصه النبي ﷺ بهذا الشرف دون غيره من كبار الصحابة والمؤمنين، وفيهم من يضرب المثل به في الإيمان، وعلى سبيل المثال: أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فقد كان أول المسلمين من الرجال، وصديق الرسول ﷺ الأثير عنده، ورفيقه في هجرته المباركة إلى يثرب!!

لعل في اختيار النبي ﷺ لعلي أن يكون أخا له، سراً سوف توضحه الأيام.

ولعل علياً رضي الله عنه، كان ينتظر حتى تحين له فرصة مواتية مسعفة يستطيع فيها أن يعرف إن كانت الزهراء تقبل الانتقال من بيت أبيها إلى بيت الزوجية وهو أكثر الناس معرفة بمدى تعلقها بأبيها.

وطال انتظاره بضع سنين حتى إذا دخل ﷺ بعائشة رضي الله عنها، خامره الرجاء في تحقيق رغبته، لكنه ظل محجماً فترة، لأنه لا يدري بم يمهرها، وليس في يده مال، ثم زاد إحجامه، حين بلغه أن أبا بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ قد طلبا يد الزهراء، فردهما أبوها ﷺ في رفق بالغ[2].

---

(١) ابن هشام ٢: ١٥٠، والاستيعاب ٣: ١٠٨٩ والترمذي (٣٧٢٠) وقال حسن غريب.
(٢) انظر الطبقات الكبرى لابن سعد ٢: ١٩، وسنن النسائي باب ٢٦ كتاب النكاح

أما عن خطبة أبي بكر الصديق وعمر رضي الله عنهما لفاطمة الزهراء رضي الله عنها فقد قال أنس رضي الله عنه: إن عمر أتى أبا بكر فقال:

ما منعك أن تتزوج فاطمة بنت رسول الله ﷺ؟

قال أبو بكر - رضي الله عنه - لا يزوجني!

قال عمر: إذا لم يزوجك فمن يزوج؟! وإنك من أكرم الناس وأقدمهم إسلاماً.

فانطلق أبو بكر إلى عائشة - رضي الله عنهما - فقال:

إذا رأيت من محمد ﷺ طيب نفس بك وإقبالاً عليك فاذكري له: أني ذكرت فاطمة فلعل الله أن ييسرها لي.

فرأت منه إقبالاً وطيب نفس فذكرت ذلك.

وجاء في أسد الغابة أنه لما خطبها أبو بكر وعمر فردهما النبي ﷺ وقال لكل منهما «انتظر القضاء».

كان أبو بكر أول من عرض إلى خطبة الزهراء رضي الله عنها فرده الصادق رداً جميلاً مقنعاً قائلاً: يا أبا بكر لم ينزل القضاء بعد. وقد سمع عمر فتقدم إلى النبي ﷺ بما تقدم إليه رفيقه وصاحبه فأعاد عليه الجواب نفسه وعندئذ ذهب أبو بكر وأبو حفص إلى عبد الرحمن بن عوف يطلبان منه الخطبة. وقالا له: أنت أكثر قريش مالاً فلو أتيت رسول الله ﷺ فخطبت فاطمة زادك الله مالاً إلى مالك وشرفاً إلى شرفك.

فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله زوجني فاطمة فأعرض عنه رسول الله ﷺ. فأتاهما فقال: قد نزل بي مثل الذي نزل بكما.

هذا ما كان يفكر به الشيخان - أبو بكر وعمر رضي الله عنهما - لذلك كانا يرغبان رغبة ملحة في معرفة تلك الشخصية العظيمة القريبة من الله الحبيبة

إلى رسول الله ﷺ فتوجها إلى علي كرم الله وجهه لأنهما يعرفان منزلته الرفيعة عند الله والرسول ـ وقالا له: قد عرفنا قرابتك من رسول الله ﷺ وقدمك في الإسلام فلو أتيت رسول الله فخطبت إليه فاطمة لزادك الله فضلاً إلى فضلك وشرفاً إلى شرفك[1].

وقال غيرهما من أصحاب الرسول ﷺ كما روى ذلك أنس بن مالك لعلي «لو خطبت إلى النبي لخليق أن يزوجكها»[2].

وفي يوم اجتمع الصديق والفاروق وسعد بن معاذ رضوان الله عليهم في مسجد الرسول ﷺ فتذاكروا أمر فاطمة رضي الله عنها، فقال أبو بكر: قد خطبها الأشراف فردهم رسول الله ﷺ وقال: «أنتظر فيها أمر القضاء».

وتتجلى الروح الإيمانية التي ترفرف بين جنبي المسلم في موقف أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه، حين ذهبا إلى علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه ووقالا له: اذهب فاخطب فاطمة. إنها أخلاق المسلمين التي تقوم على حديث المصطفى ﷺ: «أحب لأخيك ما تحب لنفسك». وأخذا يذكرانه بمكانته في الإسلام وعند النبي ﷺ، كدافع له يحفزه على السرعة في الإقدام على خطبة الزهراء.

وكان لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه جارية، قالت له محفزة مشجعة: لقد علمت أن فاطمة تخطب. فما يمنعك أن تأتي ابن عمك رسول الله ﷺ فيزوجك.

قال علي مستنكراً هذا الأمر: وهل عندي ما أتزوج به؟

---

(١) كفاية الطالب لأبي عبد الله محمد بن يوسف الكنجي الشافعي عن المرجع السابق ص ١٣٤.

(٢) المرجع السابق ص ١٣٤.

إنه يتمنى . . ولكن لا يمنعه إلا أنه لا يملك ما يقدمه لفاطمة .

وبعد تردد يتشجع علي كرم الله وجهه ويأخذ طريقه إلى ابن عمه رسول الله ﷺ، ويحمل بين جنبيه الرغبة في طلب فاطمة الزهراء رضي الله عنها . حتى إذا جاء المصطفى ﷺ حياه بتحية الإسلام . ثم جلس قريباً منه على استحياء ، لا يذكر حاجته ، ولم يستطع الكلام جلالة وهيبة لرسول الله ﷺ .

وأدرك النبي ﷺ ما يعانيه ابن عمه وأخوه وصاحبه ، فقد جاء لأمر لا يقوى على الإفصاح عنه ، فأقبل عليه المصطفى ﷺ يسأله في رفق وتلطف :

ما حاجة ابن أبي طالب؟

أجاب بصوت خفيض وهو يغض بصره :

ذكرت فاطمة بنت رسول الله ﷺ .

قال ﷺ وما يزال على بشره وتلطفه : « مرحباً وأهلاً »[1] .

وفي رواية قال : « هي لك يا علي »[2] . ثم أمسك الرسول ﷺ ولم يزد .

وطال صمت الفتى ، وطال صمت النبي ﷺ، فعلي قد وقع بين فرط الخجل ، وشدة الفقر ، فليس عنده ما يتزوج به إلا عميق إيمانه بالله تعالى وحبه للمصطفى ﷺ .

والرسول ﷺ يريد منه أن يتكلم حتى ينهي الأمر معه ، ويخرجه من القلق الذي يحيا فيه .

وطال صمتهما ، فانصرف علي قلقاً ، لا يدري بم يجيب أهله وأصدقاءه الذين كانوا في انتظاره ، يترقبون عودته بكلمة أبي الزهراء ﷺ، فلما ألحوا عليه قال علي رضي الله عنه :

---

(١) طبقات ابن سعد ٨ : ١٩ ، والاستيعاب في معرفة الأصحاب ٤ : ١٨٩١ .

(٢) طبقات ابن سعد ٨ : ١٩ ، ٢١ .

ما أدري والله شيئاً: تحدثت إلى رسول الله ﷺ بالأمر، فما زاد على قوله «مرحباً وأهلاً».

فهتفوا جميعاً: يكفيك من رسول الله ﷺ إحداهما.

ثم تركوه وقد اطمأنوا عليه[1].

ما قاله الأهل والأحباب لعلي كرم الله وجهه جعله يترقب بزوغ الصباح بصبر نافد، وذهب إلى المصطفى ﷺ، وقد استجمع كل نفسه فقال رضي الله عنه:

فداك أبي وأمي يارسول الله، إنك لتعلم أنك أخذتني من عمك أبي طالب، ومن فاطمة بنت أسد، وأنا صبي لا أعقل شيئاً، فهديتني وأدبتني وهذبتني، فكنت أفضل من أبي طالب وفاطمة بنت أسد في البر والشفقة بي، وإن الله عز وجل هداني بك، واستنقذني مما كان عليه آبائي وأعمامي من الشرك، وإنك يا رسول الله ذخري ووسيلتي في الدنيا والآخرة وقد أحببت مع ما شد الله عز وجل بك من عضدي أن يكون لي بيت وزوجة أسكن إليها، وقد أتيتك خاطباً ابنتك فاطمة، فهل تزوجني يا رسول الله؟

فتهلل وجه النبي ﷺ، ثم تبسم في وجه علي وقال:

هل عندك شيء يا علي؟ وفي رواية: يا علي هل معك شيء تصدقها.

قال علي كرم الله وجهه: لا يا رسول الله، والله ما يخفى عليك حالي، ولا شيء من أمري، غير سيفي وناضحي.

قال رسول الله ﷺ: فأين درعك التي أعطيتك يوم كذا؟

قال علي كرم الله وجهه تقصد درعي الحطمية[2]، هي عندي يا رسول الله.

---

(١) انظر تراجم سيدات بيت النبوة ص٦٠٥-٦٠٦ بتصرف.

(٢) الحطمية: هي الدرع التي تحطم السيوف أي تكسرها, وقيل: هي العريضة =

قال رسول الله ﷺ: فأعطها إياها[1] فانطلق علي كرم الله وجهه مسرعاً، وجاء بالدرع، فأمره ﷺ أن يبيعها ليجهز العروس بثمنها[2].

وتقدم عثمان بن عفان رضي الله عنه فاشتراها، بأربعمائة وسبعين درهماً، حملها علي كرم الله وجهه ووضعها أمام المصطفى ﷺ، فتناولها بيده الكريمة ثم دفعها إلى بلال ليشتري ببعضها طيباً وعطراً.

وفي رواية قال علي كرم الله وجهه للنبي ﷺ حين سأله: وهل عندك شي!

قال: ما أملك غير درعي وسيفي وناضحي.

فقال له رسول الله ﷺ: «أما سيفك فلا غنى لك عنه، تجاهد به في سبيل الله، وأما ناضحك: فتنضح عليه لأهلك، وتحمل عليه رحلك في سفرك، ولكن زوجتك على درعك».

وجاء في أنساب الأشراف للبلاذري: فباع عليٌّ بعيراً له ومتاعاً فبلغ من ذلك أربعمائة وثمانين درهماً، ويقال: أربعمائة درهم، فأمره أن يجعل ثلثيها في الطيب وثلثها في المتاع، ففعل.

كانت هذه هي خطبة فاطمة بنت رسول الله ﷺ الهاشمية القرشية، وكان هذا هو مهر فاطمة الزهراء رضي الله عنها، درع حطمية. وقد وفقها الله إلى هذا الفتى الشجاع البطل العالم النقي الذي كرم الله وجهه.

فالمرأة تنكح لأربع، لجمالها ولمالها ولحسبها ولدينها، ومن يظفر بذات الدين يجد ما ينبغي ويتمنى، والرجل يزوج لدينه وخلقه، فإذا جاء خاطباً من ترضى الفتاة دينه، وخلقه، فتتزوجه ولا ترده، بالمناسب من المهر، دون أن

= الثقيلة، وقيل: هي منسوبة إلى بطن من عبد قيس يقال لهم: حطمة بن محارب كان يعمل الدروع.

(١) طبقات ابن سعد ٢: ٢٠.

(٢) صحيح البخاري كتاب البيوع، ومسند أحمد ١: ١٤٢.

يستدين الشاب المقبل على الزواج، ولا يحس بإرهاق.

إنه مثل لا تدانيه أمثال، يضربه لنا المصطفى ﷺ ليكون عبرة على مر الأيام والدهور، مثل يضربه بأعز بناته وأحبهن إليه بفاطمة الزهراء، سيدة نساء العالمين.

الوالد رسول الله ﷺ، يفاتح الشاب بما أدركه في نفسه، ويهون عليه صعوبة الموقف، والوالد يختار لابنته من هو كفء لها، ويرد أبا بكر وعمر رضي الله عنهما رداً جميلاً رقيقاً، وأبو بكر لا يغضب، وعمر لا يغضب رضي الله عنهما، بل يسيران إلى علي ويقنعانه أن يخطب فاطمة..

وفاطمة من هي في مكانتها، ومن هي في منزلتها، ومن هي في تربيتها تقبل الدرع مهراً لها.

وقد اختلفت الروايات في تعيين زمن الخطبة، وان كانت معظم المصادر تجمع على أنها تزوجت وهي في سن الثامنة عشرة، فيكون زواجها في السنة الثانية من الهجرة إذا سلمنا أنها ولدت سنة بناء الكعبة قبل المبعث بخمس سنوات، ثم إن سنوات النبوة في مكة كانت ثلاث عشرة سنة بما فيها سنة الهجرة، فيكون زواجها في السنة الثانية من الهجرة، أما تعيين زمن الخطبة فمختلف فيه فقد قيل في شهر رجب من مقدمهم المدينة، وقيل بعد مقدم المدينة بخمسة أشهر، وتم الزواج بعد الرجوع من غزوة بدر بشهرين(١).

ولابد أن نقف هنا لحظة عند موضوع استشارة الرسول ﷺ ابنته فاطمة وأخذ موافقتها على هذا الزواج فهل أخذ النبي ﷺ موافقة ابنته الزهراء، أو اكتفى هو بتزويجها.

إن السكوت عن هذا الأمر يفهم منه أن النبي ﷺ قد استشارها، لأنه رد

---

(١) انظر طبقات ابن سعد ٨: ٢٣.

نكاح فتيات لم يؤخذ رأيهن في الزواج فكيف يشرع ولا يقضي بما شرع به .

وكان من عادة النبي ﷺ في زواج بناته كما جاء في مسند الإمام أحمد بن حنبل أن يقول لها : فلان يذكرك ، فإن سكتت أمضى الزواج ، وإن نشرت الستر علم أنها تأباه .

وهكذا تم الزواج المبارك الميمون بين أحب البنات إلى قلب الرسول الكريم وكل بناته حبيبات وبين أحب الشباب المسلم إلى قلبه وهو محب لكل المسلمين وبالمؤمنين رؤوف رحيم .

وزفت الزهراء البتول إلى البطل المغوار وسيف الله المسلول علي بن أبي طالب ، وأخرج الله منها الذرية الصالحة والعترة المباركة وكرمهم الله وأكرمهم وقال في حقهم : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ .

وجعله نسباً متصلاً غير منقطع وأوصى به ووصى عليه فهنيئاً لمن يكرم آل البيت الكرام فهم العترة الطاهرة التي قال عنها رسول الله ﷺ : « إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي وإنهما لن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض »[1] .

---

(١) رواه مسلم.

المهر والجهاز الذي أعد للعروس

لقد دفع علي كرم الله وجهه أربعمائة وسبعين درهماً على أرجح الأقوال، أخذها النبي ﷺ ودفعها إلى بلال رضي الله عنه، ليشتري ببعضها طيباً وعطراً، ثم يدفع الباقي إلى أم سلمة رضي الله عنها لتشتري جهاز العروس.

ولم يكن الرسول ﷺ تزوج في هذه الأثناء بأم سلمة لأن فاطمة الزهراء رضي الله عنها تزوجت بعلي كرم الله وجهه في نهاية السنة الثانية من الهجرة. أما زواج المصطفى ﷺ بأم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها، فقد كان في السنة الرابعة من الهجرة على أرجح الأقوال[١].

وأخذ سيدنا علي كرم الله وجهه بيتاً متواضعاً ليبدأ فيه رحلة الطهر والعفاف والنور في صحبة بنت المصطفى ﷺ.

وأعد بيته، الذي سوف يستقبل فيه بنت أشرف الخلق، فكان حجرة فرشت بالرمل الناعم، وفراش حشوه ليف، ووسائد حشوها ليف أيضاً، وإهاب شاة للجلوس عليه، ورحى يد[٢]، ومنخلاً، ومنشفة، وقدحاً، وقربة صغيرة لتبريد الماء، وحصيراً. هذا هو جهاز سيدة نساء الجنة، الطاهرة، الزهراء، أم أبيها، بنت المصطفى ﷺ وفي صحيح البخاري ومسلم أن فاطمة رضي الله عنها دخلت بيت زوجها بخميلة ووسادة أدم حشوها ليف ورحاءين وسقاءين وجرتين وشيء من العطر والطيب[٣].

---

(١) مسند الإمام أحمد ١: ٩٣، ١٠٤، ١٠٨، وسنن النسائي كتاب النكاح باب ٨١.

(٢) الرحى حجران مستديران يدار أحدهما فوق الآخر يستخدمان لطحن الحبوب.

(٣) صحيح البخاري ٦٩- ٦، ٧، ومسلم كتاب ٤٨ص٨٠ وفي الإصابة٨: ١١٦٠.

الزفاف

جاء الموعد المتفق عليه للزفاف، وقد احتفل بنو عبد المطلب بهذا الزواج، فقد جاء حمزة رضي الله عنه -عم النبي ﷺ وعم علي كرم الله وجهه- بشارفين - جملين - فنحرهما وأطعم الناس.

وكانت وليمة في ذلك الزمان من أفضل الولائم على الإطلاق، فانها وليمة أول المسلمين من الفتيان، وبنت المصطفى ﷺ.

ولما انتهى الناس وفرغوا من الطعام أتى الرسول ﷺ ببغلته الشهباء، وثنى عليها قطيفة، وقال لفاطمة : اركبي، وأمر سلمان أن يقود بها[1] ومشى الرسول ﷺ خلفها، ومعه حمزة وبنو هاشم، مشهرين سيوفهم، وأمر بنات عبد المطلب ونساء المهاجرين والأنصار أن يمضين في صحبة فاطمة رضي الله عنه ـ وأن يفرحن ويرتجزن ويكبرن، ويحمدن ولا يقلن إلا ما يرضى الله.

فأنشأت أم سلمة ترتجز وتقول:

ســرن بعون الله جــاراتي	واشكرنه في كل حالات
واذكرن ما أنعم رب العلا	من كشـف مكروه وآفات
فقد هـــدانا بعد كفر وقد	أنعشـــنا رب السموات
ســرن مع خير نساء الورى	تفدى بعمـــات وخالات
يابنت من فضــله ذو العلا	بالوحي منه والرســالات

---

(١) لعله سلمان الفارسي رضي الله عنه فقد قال عنه النبي الكريم ﷺ: سلمان منا أهل البيت.

ثم أدخلها النبي ﷺ بيت علي، ثم قال: يا علي لا تحدثن لأهلك شيئاً حتى آتيك.

وأذن بلال رضي الله عنه لصلاة العشاء، فصلى النبي ﷺ بالمسلمين في المسجد، ثم انصرف الجميع، وسبقه علي إلى بيته ليكون في استقباله.

فلما دخل رأته النساء فذهبن، وتخلفت أسماء بنت عميس رضي الله عنها.

فقال ﷺ: على رسلك من أنت؟

قالت: أنا التي أحرس ابنتك، إن الفتاة ليلة زفافها لابد لها من امرأة قريبة منها إن عرضت لها حاجة، أو أرادت أمراً أفضت إليها به.

وكأني بالمصطفى ﷺ وقد تذكر الأم الرءوم خديجة أول المؤمنات، فقد كانت نعم الزوجة الأم وخير ناصرة ومؤيدة ومدثرة ومزملة رضي الله عنها وأرضاها. وكذلك فاطمة وهي جالسة في ركن من أركان البيت متعففة ويكسوها ماء الحياء، تذكرت الأم وبعدما سمعت كلمة «أسماء بنت عميس» رضي الله عنها، بكت عيناها دمع الحنان على الأم الراقدة في الحجون.

ودعا الرسول ﷺ لأسماء بنت عميس رضي الله عنها لموقفها من ابنته فقال:

أسأل إلهي أن يحرسك من بين يديك ومن خلفك، وعن يمينك وشمالك من الشيطان الرجيم ثم خرج بفاطمة من حجرتها.

وقال لأسماء آتيني بالمخضب فأمليه ـ إناء لشرب الماء ـ فأتت به أسماء فمج فيه، ثم دعا فاطمة فأخذ كفاً من ماء فضرب على رأسها وبين قدميها ثم التزمها فقال:

اللهم إنها مني، وإني منها اللهم كما أذهبت عني الرجس وطهرتني فطهرها.

ثم دعا بمخضب آخر فصنع بعلي كما صنع بالزهراء رضي الله عنها ثم قال : قوما جمع الله شملكما ، وأصلح بالكما ، ثم قام وأغلق عليهما الباب[1] .

وجاء في طبقات ابن سعد أن النبي ﷺ بعد صلاة العشاء مشى إلى دار علي كرم الله وجهه : فدعا بإناء فتوضأ ثم أفرغه على علي ثم قال :

« اللهم بارك فيهما وبارك عليهما وبارك لهما في نسلهما » فدعا بماء في إناء فغسل فيه يديه ثم نضح عليها من ذلك الماء ثم قال :

« والله ما ألوت أن زوجتك خير أهلي » فدعا بماء فمضمض ثم أعاده في الإناء ثم نضح به صدرها وصدره[2] .

وفي رواية أنه قال : اللهم إنهما أحب الناس إلي فأحبهما، وبارك في ذريتهما، واجعل عليهما منك حافظاً، وإني أعيذهما بك وذريتهما من الشيطان الرجيم، ودعا لفاطمة فقال : أذهب الله عنك الرجس وطهرك تطهيراً.

وفي رواية أخرى أنه ﷺ قال : « اللهم هذه ابنتي وأحب الخلق إلي ، اللهم وهذا أخي وأحب الخلق إلي ، اللهم اجعله لك ولياً، وبك حفياً، وبارك في أهله، ثم قال : يا علي ، ادخل بأهلك، بارك الله تعالى لك، ورحمة الله وبركاته عليك ، إنه حميد مجيد، ثم خرج من عندهما ، فأخذ بعضادتي الباب فقال : طهركما الله وطهر نسلكما ، أنا سلم لمن سالمكما وحرب لمن حاربكما ، استودعكما الله ، وأستخلفه عليكما ، ثم أغلق عليهما الباب بيده الكريمة .

وجاء في الطبقات أن النبي ﷺ قال لابنته :

---

(١) هذه الرواية رواها الطبراني بإسناد ضعيف.

(٢) طبقات ابن سعد ٢ : ١٥، والاستيعاب والإصابة .

يا فاطمة : والله ما ألوت أن زوجتك خير أهلي[1] .

فلم تملك فاطمة دموعها، فتمهل الأب برهة، وحنا عليها مهوناً عليها الأمر بأنه إنما تركها وديعة، عند أقوى الناس إيماناً وأكثرهم علماً وأفضلهم أخلاقاً وأعلاهم نفساً[2] .

وفي رواية أنه ﷺ قال : مالك تبكين يا فاطمة ؟ فوالله لقد أنكحتك أكثرهم علماً، وأفضلهم حلماً، وأولهم سلماً . ويعلق الأستاذ عباس محمود العقاد على بكاء السيدة الزهراء فيقول :

« فإذا كان للخبر الذي جاء في أنساب الأشراف للبلاذري أصل يعول عليه فأصله فيما هو مألوف ومعقول أن يكون النبي ﷺ قد وجد الزهراء باكية، وليس في ذلك غرابة، لأننا لا نتخيل فتاة في مثل موقفها لا يبكيها ما تثيره في نفسها ذكرى أمها ووداع بيت أهلها وخاصة أبيها، وقد فارقتها أمها وهي حبيبة صبية تدرك ما فقدته من عطفها وبرها في رخائها وعسرها، ثم يكون يوم الفصال في غربة من الأم، ومن البيت الذي لزمتها فيه، ومن البلد الذي يحتويه، فإن جهدنا أن نتخيل أن فتاة لا تبكي حين تحوم بنفسها تلك الذكريات وتقترب من اليوم الفاصل بين معيشتها في كنف أبيها، ومعيشتها في غير كنفه .

فموضوع الغرابة أن نتخيلها بعد الجهد غير باكية وغير آسية ولاسيما من كانت مثل الزهراء مجبولة على مزاج حزين وأسى دفين على أمها العزيزة لم يفارقها مدى السنين، ومثل النبي ﷺ الذي كانت كبرى فضائله أنه إنسان عظيم، وأنه كان أباً مكلوم الفؤاد، لن يفوته ذلك الخاطر في ذلك اليوم،

---

(١) طبقات ابن سعد ٨ : ٢٤ .

(٢) طبقات ابن سعد ٣ : ١٦ .

ولن يسكت عنه إلا عامداً عالماً بما يلعجه في النفس من الحزن والشجن، فمن اللطف بالفتاة الحزينة أن يتحاشاه وأن يجعل عزاءه لها ما قاله ﷺ : «مالك تبكين يا فاطمة فوالله لقد أنكحتك أكثرهم علماً وأفضلهم حلماً، وأولهم سلماً»[1].

انصرف النبي ﷺ من عند فاطمة الزهراء ـ رضي الله عنها، وطيف من خديجة يحوم حوله، وأطاف أيضاً بالعروسين رضي الله عنهما، ليؤنس ليلتها الأولى، يسرى عنها بعض ما تجد من وحشة لفراق الأب، وشجن لفراق الأم[2].

واستجاب الله لدعاء نبيه ﷺ في تلك الليلة السعيدة فكانت الزوجية المباركة التي شاء الله سبحانه أن تنحصر في ثمرها ذرية نبيه المصطفى ﷺ[3].

عاد المصطفى ﷺ إلى بيته ليجد ابنته أم كلثوم تجهش بالبكاء فقد أشعل زواج فاطمة ذكرى عزيزة على نفسها، وهي تذكر أمها الحنون، وما آلمها أنّ قبر الأم في مكة الكريمة، وابنتها لا تستطيع زيارة القبر الطاهر.

فسرى المصطفى ﷺ عنها، ولاطفها حتى ابتسمت وتمنت لأختها كل سعادة وهناءة وذهب عنها الحزن واطمأنت نفسها وباتت راضية سعيدة بحنان هذا الأب الإنسان الرحيم الذي بعثه الله رحمة للعالمين فكيف بألصق العالمين به عليه أفضل الصلاة والتسليم وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين.

*****

---

(١) فاطمة الزهراء والفاطميون. عباس محمود العقاد (بتصرف).

(٢) بنت الشاطىء. تراجم سيدات بيت النبوة ص ٦٠٨ بتصرف.

(٣) المرجع السابق.

فاطمة في بيتها

في ظل الرسول ﷺ انتظمت حياة سيدنا علي والسيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنهما، عيشة كفاف، وخدمة يتعاونان عليها راضيين بما آتاهما الله فرحين بهذا البيت الطيب الذي أخرج منه الله الأصلاب الطاهرة والذرية المباركة والعترة الكريمة فكان كشجرة طيبة مباركة.

ولم تكن حياتها رضي الله عنها مترفة ولا ناعمة، بل كانت أقرب إلى الخشونة والتقشف، وهي في ذلك تختلف عن حياة أخواتها اللواتي أتيح لهن حظ غير قليل من الثراء المادي.

فزينب رضي الله عنها تزوجت بأبي العاص بن الربيع رضي الله عنه، وهو معدود من أثرياء مكة، وتزوجت رقية وأم كلثوم واحدة بعد الأخرى بعثمان ابن عفان رضي الله عنه، وكان من أثرياء المسلمين.

أما علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، فلم ينل حظاً من المال المكتسب أو الموروث، إذ كان أبوه ـ أبو طالب ـ على عظم مكانته في قومه، وعلو شرفه في مكة كلها، قليل المال كثير العيال كريم الخصال جواداً ينفق ولا يبالي ويسارع إلى الخيرات ويسابق إلى المروءات، وقلة ماله دفعت ابن أخيه محمداً ﷺ أن يقترح على عمه العباس رضي الله عنه بأن يخففا من أعباء عمه أبي طالب فيأخذ كل واحد منهما أحد بنيه فيكفله، وكان علي كرم الله وجهه من نصيب المصطفى ﷺ، بل كان من نصيب علي كرم الله وجهه أن يختاره المصطفى ﷺ دون بقية إخوته.

وكان رزق علي كرم الله وجهه من وظيفة الجندي وعطائه من الجهاد

وفيئه، وكان يؤجر نفسه عند أهل المدينة، فيقوم بالسقي وغيره من الأعمال مقابل أجره.

والمعروف وكما ترويه كتب التراجم والسير أن الإمام علياً كرم الله وجهه كان فقيراً في المال ولم يستطع أن يستأجر لها خادماً تعينها أو تقوم عنها بالعمل الشاق، فكان على الزهراء رضي الله عنها أن تنفرد بهذا العبء الثقيل[1].

لكن علياً كرم الله وجهه لم يكن يهون عليه أن يراها هكذا كادحة مجهدة، فكان يحاول أن يساعدها في بعض أعمال البيت إذا ما مكنته ظروفه من ذلك.

إذ كان يخشى عليها ويحرص على رعايتها، وخاصة أنها عانت كثيراً في سنوات الحصار في شعب أبي طالب ومشقة الهجرة، وكانت كما وصفتها كتب السير نحيفة الجسد.

وناءت بالزهراء رضي الله عنها، كما ناء بالإمام علي كرم الله وجهه ما يحملان من مشاق الحياة ومتاعبها، فانتظر علي كرم الله وجهه فرصة مواتية يفيض الله تعالى بها عليهما.

وقد جاءت الفرصة فقد جاءت للنبي ﷺ من إحدى السرايا التي أخرجها في سبيل الله، غنائم كثيرة وسبايا، فأسرع علي كرم الله وجهه إلى بيته، فوجد فاطمة في غاية الإعياء من العمل المتواصل الشاق وخاصة من الرحى، فقال:

لقد سنوتُ حتى قد اشتكيت صدري، وقد جاء الله بسبي، فاذهبي فالتمسي واحدة تخدمك.

---

(١) طبقات ابن سعد ٨: ١٥٩.

أجابته وهي تنحي الرحى جانباً في تعب وكلال : « أفعل إن شاء الله »[1] .

ثم لبثت ساعة تستريح واستردت بعض قواها الذاهبة وقامت فتلفعت بخمارها تسعى إلى بيت أبيها بخطوات بطيئة وانية فلما رآها ﷺ هش لرؤيتها وسألها :

- ما بك يابنية ؟ !

- قالت : جئت لأسلم عليك .

ومنعها الحياء أن تسأله فيما جاءت من أجله[2] ، ثم عادت من حيث أتت ، لتنبىء زوجها أنها تحرجت من أن تطلب من أبيها شيئاً .

فقام معها علي كرم الله وجهه وصحبها إلى بيت النبي ﷺ ، ليتحدث معه بلسانها ، فتولى السؤال عنها ، وهي مطرقة من الحياء وغضت بصرها عن أبيها في استحياء ، فقال علي كرم الله وجهه : إنه يريد خادمة لفاطمة تعينها على عملها .

فقال ﷺ : لا والله ، لا أعطيكما وأدع أهل الصفة تتلوى بطونهم لا أجد ما أنفق عليهم ، ولكن أبيع ، وأنفق عليهم بالثمن .

فانصرف علي كرم الله وجهه والزهراء رضي الله عنها شاكرين ، وقد مست شكواهما قلب الأب الرحيم .

ومن هذا الموقف نلمح شيئين مهمين وهما :

أن الزهراء رضي الله عنها على الرغم من أنها بنت النبي ﷺ وأحب بناته إليه ، إلا أنها تعلم ما في سؤالها هذا من حرج ، فترددت كثيراً وخجلت خجلاً عظيماً .

---

(١) تراجم سيدات بيت النبوة ص٦١٤ بتصرف ، وانظر مسند أحمد ١ : ١٠٦ .

(٢) المرجع السابق .

وأن أموال المسلمين وما آتاهم الله من فضله، يجب أن تذهب لمن يستحقها من المسلمين، الأحوج وهكذا، ولعلها كانت ترى في نفسها، أو بعدما ذهبت إلى بيت أبيها ﷺ، ووجدت أصحاب الحاجات، فهان عليها تعبها وشقاؤها في حياتها، بجوار ما رأته.

وأيضاً لبت أمر زوجها، ولم تعصه في الذهاب إلى أبيها، لأنها تعلم أن طاعة الزوج واجبة ما لم يأمرها بمعصية. هذا هو الشيء الأول.

أما الشيء الثاني وهو أن الرسول ﷺ جاء بالعدل، وجاء رحمة للعالمين وخاصة بالمسلمين الفقراء الذين معه، الذين ضحوا بأموالهم وأنفسهم وتركوا أوطانهم في سبيل الله، وفي سبيل إرساء قواعد دولة الإسلام، ولم يكن يترك محتاجاً لطعام يقيم أوده، ويحفظ عليه حياته من الموت، أو رداء يحفظ عليه آدميته، ويعطي خادماً ـ حتى لو كان الذي يستحق هذا الخادم ابنته الزهراء رضي الله عنها ـ فالإسلام يسوي بين المسلمين، لا فرق بين ابنة النبي ﷺ، أو عمه، أو ابن عمه، وبين عامة المسلمين، وأن المحتاج أولى من الأقل حاجة والناس عنده سواسية كأسنان المشط.

وهكذا وقف الموقف الذي تقتضيه الأسوة وليس فوقه عدل ولا في مستواه فهو يمنع ابنته مما يعطي غيرها منه أو مثله ليبقى المثل الأعلى للأمة في كل موقف وهذا أعلى من المساواة وهذا يشبه موقفه من أزواجه حين سألنه التوسعة في النفقة فأبى لأنه أراد أن يكون وأزواجه المثل الأعلى في الزهد بالدنيا ﷺ ورضي الله عنهن.

ودخل الليل على الزوجين الكريمين رضي الله عنهما، وكان البرد قاسياً قارساً ثقيل الوطأة، شديد الأثر، فرقدا ـ رضي الله عنهما ـ على فراشهما سعيدين قانعين بما أكرمهما الله به من عيش وقد تعلما أن العيش عيش الآخرة.

وسمعا صوت طارق يدق الباب ففتح علي كرم الله وجهه وأقبل عليهما المصطفى ﷺ، فهبت فاطمة الزهراء رضي الله عنها، للقاء الضيف الكريم ﷺ مع زوجها، فابتدرهما ﷺ قائلاً: «مكانكما».

ثم أضاف في رفق وهو يقدر حالهما: «ألا أخبركما بخير مما سألتماني؟».

أجابا معاً: بلى يا رسول الله.

قال ﷺ: «كلمات علمنيهن جبريل: تسبحان الله دبر كل صلاة عشراً، وتحمدان عشراً، وتكبران عشراً، وإذا أويتما إلى فراشكما تسبحان ثلاثة وثلاثين، وتحمدان ثلاثة وثلاثين، وتكبران أربعاً وثلاثين»[1].

ثم ودعهما المصطفى ﷺ بعد أن زودهما بهذا المدد الإلهي، ولقنهما هذه الرياضة الروحية التي تغلب المصاعب، وتخفف المتاعب.

وهذه لمحة لطيفة من النبي ﷺ الأب الرحيم بأبنائه، فلم يكن يستطيع أن يعطي لابنته وزوجها شيئاً مما طلبا، فكان لابد من كلمة طيبة تطيب خاطرهما، وتعينهما على مصاعب الدنيا ومشاقها، وتدفع بنفسيهما الكريمتين إلى الأمام قدماً وليست هذه الكلمة من عنده بل قال: «كلمات علمنيهن جبريل» وهذا الهدي غير خاص بهما بل تعليم لكل الأمة.

وهذا جانب من جوانب الطب النبوي للنفوس، وهو العلاج عن طريق الاهتمام بالإنسان، وإشعاره بأنه ذو قيمة وأهمية ربطه بالله عز وجل.

ولم تكن الزهراء رضي الله عنها، ولا علي كرم الله وجهه، من الشاكين ولا المتذمرين، ولكن أراد النبي ﷺ أن يشعرهما أنه مشغول بأمرهما، وفي قلبه حياتهما الشاقة.

وأعطاهما النبي ﷺ تذكرة علاج روحية، تهون عليهما تلك المشاق،

---

(١) متفق عليه من حديث علي كرم الله وجهه، وانظر الطبقات الكبرى لابن سعد٨: ٢٥.

وتخفف عنهما المصاعب، إنه المدد الإلهي للروح التي إذا قويت، هانت متاعب ومشاق الجسد.

فما أجمل هذه الوصفة، وما أروع هذا الحنان الذي تمثل في هذه اللفتة التي تمتلىء رحمة وعطفاً وتربية وتوجيهاً ورابطة بالله عز وجل يسبحه الإنسان ويحمده ويشكره وهذه نعمة عظيمة وراحة كبرى.

وماذا يفعل التلميذان النجيبان إلا الطاعة للنبي ﷺ، فقد فعلا ما أمرهما النبي ﷺ ـ وقد سمع علي كرم الله وجهه بعد أكثر من ثلث قرن يذكر كلمات النبي ﷺ ويقول: «فوالله ما تركتهن منذ علمنيهن»[1].

وقد سأل رجل من العراق الإمام علياً كرم الله وجهه وقال: «ولا ليلة صفين؟».

رد رضي الله عنه مؤكداً: ولا ليلة صفين.

هكذا يفعل من تربى في مدرسة النبوة ومن حظي بشرف الانتساب إلى هذا الحبيب وأكرمه الله فزوجه بهذه السيدة العظيمة فكانت هذه الذرية المطهرة الكريمة رضي الله عنهم جميعاً وأرضاهم ورزقنا الأدب معهم ومودتهم فهم قرابة المصطفى ﷺ الذين علمنا الله من فوق سبع سموات أن نوقرهم ونحترمهم ونكن لهم المودة فقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

وهذا رب العزة والجلال يتحدث عنهم من فوق سبع سموات ويؤكد طهارتهم وبعدهم عن الرجس بأمره عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

---

(١) كتاب الذكر والدعاء، صحيح مسلم جـ ٤ رقم (٢٠٩٤١) ورواه ابن سعد في طبقاته بلفظ مقارب ٨:٢٥.

الأب الحنون يعد منزل ابنته

نزل الإمام علي كرم الله وجهه في بيت يبعد قليلاً عن بيت النبي ﷺ، وهو البيت الذي بنى علي فيه بأهله .

وأراد المصطفى ﷺ أن يجد لها منزلاً قريباً من منزله ليحولها إليه ، وكان لحارثة بن النعمان رضي الله عنه بيت بين بيوت نساء النبي ﷺ، وكلما تزوج النبي ﷺ، تحول حارثة إلى بيت آخر، لتكون بيوت نسائه ﷺ مجاورة لبعضها .

فقالت الزهراء رضي الله عنها لأبيها : كلّم حارثة بن النعمان أن يتحول عنا (حتى يوسّع عليهم بعد أن كانت في حجرة واحدة) .

فقال المصطفى ﷺ : إن حارثة قد حول بيته كثيراً عنا حتى استحييت منه .

فبلغ ذلك حارثة ، فتحول عن بيته وأسرع إلى النبي ﷺ وقال :

يا رسول الله إنه بلغني أنك تحول فاطمة إليك ، وهذه منازلي وهي أقرب بيوت بني النجار إليك ، وإنما أنا ومالي لله ولرسوله ، والله يا رسول الله المال الذي تأخذ مني أحب إلي من الذي تدع . فقال رسول الله ﷺ : صدقت ، بارك الله عليك وحول الرسول ﷺ فاطمة الزهراء إلى بيت حارثة[1] .

وهذا درس من دروس الإسلام العظيمة في السماحة والألفة .

فما أجمل هذه السماحة ، وهذه الألفة ، وما أروع الحب الخالص لوجه الله ،

---

(١) طبقات ابن سعد ٨: ٢٤، وانظر فاطمة بنت محمد ﷺ، عبد الخالق عبد الوهاب ص ٧٤-٧٦.

وما أروع صورة المجتمع المسلم . . الذي يحيا أفراده على احترام مشاعر إخوانهم من المسلمين فلا اعتداء، ولا اغتصاب للحقوق، ولا إكراه، بل استحياء واستئذان وحرية وتسامح وحب وإيثار ومودة وإخلاص . . وصدق وولاء ولقد كانوا بحق رجالاً صدقوا ما عاهدوا الله عليه وصدقوا في حبهم لرسول الله حتى كان أحب إليهم من كل شيء في الدنيا بأسرها .

*****

حجرة السيدة فاطمة رضي الله عنها

حجرات النبي ﷺ

قبل الحديث عن حجرة السيدة فاطمة رضي الله عنها وهي إحدى حجرات البيت النبوي الشريف، نود أن نلم بحجرات النبي ﷺ، ونشير إلى أن حجراته الشريفة كانت في غاية التواضع والزهد في بنائها وكسوتها على حد سواء، فقد جعل الله تعالى نبيه ﷺ أسوة لأمته، ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾، فكان المثل الأعلى في زهده وتواضعه وتجافيه عن الدنيا وزينتها ومباهجها ابتغاء مرضات الله، وإيثاراً لما عنده من النعيم المقيم. . وكان على خلق عظيم كما وصفه الله عز وجل.

ومن يستعرض أي جانب من جوانب حياته يدرك هذه العظمة في كل حياته وهذا الجانب الذي أحاول أن ألقي الضوء فيه على حجرات بيته ﷺ يعطينا صورة فريدة عن زهده وتواضعه في بيته وحجراته ومع زوجاته وزواره.

وعندما وصل النبي ﷺ إلى المدينة المنورة مهاجراً، نزل على أبي أيوب الأنصاري في داره وفي الغرفة السفلى، ويقال أنه نزل في بيته الذي بناه له الملك تبع[1] حتى بنى مسجده الشريف، ثم اتخذ بعد ذلك لنفسه حجرات

---

(١) يروى أن الملك تبع ملك اليمن زار مكة ويثرب، وأن بعض أحبار اليهود قد أخبروه أن نبي آخر الزمان قد اقترب ظهوره، وأنه يولد في مكة ويهاجر إلى يثرب فيتخذ فيها مسجداً، وينزل فيها ضيفا على رجل من يثرب، وأنهم أشاروا عليه بمكان المسجد ومكان البيت الذي سينزل فيه ضيفا حتى يتخذ لنفسه بيتا، فقال الملك أنا أبني له البيت الذي سيسكنه فبنى البيت الذي صار إلى ملك أبي =

صغيرة متواضعة لتكون سكناً له ولزوجاته الطيبات، ولم يكن للنبي ﷺ عند هجرته إلا زوجتان هما سودة بنت زمعة رضي الله عنها تزوجها قبل الهجرة بثلاث سنين بعد وفاة خديجة رضي الله عنها، وعائشة بنت أبي بكر رضي الله عنهما وقد عقد عليها في مكة قبل الهجرة ودخل بها بعد الهجرة في المدينة المنورة، وقد بنى لكل منهما حجرة متواضعة على غرار بناء المسجد وعلى نعته، من اللبن وجريد النخل، في شرق المسجد الجنوبي، وهو المكان الذي صار فيما بعد موضع القبر الشريف وما يجاوره من المواضع الأخرى التي كان فيها ست حجرات لأزواجه وحجرة للسيدة فاطمة رضي الله عنها وأختها السيدة أم كلثوم رضي الله عنها في المكان الذي فيه الآن الحواجز الحديدية الأربعة المحيطة بالحجرة النبوية التي تضم القبر الشريف وقبري الشيخين[1] وقد كان النبي ﷺ كلما أحدث زوجة بنى لها حجرة على غرار

= أيوب الأنصاري وجاء كذلك في خلاصة الوفاء عن المبتدأ لابن إسحاق أن بيت أبي أيوب الأنصاري الذي بناه تبع الأول - واسمه تُبان أو تَبان أو تِبان أسعد بن كلكيرب - لما مر بالمدينة، وكان معه أربعمائة عالم فتعاقدوا على أن لا يخرجوا منها، فسألهم تبع عن ذلك.. فقالوا: نجد في كتبنا أنها مهاجر نبي اسمه محمد، فنقيم لعل أن نلقاه، فبنى لكل منهم داراً، وزوجه جارية، وأعطاه مالاً جسيماً، وكتب كتاباً فيه إسلامه ومنه:

شـــهدت على أحمد أنه ... رسول من الله باري النسم

فلو مد عمري إلى عمره ... لكنت وزيراً لــه وابن عم

وختمه بالذهب ودفعه إلى كبيرهم وسأله أن يدفعه للنبي ﷺ إن أدركه وإلا فمن أدركه من ولده أو ولد ولده وبنى للنبي ﷺ داراً ينزلها إذا قدم فتداول الدار الملاك إلى أن صارت لأبي أيوب الأنصاري وهو من ولد ذلك العالم وأهل المدينة الذين نصروه وكلهم من أولاد ذلك العلماء.. ويقال: أن الكتاب كان عند أبي أيوب حين نزل عليه النبي ﷺ فدفعه له، والله أعلم والمعروف في أمر الأنصار ما سبق (خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى ﷺ للسمهودي ٤٧٠).

(١) انظر الشكل رقم (٣) الذي يبين مكان كل حجرة من هذه الحجرات.

حجرة السيدة عائشة والسيدة سودة رضي الله عنهما مساحة وشكلاً، فلما ضاق شرق المسجد بالحجرات بنى ثلاث حجرات في شمال المسجد، واحدة لجويرية بنت الحارث، وأخرى لرملة بنت أبي سفيان وثالثة لصفية بنت حيي رضي الله عنهن[1]، أما حجرة زينب بنت خزيمة الهلالية رضي الله عنها التي تزوجها في السنة الثالثة من الهجرة ثم توفيت بعد الزواج بأشهر فالأرجح أنها صارت لزوجته أم سلمة رضي الله عنها.

وكان ﷺ كلما أحدث أهلاً تنازل له حارثة بن النعمان عن جزء من منزله وكان يسكن قرب المسجد وحوله فلما بنى لجميع زوجاته حجرهن وعددها تسعة ما بين بيت عائشة إلى الباب الذي يلي باب النبي، لم يعد هناك مجال لحجرة جديدة، فلذلك بنى للسيدة ميمونة رضي الله عنها حجرة في حائط من حيطان المدينة بعيداً عن هذه الحجرات كانت تسكن فيه إلى أن انتقلت إلى مكة المكرمة بعد وفاته ﷺ حيث ماتت بسرف، ودفنت في موضع القبة التي ضربت لها حين دخل بها رسول الله ﷺ، وكانت وفاتها سنة إحدى وخمسين.

وقد جاء ذكر بيت السيدة ميمونة رضي الله عنها فيما يروى عن السيدة عائشة قال ابن سعد: «أخبرنا كثير بن هشام، حدثنا جعفر بن برقان، حدثنا يزيد بن الأصم قال: تلقيت عائشة من مكة أنا وطلحة من أختها، وقد كنا وقفنا على حائط من حيطان المدينة، فأصبنا منه، فبلغها ذلك، فأقبلت على ابن أختها تلومه ثم أقبلت عليّ فوعظتني موعظة بليغة، ثم قالت: أما علمت أن الله ساقك حتى جعلك في بيت من بيوت نبيه؟ ذهبت والله ميمونة، ورمى بحبلك على غاربك، أما إنها كانت من أتقانا لله، وأوصلنا للرحم»، وهذا سند صحيح[2].

---

(١) انظر الشكل رقم (٢) الذي يبين مكان الحرم النبوي قبل زيادته.

(٢) ابن سعد ٨:١٣٨.

كانت حجرة عائشة رضي الله عنها ملاصقة للمسجد من الجنوب على يسار المحراب والمنبر، لها باب واحد يفتح على فناء البيت النبوي الشريف، ثم فتح له باب آخر يخرج منه النبي ﷺ إلى المسجد، وكانت الأبواب من خشب العرعر أو الساج[١]، وهي حجرة صغيرة الحجم، (أنظر الشكل رقم (١) وكذلك سائر الحجرات مبنية من لبن ومن جريد النخل مستورة بمسوح الشعر، وقد وصف عمران بن أنس هذه الحجرات فقال: كان منها أربعة أبيات بلبن لها حجر من جريد، وكانت خمسة أبيات من جريد مطينة لا حجر لها، على أبوابها مسوح الشعر[٢]، وذرعت الستر ـ أي الباب ـ فوجدته ثلاث أذرع في ذراع[٣].

وأخرج البخاري في الأدب المفرد عن داود بن قيس قال: رأيت الحجرات من جريد النخل، مغشى من الخارج بمسوح الشعر، وأظن عرض البيت من باب الحجرة إلى باب البيت نحواً من ستة أو سبعة أذرع، وأحزر البيت الداخل عشرة أذرع، وأظن سمكه بين الثمان والسبع[٤].

ويصف الحسن البصري ـ رحمه الله ـ الذي ربي في حجر أم سلمة زوج النبي ﷺ هذه الحجرات فيقول:

كنت أدخل بيوت رسول الله ﷺ وأنا غلام مراهق، وأنال السقف بيدي وكان لكل بيت حجرة، وكانت الحجرة أكسية من خشب عرعر[٥].

---

(١) الساج: نوع من الأشجار يشبه الصندل.

(٢) مسوح الشعر : بيوت الشعر.

(٣) طبقات ابن سعد ١ : ٥٠٠، وتاريخ المدينة لابن النجار ٣٥٨.

(٤) انظر الدر المنثور للتفسير بالمأثور ٧ : ٥٥٤، والمراد بالسمك : ارتفاع السقف.

(٥) طبقات ابن سعد ١ : ٥٠١، وخشب العرعر: نوع من الشجر المشهور بالصلابة والقوة .

فالحجرات كلها كانت محيطة بالمسجد من الركن الجنوبي الشرقي ومن الشرق ومن الشمال إلى الركن الشمالي الغربي عند باب الرحمة (أنظر الشكل رقم (٢) وكان بيت حفصة رضي الله عنها في مكان شباك المواجهة الشريفة الآن مكان وقوف الزوار وإلى الشمال فيه خوخه (زقاق) تفصل بين حجرتها وحجرة عائشة رضي الله عنهما ولكل واحدة منهما فوقها كوة صغيرة تتبادلان الحديث منها عبر هاتين الكوتين[١].

وخلاصة ما يستفاد من هذه الروايات أن مساحة كل حجرة لاتكاد تزيد على خمسة أمتار مربعة، وارتفاع سقفها لا يزيد على مترين إلا قليلاً.

قال محمد بن عمر: حدثنا عبد الله بن يزيد الهذلي قال: رأيت بيوت أزواج النبي ﷺ حين هدمها عمر بن عبد العزيز بأمر الوليد بن عبد الملك، كانت بيوتاً من اللبن ولها حجر من جريد مطرورة بالطين، عددت تسعة أبيات بحجرها، وهي ما بين بيت عائشة إلى الباب الذي يلي باب النبي ﷺ إلى أن قال: ورأيت بيت أم سلمة زوج النبي ﷺ وحجرتها من اللبن، فسألت ابن ابنها فقال: لما غزا رسول الله ﷺ دومة الجندل بنت أم سلمة حجرتها بلبن.. فلما قدم النبي ﷺ نظر إلى اللبن، ودخل عليها أول نسائه فقال: ما هذا البناء؟ فقالت: أردت يا رسول الله أن أكف أبصار الناس.. فقال: أم سلمة إن شر ماذهب فيه مال المسلم البنيان[٢].

قال محمد بن عمر: فحدثت بهذا الحديث معاذ بن محمد الأنصاري فقال: سمعت عطاء الخرساني في مجلس فيه عمران بن أبي أنس يقول وهو فيما بين القبر الشريف والمنبر المنيف: أدركت حجر أزواج النبي ﷺ (من جريد على أبوابها المسوح من شعر أسود، فحضرت كتاب الوليد بن عبد

---

(١) الدر الثمين، محمد غالي محمد الأمين الشنقيطي.

(٢) ذكره المتقي الهندي في الكنز (٤١٥٢١) وانظر طبقات ابن سعد ١:٤٩٩.

الملك يقرأ، يأمرنا بهدم حجر أزواج النبي ﷺ)، فما رأيت يوماً كان أكثر باكياً من ذلك اليوم. . قال عطاء: فسمعت سعيد بن المسيب يقول يومئذ: والله لوددت أنهم تركوها على حالها، ينشأ ناشىء من أهل المدينة ويقدم القادم من الآفاق فيرى ما اكتفى به رسول الله ﷺ في حياته، فيكون ذلك مما يزهد الناس في التفاخر والتكاثر قال معاذ: فلما فرغ عطاء الخراساني من حديثه قال عمران بن أبي أنس: كان فيها أربعة أبيات بلبن، لها حجر من جريد، وكانت خمسة أبيات من جريد مطينة لا حجر لها، على أبوابها مسوح الشعر، ذرعت الساتر فوجدته ثلاث أذرع في ذراع وعظم الذراع أو أدنى من العظم ـ أي حول ذراع ونصف ـ فأما ما ذكر من البكاء يومئذ فلقد رأيتني في المسجد وفيه نفر من أبناء أصحاب النبي ﷺ منهم أبو سلمة بن عبد الرحمن ابن عوف، وأبو أمامة بن سهل بن حنيف، وخارجة بن زيد بن ثابت[1] وأنهم ليبكون حتى أخضلوا لحاهم[2] من الدمع. . وقال يومئذ أبو أمامة: ليتها تركت فلم تهدم حتى يقصل عن البناء ويروا ما رضي الله لنبيه ﷺ ومفاتيح خزائن الدنيا بيده[3].

---

(١) خارجة بن زيد الأنصاري أبو زيد أحد الفقهاء السبعة بالمدينة ثقة. . عن أبيه وأسامة بن زيد وأم العلاء وعنه الزهري وأبو الزناد قال ابن المديني: مات سنة مائة، وقيل: قبلها بسنة، قاله الفلاس، ولما بلغ عمر بن عبد العزيز موته قال: ثلمة والله في الإسلام. . الخلاصة ١: ٢٧٣.

(٢) أخضلوا لحاهم أي بللوها من كثرة الدموع.

(٣) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد - للإمام محمد بن يوسف الصالحي الشامي الجزء الثالث . وانظر ابن سعد ١: ٤٩٩، ٥٠٠.

حجرة السيدة فاطمة رضي الله عنها :

كانت السيدة الحبيبة فاطمة رضي الله عنها ملازمة لوالدها الحبيب ﷺ . . تقيم معه وتأكل معه وترعاه منذ وفاة والدتها الحبيبة سيدتنا خديجة رضي الله عنها . . وبعد زواجه . . فقد ظلت السيدة فاطمة على مقربة منه وبجواره . . إلى أن تزوجت سيدنا علياً رضي الله عنه . . وأصبح لها حجرتها هي وزوجها ثم أولادها من بعد . . وهي حجرة صغيرة أيضا وفيها مكان صلاتها ومحرابها . . وفيها المكان الذي دخل فيه سيدنا علي بالسيدة فاطمة - معرس سيدتنا فاطمة[1] (انظر الشكل رقم (٤) وكانت حجرتها خلف بيت السيدة عائشة في ناحية الباب الذي يقع أمام باب جبريل وعليه المفتاح (صورة الغلاف) .

كان للسيدة فاطمة ولأختها أم كلثوم رضي الله عنهما حجرة بنيت منذ بنيت الحجرات الأولى كما أسلفنا ، وكانت السيدة فاطمة أصغر بنات النبي ﷺ ، تلي السيدة أم كلثوم ، التي طلقها عتبة بن أبي لهب ، وعاشت الأختان في كنف أبيهما ورعايته وإلى جانبه في حجراته الشريفة ، أما زينب أكبر أخواتها فكانت زوجة لابن خالتها أبي العاص بن الربيع ، وظلت عنده حتى هاجرت في السنة السادسة من الهجرة حين فرق الإسلام بين المسلمة والمشرك ، ثم عادت إلى زوجها بعد أن أسلم ، وتزوجت رقية عثمان بن عفان رضي الله عنه وهاجرت معه الهجرتين ، ثم توفيت بعد وصول الخبر بانتصار بدر ، فزوج النبي ﷺ عثمان أختها أم كلثوم بعد ستة أشهر من وفاة رقية ، فبقيت السيدة

---

(١) معرس سيدتنا فاطمة المكان الذي تزوج فيه سيدنا علي رضي الله عنه .

فاطمة رضي الله عنها وحدها في الحجرة حتى زفت إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه في بيته الذي أعده لزوجته الكريمة[1]، ويغلب على الظن أن حجرة فاطمة وأم كلثوم رضي الله عنهما قد ظلت بعد زواجهما خاصة بهما تأويان إليها كلما زارت إحداهما أباها في حجراته الشريفة، تأويان إليها مجتمعتين أو منفردتين، وتجدان في جنباتها ما لكل واحدة منهما من الذكريات الحبيبة، فلما أنجبت السيدة فاطمة رضي الله عنها السبطين وزينب أصبحت تأوى إليها، وربما تطيل المكث فيها ليكون أولادها قريبين من جدهم رسول الله ﷺ يستمتع بهم، ويدنيهم منه حتى قبضه الله تعالى إلى جواره.

واعلم أن بيت السيدة فاطمة رضي الله عنها كان خلف بيت النبي ﷺ عن يسار المصلى إلى القبلة في الروضة، وكان فيه خوخة إلى بيت النبي ﷺ. . (انظر شكل (٢) قال ابن النجار: وكان ﷺ يأتي بابها كل يوم يأخذ بعضادتيه ويقول: الصلاة الصلاة، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا[2].

وأسند عن عمر بن علي بن عمر بن علي بن الحسين قال: كان بيت فاطمة في موضوع الزور مخرج النبي ﷺ، وكانت فيه كوة[3] إلى بيت عائشة رضي

---

(١) أخرج ابن سعد عن الواقدي عن طريق جعفر قال: نزل النبي ﷺ على أبي أيوب فلما تزوج علي بفاطمة قال له: التمس منزلا فاستأجر منزلا فبنى بها فيه فجاء إليها فقالت له: كلم حارثة بن النعمان فقال: قد تحول حارثة حتى استحييت منه فبلغ حارثة فجاء فقال: يا رسول الله والله إن الذي يأخذ أحب إلي من الذي يدع فتحول حارثة من بيت له فسكنه علي بفاطمة، الإصابة ٤: ٣٧٧، انظر شكل رقم (٣) حيث يوضح بيت السيدة فاطمة بالتفصيل.

(٢) تحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة - للإمام أبي بكر بن الحسين المراغي.

(٣) كوة بضم الكاف أو فتحها وتشديد الواو أو مفتوحة: الخرق في الحائط.

الله عنها، فكان رسول الله ﷺ إذا قام إلى المخرج اطلع من الكوة إلى فاطمة فعلم خبرهم.

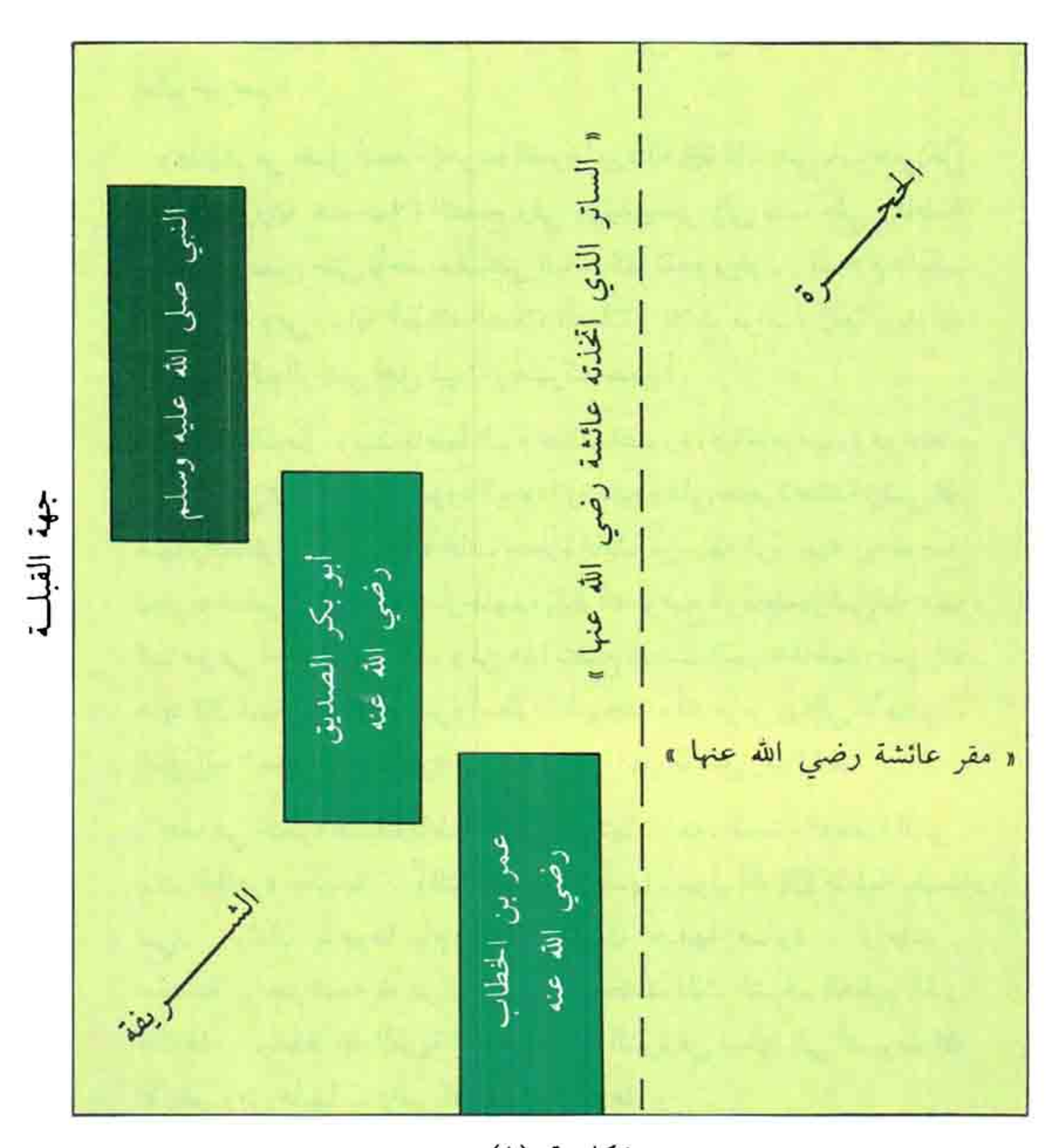
وقد ذكر في فضل أسطوان مربعة القبر ما ورد أنه ﷺ كان يأتي باب علي كل يوم وفي رواية عند صلاة الصبح وفي رواية يحيى إلى باب علي وفاطمة وحسن وحسين حتى يأخذ بعضادتي الباب كما تقدم ويقول: السلام عليكم أهل البيت وفي رواية الصلاة الصلاة الصلاة، ثلاث مرات، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً.

وقال ابن النجار: وبيت فاطمة اليوم حوله مقصورة وفيه محراب، وهو خلف حجرة النبي ﷺ.. والمقصورة اليوم دائرة عليه وعلى حجرة عائشة رضي الله عنها والمحراب الذي ذكره خلف حجرة عائشة من جهة الزور بينه وبه موضع تحترمه الناس ولايدوسونه بأرجلهم، يذكر أنه موضع قبر فاطمة رضي الله عنها كما هو في أحد الأقوال[1]، ومن هذا يتضح أن بيت السيدة فاطمة رضي الله عنها كان فيما بين مربعة القبر وأسطوان التهجد، وأنه عرس بها إلى الأسطوان الذي إليه المحراب الموجود اليوم في بيتها (أنظر الشكل رقم (٤)).

هذه هي حجرة السيدة فاطمة رضي الله عنها.. هذه السيدة الطاهرة البتول بنت الطاهرة خديجة.. والتي كان يقول عنها رسول الله ﷺ فاطمة بضعة مني.. وكان يدعوها بأم أبيها وعاشت حياتها صابرة.. زاهدة.. محتسبة.. متواضعة لله عز وجل.. فاستحقت ذلك الشرف العظيم الذي خلدها.. وحفظ الله الذرية الطاهرة لبيت النبوة في نسلها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.. رضي الله عنها وأرضاها..

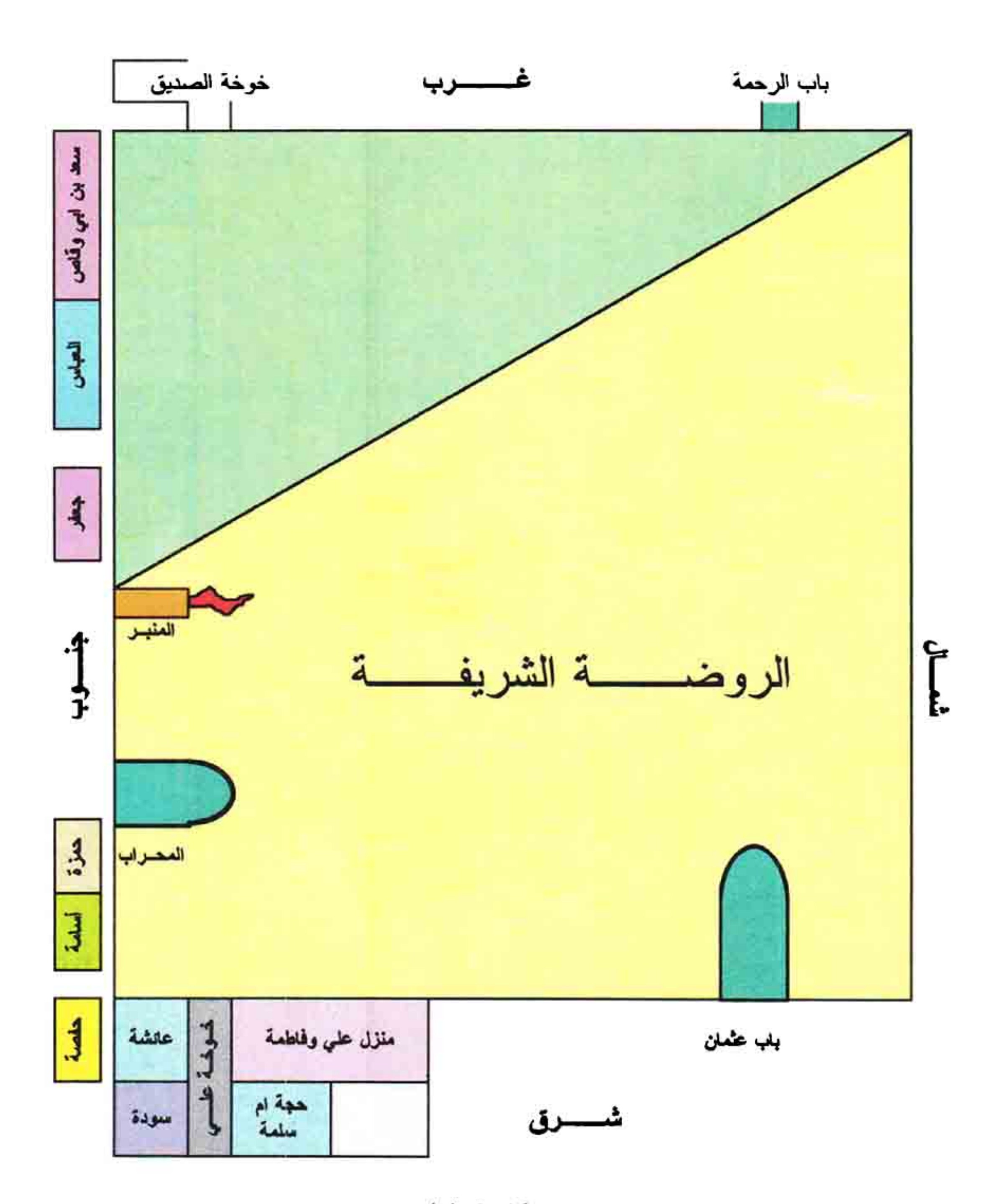
---

(١) هناك قول بأنها دفنت في منزلها الذي هو خلف قبر الرسول ﷺ ولكن الراجح أنها دفنت بالبقيع والله أعلم. انظر الشكل رقم(٥) مخطط قبور السلف المعروفة في البقيع الشريف وكذلك انظر رقم(٦) والصورة رقم (١٦).



شكل رقم (١)

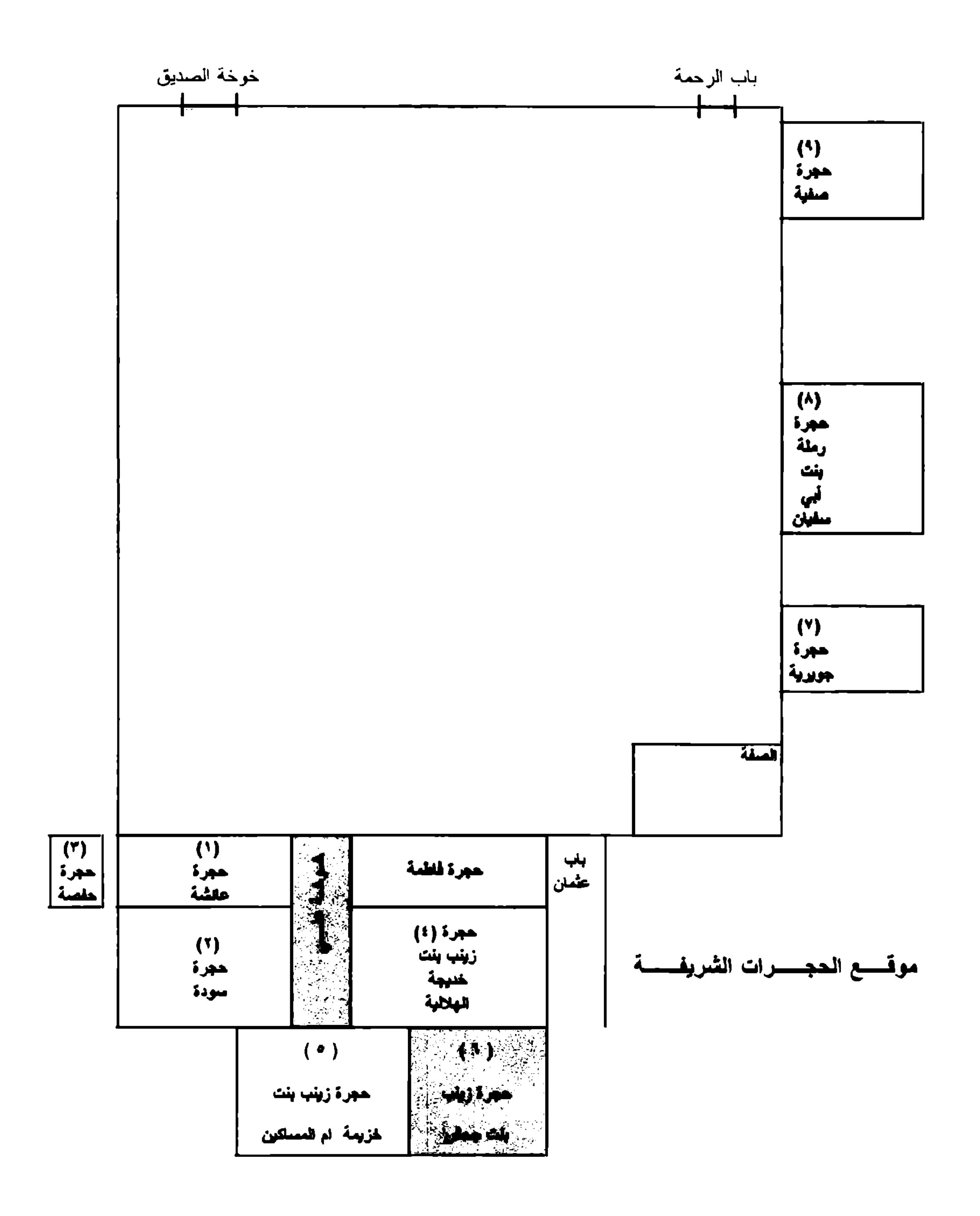
مكان منزل الرسول ﷺ الذي دفن فيه مع الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وبجواره منزل السيدة عائشة والجدار الذي اتخذته بعد دفن سيدنا عمر في المكان



شكل رقم (٢)

الحرم النبوي قبل زيادته ﷺ فيه بعد فتح خيبر

عن كتاب الدر الثمين في معالم دار الرسول الأمين ﷺ محمد غالي الشنقيطي



شكل رقم (٣)

موقع الحجرات الشريفة

عن كتاب الدر الثمين في معالم دار الرسول الأمين ﷺ محمد غالي الشنقيطي

استدارة القبة الخضراء

بيت السيدة عائشة

مثلث الزور

بيت السيدة فاطمة

محراب في بيت فاطمة

معرس علي بفاطمة

حد بيت فاطمة

مواجهة سيدنا عمر بن الخطاب

مواجهة سيدنا أبي بكر الصديق

مواجهة الرسول الأعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

اسطوانة الوفود

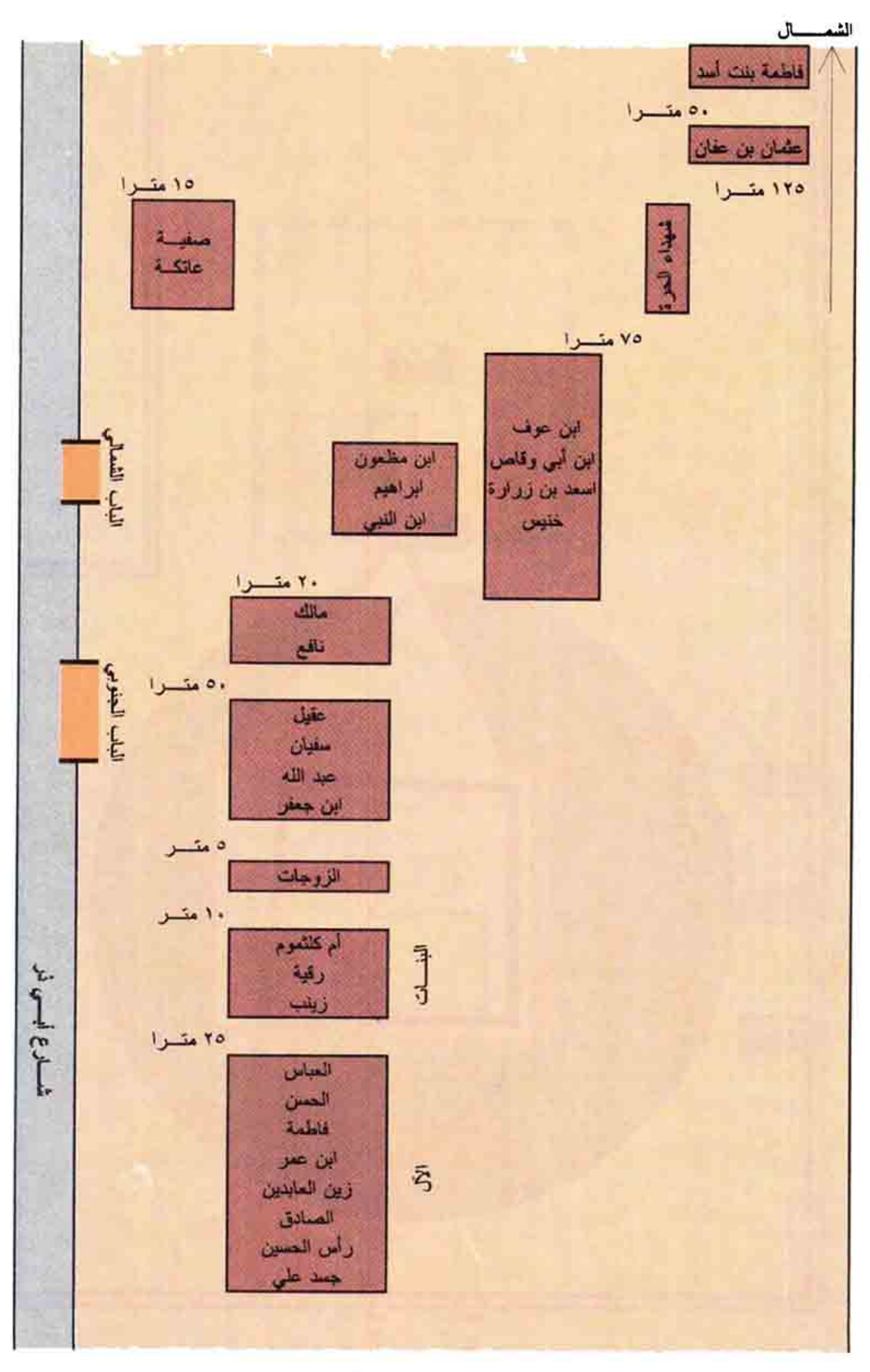
اسطوانة الحرس

اسطوانة السرير

باب التوبة

شباك باتجاه الرأس الشريف

أخذ هذا الرسم بتصرف عن مخطط حجرة الرسول الأعظم
سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الصادر عن دار لبنان للطباعة والنشر



شكل رقم (٥)

مخطط قبور السلف المعروفة بالبقيع الشريف

خارطة بقيع الغرقد المقبرة العامة بالمدينة المنورة

وفيها اكثر من عشرة آلاف صحابى

شارع الملك عبد العزيز

ساحة مغلقة

شارع البقيع (شارع ابى ذر)

ادارة دفن الموتى

شارع العوالى (شارع الامام على)

شارع الملك فيصل (شارع الستين)

١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ ١٠ ١٢ ١٣

شكل رقم (٦)

صورة رقم (١٦) جانب من حجرة السيدة فاطمة رضي الله عنها
ويظهر على يمين الصورة باب الحجرة الموجود على غلاف الكتاب

صورة رقم (١٧) جانبان من غرفة السيدة فاطمة رضي الله عنها
أحدهما المواجه لدكة الأغوات والثاني للروضة الشريفة

الزهراء تشارك زوجها الجهاد

لقد كان وجودها رضي الله عنها في صميم المعركة بين الكفر والإيمان بين الباطل والحق، منذ طفولتها، وهو ما جعلها تميل إلى حياة الجد والاجتهاد أكثر مما تميل إلى المرح والابتهاج فقد نشأت نشأة جادة.

وكانت مشغولة البال بأبيها في القرب والبعد، وكثيراً ما كانت تتبعه في غزواته ومشاهده، وقد تأذن لها الظروف بمصاحبته إلى ميدان القتال.

وكانت أول مشاركة لها بعد الزواج الجهاد في غزوة أحد فقد تأكد لها عزم قريش على الانتقام من النبي ﷺ ومن آله وأصحابه وان الحقد الدفين في قلوب الكافرين قد محا من نفوسهم أسمى ما كانت تحرص عليه العرب من العادات النبيلة وكان الحقد والكراهية لرسول الله ﷺ قد استوليا عليهم بعد هزيمتهم المنكرة في موقعة بدر الكبرى وأزالا منهم ما كان العربي يكرم به المرأةفلا يتعرض لها ولم يشعر اثنان منهم بالخزي والعار وهما يتعرضان لبعير زينب بنت محمد ﷺ بالأذى فجفل البعير قافزاً وسقطت زينب رضي الله عنها من هودجها فوق صخرة صلدة وكانت حاملاً فسالت منها الدماء وأجهضت. وهال هذا الإجرام المخزي والتصرف المشين هند بنت عتبة زوجة زعيمهم أبي سفيان، فأنشدت تعير قومها لموقفهم هذا المشين وتذكرهم بهزيمتهم المنكرة بقصيدة مطلعها:

أفي السلم أعياراً جفاء وغلظة وفي الحرب أشباه النساء العوارك

وأعد الكفار العدة للقاء المسلمين، وخرج المسلمون في شوال سنة ثلاث من الهجرة. وخرج عدد من النساء ليس قليلاً مشاركة للرجال في الجهاد

وكان من بينهن الزهراء بنت رسول الله ﷺ.

وبدأت المعركة وقد أنزل الله تعالى نصره على المسلمين، وصدقهم وعده، فانكشف المشركون عن المعسكر، وولت النساء مشمرات هوارب ـ نساء المشركين ـ وكان المصطفى ﷺ قد أمّر على الرماة عبد الله بن جبير وهم خمسون رجلاً، وقال ادفع الخيل عنا بالنبل، لا يأتون من خلفنا، ان كانت لنا أو علينا، وأمرهم بأن يلزموا مراكزهم، وألا يفارقوها ولو رأوا الطير تتخطف العسكر.

ولما انهزم المشركون وولوا مدبرين، مال الرماة إلى العسكر، وهم موقنون بالفتح، وقالوا : يا قوم الغنيمة، فذكرهم أميرهم عبد الله عهد رسول الله ﷺ، فلم يسمعوا، وظنوا أن ليس للمشركين رجعة، فأخلوا الثغر، وأخلوا ظهور المسلمين إلى الخيل، وكانت عيون المشركين ترمق الرماة فلما رأوهم يتركون أماكنهم جمعوا فلولهم وكروا على المسلمين وصرخ صارخ ألا إن محمداً قد قتل فتراجع المسلمون، ودارت الدائرة على المسلمين ولكنها كانت معركة نصر ولم تكن هزيمة وإنما كانت درساً للأمة الإسلامية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وخلص العدو إلى رسول الله ﷺ، وأصابته الحجارة حتى وقع لشقه، وأصيبت رباعيته اليمنى السفلى، وشج في رأسه، وجرحت شفته ﷺ، ولا يعلم المسلمون بمكانه.

فأخذ علي بن أبي طالب رضي الله عنه بيد رسول الله ﷺ، ورفعه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائماً، ومص مالك بن سنان الدم عن وجهه ﷺ.

وأخرج البخاري عن سهل بن سعد وهو يسأل عن جرح رسول الله ﷺ فقال: « أما والله إني لأعرف من كان يغسل جرح رسول الله ﷺ، ومن كان يسكب الماء، وبما دووى، قال : كانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تغسله،

وعلي بن أبي طالب يسكب الماء بالمحجن، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة، أخذت قطعة من حصيرة فأحرقتها، وألصقتها، فاستمسك الدم»[1].

وهكذا نجد أن الزهراء كانت في موقع الأحداث وكانت أسبق الناس إلى أبيها، رغم أن المعركة كانت على أشدها، وشاركت مع باقي النسوة المسلمات في تضميد الجراح، وسقى الجرحى من الشهداء. والحقيقة أن من يراجع تفاصيل غزوة أحد يدرك أنها لم تكن هزيمة بل كانت درساً للمسلمين الذين خالفوا أمر الرسول ﷺ، وقد تعلمنا هذا الدرس عبر تاريخنا الإسلامي وأدركنا أن من يخالف أمر الله عز وجل وأمر رسوله ﷺ فإنه يتعرض لعقاب الله، وأن النجاح والفلاح هو في الارتباط بهذا الدين ارتباطاً حقيقياً والوقوف عند أوامره ونواهيه. أما غزوة أحد فقد تحقق فيها النصر في النهاية وانسحب المشركون يجرون أذيال الخيبة فلم يحققوا شيئاً من أهدافهم، ولم يستطيعوا أسر رجل واحد من المسلمين بل عادوا والحسرة تملأ نفوسهم وأيد الله رسوله ﷺ بعد أن تعلم الذين خالفوا الأوامر الدرس وأدركوا خطورة عدم الامتثال لأمر النبي ﷺ.

وعادت فاطمة مع العائدين من أحد وقد ودعت عمها حمزة بن عبد المطلب الوداع الأخير، وودعت معه إخواناً شهداء، أبلوا بلاء حسناً، ودافعوا عن دين الله سبحانه وتعالى ورسوله الكريم دفاعاً مستميتاً حتى لقوا الله تعالى وهم يذودون عن دينه الحنيف ونبيه الكريم.

---

(١) انظر الجامع الصحيح للبخاري : كتاب المغازي ، باب غزوة أحد.

زواج أم كلثوم رضي الله عنها

جاء شهر ربيع الأول سنة ثلاث من الهجرة، وقد أوى المصطفى ﷺ إلى بيته يستريح، فإذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسعى مستثار الغضب ليشكو إلى النبي ﷺ صاحبيه أبا بكر وعثمان. . .

فقال: لقد عرضت على أحدهما بعد الآخر أن يتزوج من ابنتي حفصة بعد أن مات عنها زوجها خنيس بن حذافة السهمي رضي الله عنه، فسكت أبو بكر ولم يجبني. وأجاب عثمان: ما أريد أن أتزوج اليوم[1].

وقد سمعت أم كلثوم رضي الله عنها ما قاله عمر رضي الله عنه لأبيها ﷺ.

وفي لحظة وجيزة سرحت بخيالها بعيداً، هناك في مكة حيث تركت ملاعب الصبا، وذكريات أليمة في زواجها الأول، وأن الله تعالى أنقذها هي وأختها رقية رضي الله عنها، من براثن الحاقدة أم جميل امرأة أبي لهب.

وأن أختها رقية تزوجت من عثمان بن عفان رضي الله عنه، وعاشت معه قريرة العين في الأيام التي عاشتها معه. . . وصمت تفكيرها، لتسمع ما قاله لعمر رضي الله عنه، ملاطفاً له: يتزوج حفصة من هو خير من عثمان، ويتزوج عثمان من هي خير من حفصة[2].

وهي تعرف أن أباها لا يمزح، وأنه لا يقول إلا حقاً، وسألت نفسها من هي التي خير من حفصة بنت عمر رضي الله عنه ومن الذي هو خير من عثمان بن عفان رضي الله عنه.

---

(١) الاستيعاب ٤: ١٨١١.

(٢) الاستيعاب ٤: ١٩٥٢.

ولم تسترسل أم كلثوم كثيرا في خيالها، فقد بعث أبوها ﷺ أم عياش خادم النبي ﷺ، تدعوها للقاء أبيها ﷺ.

وخيرها أبوها في الزواج بعثمان بن عفان رضي الله عنه، فسكتت أم كلثوم وكأني بها وقد أطلقت لخيالها العنان، واسترجعت تلك الذكرى الماضية مرة أخرى، وهي تقف مع أختها الراحلة رقية تصغيان إلى أبيهما حين عرض عليهما رغبة ابني أبي لهب في الزواج بهما.

وقامت وهي تبتسم فمثل عثمان بن عفان لا يرفض، ودخلت على أختها زينب رضي الله عنها، فوجدت عندها فاطمة الزهراء رضي الله عنها، وأسرت إليهما ما قاله المصطفى ﷺ.

وكأني بالأختين وهما تبتسمان وتعجبان لهذا القدر والنصيب الذي ربط مصير أم كلثوم رضي الله عنها، بمصير رقية رضي الله عنها، وكيف ظلت أم كلثوم بعد طلاقها من ابن أبي لهب دون زواج حتى إذا ماتت أختها وأصبح عثمان بلا زوجة زوجه رسول الله ﷺ أختها أم كلثوم.

وفي شهر ربيع الأول سنة ثلاث من الهجرة تم عقد زواجها من عثمان بن عفان ذي النورين، على مثل صداق رقية رضي الله عنها.

وخرجت أم كلثوم رضي الله عنها من بيت أبيها في صحبة أختيها وأم عياش، لتحل محل أختها الراحلة . . .

وقد أرسل النبي ﷺ معها أم عياش كما أرسلها مع أختها من قبل.

وكأني بها لما شارفت البيت الجديد، أحست كأن طيفاً من أختها الراحلة ينتظرها هناك لدى الباب، ليعيش معها ويصحبها هنالك لا يفارقها في يقظة أو منام.

ولعلها قد همست لنفسها في شجن : لم يبق يارقية إلا أن ألحق بك حيث

ترقدين، فيجمعنا الموت في قبر واحد، كما جمعتنا الحياة منذ كنا صغيرتين.

وعادت الزهراء رضي الله عنها في صحبة أختها الكبرى زينب رضي الله عنها بعدما تركتا أم كلثوم في بيتها الجديد، مع زوجها الكريم عثمان ذي النورين رضي الله عنه.

وتجاذبت الزهراء مع أختها رضي الله عنهما أطراف الحديث، وطافت الأحاديث حول مكة حيث تنام الأم الرؤوم خديجة رضي الله عنها قريرة العين، وهنالك أيضاً الحبيب الغائب أبو العاص بن الربيع وتمنت زينب لو أن الله يشرح صدره للإسلام ليجتمع شمل الحبيبين.

*****

الأب الحنون يُصلح بين الحبيبين

ما أروع الحياة عندما يجتمع في قلب المؤمن حبان، ويكون حب الله ورسوله ﷺ أحب إليهما مما سواهما، إنها حياة طيبة تحوطها السعادة دائماً، ولا يغيب عنها السرور.

ولكن من سمة الأيام أنها تتقلب، والدهور تتغير، فلا شيء في الحياة يمضي على وتيرة واحدة، والأيام لا تسير على نسق واحد، والنفوس تتغير كما تتغير الأيام، وتتقلب العواطف كما تتقلب الدهور.

وذات يوم حدث خلاف بين الزهراء رضي الله عنها وبين علي كرم الله وجهه، وكلما كانت القلوب مغلفة بالحب، مليئة به، وتحيا في ظلاله، كانت الهفوات الكبيرة صغيرة في قلوب المحبين، وقد يضخم القلب كلمة من خلال خيال المحب لتصير كأنها شيء لا يطاق.. مع أنها هينة، صغيرة، ولكنها عند المحب كبيرة.

كان الخلاف هيناً ولكنه بدا كبيراً لما بينهما من المودة، ويدخل النبي ﷺ على الحبيبين، ويحس أن ماء القلوب قد تعكر صفوه شيئاً قليلاً.

وجلس المصطفى ﷺ فجلس علي كرم الله وجهه بجانب، وجلست الزهراء رضي الله عنها بجانبه الآخر.. فأخذ المصطفى ﷺ بيد علي كرم الله وجهه ووضعها على بطنه، وأخذ بيد فاطمة رضي الله عنها ووضعها على بطنه، وما زال حتى أصلح ما بينهما.

وحدث مرة أخرى أن نما إلى سمعه ﷺ أن خلافاً حدث بين الزوجين، فذهب مساء إليهما، ورُئيَ ﷺ، وهو يسعى إلى دار ابنته فاطمة الزهراء رضي

الله عنها وقد ظهر عليه الهم والقلق، فأمضي وقتاً هناك ثم خرج ووجهه الكريم يفيض بشراً.

فقال قائل من الصحابة: يا رسول الله، دخلت وأنت على حال، وخرجت ونحن نرى البشر في وجهك!!

فأجاب المصطفى ﷺ:

« وما يمنعني وقد أصلحت بين أحب اثنين إلي؟! »[1].

وحدث مرة أخرى أن ضاقت الزهراء رضي الله عنها، من شدة طارئة وجدتها في زوجها علي كرم الله وجهه، وصلابة قد زادت مع الأيام..

فقالت الزهراء رضي الله عنها، والله لأشكونك إلى رسول الله ﷺ. وخرجت..

ولم يتوان علي كرم الله وجهه، فخرج في إثرها، حتى جاءت أباها فشكت إليه.. ما أنكرت من زوجها.

فتلطف الأب الحبيب ﷺ، في ترضيتها وحملها على الرفق بعلي.. والصبر عليه.. واحتماله..

ولم يتحدث مع علي كرم الله وجهه في شيء يؤلمه، ولم يجرح مشاعره.

فقال علي كرم الله وجهه، وهو يصحب زوجته إلى بيتها:

والله لا آتي شيئاً تكرهينه أبداً[2].

وكان ﷺ أشد حنوا على فاطمة الزهراء، وعلى زوجها علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، لأنه ﷺ كان يلمس حياتهما، ويدرك أن كلا منهما يحتاج إلى يد حانية لطيفة رحيمة.

---

(١) الطبقات ٨: ٢٦.

(٢) انظر الطبقات الكبرى لابن سعد ٨: ٢٦، وانظر أيضاً الإصابة ٨: ١٦٠.

فعلي منذ وعى الحياة وهو في معارك شرسة مع الكفر والمشركين، وفاطمة منذ وعت الحياة قد ألمت بها الأحزان، لفقد أمها، وقلقها الدائم على أبيها، وفقدها إخوتها وأخواتها.

فكل منهما عاش الحياة بجد وصرامة، وخشونة، وكل منهما يتمنى أن يجد عند الآخر السهولة والرقة، ولكن هيهات للنفوس التي جبلت على الجهاد والجد والكفاح، أن تعطي غير الجد فلا يجد الهزل إلى ذلك الجو طريقاً.

ولهذا ورغم حبهما الشديد فقد كان النبي ﷺ وهو رجل يعلم مفتاح النفوس ـ يعرف أن الجد دستور حياتهما. .

دخل ذات يوم بيت فاطمة الزهراء رضي الله عنها، ولم يجد علياً فيه.

فقال لفاطمة أين ابن عمك؟!

قالت: كان بيني وبينه شيء فغاضبني. . وخرج ولم يقم عندي.

وعلى الفور يأتي العلاج الحكيم، من طبيب يعررف الداء، ويصف الدواء وصفاً جيداً، فلا يخطىء الشفاء.

أرسل الرسول ﷺ أحد أصحابه يبحث عن علي. . ليخبره بمكانه.

عاد الرجل إلى الرسول ﷺ وقال: هو بالمسجد. . لقد خرج إلى المسجد يلتمس فيه تهدئة نفسه. . ويعود بعد ذلك ليجد زوجه فاطمة وقد خف غضبها. . إنه يستحسن عدم المواجهة حتى لا يستغل الشيطان نقاط الضعف في النفوس ليشعلها ناراً. . وهكذا فعل علي كرم الله وجهه.

واضطجع علي في المسجد، وأخذه النوم. . فسقط الثوب عنه. .

وأصاب جسده بعض التراب. .

ذهب المصطفى ﷺ وأخذ يمسح التراب عن جسده ويداعبه ويقول له: قم أبا تراب.. قم أبا تراب[1]..

أعاده المصطفى ﷺ إلى بيته.. وأصلح ما كان بينهما.. فعاد الصفاء والوفاق واستراحت نفس رسول الله ﷺ.

*****

(١) البخاري - كتاب المناقب، باب مناقب علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

زواج النبي ﷺ من حفصة رضي الله عنها

استرجع عمر رضي الله عنه قول المصطفى ﷺ له: « يتزوج حفصة من هو خير من عثمان، ويتزوج عثمان من هي خير من حفصة ». وأدرك أن الذي هو خير من عثمان رضي الله عنه، انما هو النبي ﷺ، فقام من عند النبي ﷺ متهلل الوجه، بعدما شعر به من ألم من موقف أبي بكر وعثمان رضي الله عنهما كان بادياً على وجهه.

ومرت أيام.. وخطب النبي ﷺ حفصة وخرج عمر رضي الله عنه ليزف إلى ابنته، وإلى أبي بكر وعثمان رضي الله عنهما، وإلى المدينة كلها بشرى الخطبة الكريمة المباركة.

ولقي أبو بكر عمر فاعتذر إليه وقال:

« لا تجد علي يا عمر، فإن رسول الله ﷺ، ذكر أمامي حفصة فلم أكن لأفشي سر رسول الله ﷺ، ولو تركها لتزوجتها »[1].

ومضى كل منهما إلى ابنته:

عمر رضي الله عنه مضى إلى حفصة ليبشرها بأكرم زوج، على وجه الأرض ﷺ.

وأبو بكر مضى إلى عائشة ليعلمها بما كان من أمر حفصة وزواج النبي ﷺ المرتقب منها.

وسبقها النبي ﷺ بأن أخبر أم كلثوم رضي الله عنها بزواجها من عثمان بن

---

(١) انظر طبقات ابن سعد ٨: ٨٢، والإصابة ٨: ١٥، والاستيعاب ٤: ١٨١١.

عفان رضي الله عنه . . وأسرع الرسول ﷺ في اتمام زواج ابنته فقد تزوجت في شهر ربيع الأول سنة ثلاث من الهجرة .

أما زواج حفصة رضي الله عنها من النبي ﷺ فقد تم في شهر شعبان من السنة الثالثة من الهجرة، على أرجح الأقوال[١] .

وقد ورد في بعض المصادر أنها تزوجت في شهر رمضان، كما جاء في العبر في وفيات السنة الثالثة للهجرة للذهبي .

وأصبحت هذه هي الزوجة الثالثة للرسول ﷺ بعد وفاة أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها .

وقد أثار هذا الزواج ذاكرة الزهراء وأختيها، فقد تذكرن أمهن الحنون، وكن على يقين أن والدهن لم يكن في هذا الزواج صاحب رغبة في النساء، وإنما كان لكل زواج هدف يراه المصطفى ﷺ .

وتحدثن وهن يعلمن أن منزلة أمهن عند أبيهن ﷺ ـ رغم وفاتها ـ مازالت عظيمة، وهي لا تفارقه أبداً، ولا ينسى تلك الإنسانة العظيمة .

وكان يقر عيونهن، ويثلج صدورهن، ويزيدهن اطمئناناً خاصة وإنه ﷺ كان دائم الذكر لخديجة، دائم الدعاء لها .

وانصرفت الأخوات كل إلى بيتها بعد الزواج، ومضت فاطمة إلى علي كرم الله وجهه، واستقبلها ملاطفاً لها مداعباً، ليهون عليها ما يدور في ذهنها، من ذكريات عزيزة غالية . . وأحياناً كان علي كرم الله وجهه يشاركها في تلك الذكريات، ألم تكن خديجة رضي الله عنها هي التي ربته في حجرها صغيراً ورعته وأكرمته . . !!

---

(١) انظر طبقات ابن سعد ٣:٨٣، وتاريخ الطبري ٣:٩، وانظر كذلك الاستيعاب والإصابة .

محنة جديدة واختبار جديد

كانت حياة علي وفاطمة رضي الله عنهما حياة زهد وتقشف وصبر وجهد، وكانا من أحب الناس إلى رسول الله ﷺ، وكان يمر عليهما أيام لا يجدان في بيتهما ما يسكت جوعهما.

فقد أخرج هناد عن عطاء قال: نبئت أن علياً رضي الله عنه قال: مكثنا أياماً ليس عندنا شيء، ولا عند النبي ﷺ، فخرجت فإذا أنا بدينار مطروح على الطريق، فمكثت هنيهة أؤامر نفسي في أخذه أو تركه، ثم أخذته لما بنا من الجهد، فأعطيته بعض الضفاطين[1].

فاشتريت به دقيقاً، ثم أتيت به فاطمة: فقلت اعجني واخبزي فجعلت تعجن ـ وإن قصتها[2] لتضرب حرف الجفنة من الجهد الذي بها ـ ثم خبزت. فأتيت النبي ﷺ فأخبرته، فقال: «كلوه فإنه رزق رزقكموه الله عز وجل»[3].

على الرغم من هذه الحياة التي تتسم بشظف العيش فقد كانت الزهراء رضي الله عنها راضية صابرة.

وكانت الزهراء رضي الله عنها قانعة بحالها، وكانت توقن أن الحرص يمزق القلب ويشتت الفكر، وكانت تستمسك بما سمعته عن أبيها ﷺ حين قال: «طوبى لمن هُديَ للإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع به».

---

(١) الضفاطون: الحمالون والمكارون الذين يجلبون الدقيق من الخارج.

(٢) صدرها.

(٣) كنز العمال، للمتقي الهندي ٧:٣٢٨، ورواه هناد بن السري في كتاب «الزهد» ٢:١٥٦(٧٦٤).

وسمعته وهو يخطب ﷺ ويقول: « أيها الناس أجملوا في الطلب فإنه ليس للعبد إلا ما كتب له في الدنيا، ولن يذهب عبد من الدنيا حتى يأتيه ما كتب له فيها، وهي راغمة » وقال: « إن روح القدس نفث في روعي أن لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب خذوا ما حل ودعوا ما حرم » الحديث.

وهكذا كانت الحياة تمضي بالزهراء رضي الله عنها وهي راضية قانعة صابرة على الرغم مما تعاني من شظف العيش.

وكان علي كرم الله وجهه يحس بهذا، ويرى مدى ما تعانيه زوجته الحبيبة، فكان لا يألو جهداً في أن يخفف عنها، ويبعث السعادة في حياتها.

وهو يتذكر دائماً ما قاله لها: « والله لا آتي شيئاً تكرهينه أبداً ».

لكن علياً رضي الله عنه، كاد أن يأتي ـ غير متعمد ـ شيئاً تكرهه فاطمة أشد الكره، وتتألم منه أشد الألم..

وأي شيء أبغض إلى الزهراء رضي الله عنها، من أن يأتيها زوجها وابن عمها كرم الله وجهه، بضرة تشاطرها زوجها وتحيا معها!؟!

لقد هم علي كرم الله وجهه بالزواج على الزهراء رضي الله عنها، وفي حسابه أنه لا حجر عليه من حلال مباح شرعاً، وأنه يجوز على بنات النبي ﷺ ما يجوز على سائر النساء، فيما أحله الشرع للمسلمين من تعدد الزوجات، ولعله ظن ألا يلام على ذلك، فلها أسوة بعائشة بنت الصديق رضي الله عنهما، وحفصة بنت عمر رضي الله عنهما.

تقول الدكتورة بنت الشاطىء في كتاب « تراجم سيدات بيت النبوة »: لكن الأمر جرى على غير ما توقع علي كرم الله وجهه، لم يكد يبدي رغبته في خطبة بنت عمرو بن هشام بن المغيرة، على السيدة فاطمة الزهراء رضي الله

عنها حتى غضبت رضي الله عنها وغضب لها أبوها ﷺ، وكان الموقف بالغ الدقة والحرج.

فسيدنا علي كرم الله وجهه لم يكن كما ذكرنا يرى بأساً في الزواج الثاني لعلمه أن الرسول ﷺ ساوى بين السيدة فاطمة وغيرها ولقد قال النبي ﷺ في حديث المرأة المخزومية التي سرقت وأهمَّ قريشاً أمرها فقالوا من يكلم فيها رسول الله ﷺ إلا حبه وابن حبه أسامة بن زيد بن حارثة رضي الله عنهما فكلمه أسامة فغضب ﷺ وقال لأسامة:

أتشفع في حد من حدود الله؟ ثم وقف خطيباً وقال:

أيها الناس إنما أهلك من كان قبلكم. أنهم إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد. وايم والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها (رواه البخاري ومسلم).

ولكن مقام السيدة فاطمة رضي الله عنها عند ربها كان مقاماً كبيراً. فهي فاطمة الزهراء البتول وهي بضعة الرسول المختار ﷺ الذي اصطفاه الله سبحانه وتعالى حبيباً وفضله على جميع المخلوقات، فهو سيد ولد آدم عليه الصلاة والسلام وقد اختارها الله أن تكون سيدة نساء العالمين من لدن حواء إلى يوم الدين واصطفاها الله من بنات النبي ﷺ أن يكون نسل الرسول ﷺ منها. فولدت الحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة ومنهما يمتد النسل الطاهر وإليهما يرجع النسب المعطر فلا عجب أن تخص بخصيصة تجعل الزواج عليها غير مقبول، وهذه المعاني كلها اجتمعت في قلب النبي ﷺ فزادت في محبتها وأصبح قلب الرسول الطاهر ممتلئاً بالعطف عليها يؤذيه ما يؤذيها ويغضبه ما يغضبها فلا غرو أن تخص بخصيصة من ربها وهو منع الزواج عليها إكراماً لرسول الله ﷺ حتى لا يصاب الحبيب الأعظم ﷺ بأدنى شيء يؤذيه.

فلقد أراد علي كرم الله وجهه أن يخطب ويتزوج بنت عمرو بن هشام المعروف بأبي جهل لعنه الله، وكان عدواً لله ولرسول الله ﷺ، فلا يرضى الله تعالى أن يجمع بيت علي كرم الله وجهه بين بنت رسول الله ﷺ وبنت عدو الله وعدو رسوله ﷺ.

ومن هو أبوها، إنه أبو جهل الكافر، عدو الله وعدو رسوله ﷺ، وعدو المؤمنين، تكون زوجة لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه وهو ابن عم النبي ﷺ وصهره، وتجتمع مع الزهراء رضي الله عنها بنت رسول الله ﷺ في بيت واحد، وليس في زواج علي كرم الله وجهه منها ما يفرح الزهراء بل يسبب لها ألماً ويعكر صفو حياتها.

فبنت عدو الله تعكر صفو بنت رسول الله ﷺ!!! وأي شيء يعكر صفو بنت رسول الله ﷺ كما يعكره أن تكون بنت أبي جهل ضرتها، وهو من هو في عداوته لله ورسوله.

خرج الرسول ﷺ إلى المسجد مغضباً حتى بلغ المنبر فخطب الناس فقال: «إن بني هشام بن المغيرة استأذنوني أن ينكحوا ابنتهم علي بن أبي طالب، فلا آذن لهم، ثم لا آذن لهم، ثم لا آذن لهم، إلا أن يريد علي بن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم، واني لست أحرم حلالاً، ولا أُحِلُّ حراماً، لكن والله لا تجتمع بنت رسول الله ﷺ ـ وبنت عدو الله أبداً»[1].

وفي رواية: قال المصطفى ﷺ: إن فاطمة بضعة مني وأنا أتخوف أن تفتن في دينها، وإني لست أحرم حلالا، ولا أحل حراماً، ولكن والله لا تجتمع بنت رسول الله، وبنت عدو الله عند رجل واحد أبداً[2] وفي رواية مسلم فترك

---

(١) رواه البخاري في كتاب النكاح باب «ذب الرجل عن ابنته».
(٢) رواه الشيخان وأحمد وأبو داود وابن ماجه.

علي الخطبة .

ثم ذكر النبي ﷺ صهره « أبا العاص بن الربيع » ـ وهو من بني عبد شمس، لا من بني عبد المطلب كعلي ـ فأثنى عليه في مصاهرته اياه أحسن الثناء وقال: « حدثني فصدقني، ووعدني فوفى لي، واني لست أحرم حلالاً، ولا أحل حراماً، ولكن والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله أبداً »[1].

تقول الدكتورة بنت الشاطىء: ولقد ورد هذا الحديث في الكتب الستة الأمهات، ومسند أحمد بن حنبل، ولكن أحداً من الرواة لم يذكر لنا وقعه على المسلمين، وصداه في المدينة.

فعلينا أن نتصور مدينة الرسول وقد باتت ليلتها ساهرة، تؤمِّن على قول النبي ﷺ، وترى فيه آية ناطقة بأبوته الرحيمة التي كانت مضرب الأمثال، ودليلاً جديداً من أدلة حبه لبناته، هذا الحب الذي شاء الله أن يملأ به قلب النبي المختار في بيئة وأدت بناتها.

وقد جاء عن الشعبي قال: جاء علي إلى رسول الله ﷺ يسأله عن ابنة أبي جهل وخطبتها إلى عمها الحارث بن هشام، فقال النبي ﷺ عن أي بالها تسألني؟ عن حبها؟ فقال: لا ولكن أريد أن أتزوجها أتكره ذلك؟ فقال النبي ﷺ: إنما فاطمة بضعة مني وأنا أكره أن تحزن أو تغضب فقال علي رضي الله عنه: فلن آتي شيئاً ساءك.

والأحاديث كلها تذكر أن علياً رضي الله عنه عندما علم رأي النبي ﷺ ترك الخطبة. ولم يكن يهون عليه وهو صاحب الجهاد العظيم في سبيل الدعوة الإسلامية وقلبه مفعم بحب رسول الله ﷺ أن يأتي أمراً يكرهه رسول الله ﷺ

---

(١) مسند أحمد ٤: ٣٢٦،٣٢٨، أبو داود كتاب ١٢، وابن ماجه ٩: ٥٦.

بهذا الزواج . مادام إزعاج السيدة فاطمة يزعجه ﷺ ومادام ايذاؤها رضي الله عنها إيذاء له .

ولن يكون أبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله ﷺ أوفى منه ولا أرعى لحق النبي ﷺ منه .

لذلك فإنه ما تردد لحظة واحدة عن ترك الخطبة حين قال رسول الله ﷺ ما قال بل إننا نستطيع أن نقول مطمئنين أنه ما ندم في حياته على شيء كما ندم من هذه الخطبة التي أوشكت أن تغضب رسول الله ﷺ وتغضب زوجته الكريمة الأثيرة فاطمة رضي الله عنها .

وفي هذه الأحاديث نص على الحكمة في معارضته ﷺ ذلك الزواج :

١ - منزلة السيدة فاطمة من النبي ﷺ وإن فاطمة بضعة مني يؤذيني ما يؤذيها والرسول بشر .

٢ - اني لأتخوف أن تفتن في دينها .

٣ - لا تجتمع بنت رسول الله ﷺ وبنت عدو الله في بيت رجل واحد أبداً .

ويتجلى الكمال البشري في أنه لا يكره علياً على شيء فإن أراد الزواج فهو حلال له فإن كان يرغب بالزواج فليطلق فاطمة .

ولم يكن أبو الحسن بالذي يفعل ما يؤذي رسول الله ﷺ أو يؤذي فاطمة رضي الله عنها .

فلم يقع هذا الزواج من أبي الحسن كما جاءت الأحاديث تنص على ذلك والذي يظهر بأنّ جميع ما تكلم به رسول الله ﷺ أقره الوحي ولو كان خطأ لنهى عنه فإن النبي ﷺ لا يقر على خطأ ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ .

فقدر رسول الله ﷺ عند الله عظيم وقدر السيدة فاطمة رضي الله عنها عظيم لقدر أبيها .

وقد ذكر الحافظ ابن حجر في فتح الباري أن زواج علي من فاطمة بعد بدر في السنة الثانية من الهجرة وتستنتج بنت الشاطىء أن تكون الخطبة قبل ولادة الحسن رضي الله عنه فإنه ولد في رمضان سنة ثلاث من الهجرة عند الأكثر وقيل بعد ذلك .

وكان مولد الحسين رضي الله عنه في شعبان سنة أربع من الهجرة في قول الأكثر ونؤيد فكرة بنت الشاطىء بأن تكون الخطبة قبل ولادة الحسن رضي الله عنه والمخطوبة هي جويرية أسلمت وبايعت .

ومن تتبع الروايات يظهر والله أعلم أن علياً خطب فقالوا لا نزوجك على فاطمة فكان ذلك سبب استئذانهم المروي في الصحاح .

وجاء أن علياً استأذن بنفسه كما أخرجه الحاكم بإسناد صحيح عن سويد بن غفلة قال : خطب علي بنت أبي جهل إلى عمها الحارث بن هشام فاستشار النبي ﷺ فقال عن حبها تسألني . . الخ الحديث .

ولعل هذا الاستئذان وقع بعد خطبة النبي ﷺ بما خطب ولم يحضر علي الخطبة المذكورة فاستشار فلما قال له : لا لم يتعرض بعد ذلك لطلبها ولذلك جاء آخر حديث الشعبي عن الزهري فترك علي الخطبة .

قال ابن التين : « أصح ما تحمل عليه القصة أن النبي ﷺ حرم على علي أن يجمع بين ابنته وبنت أبي جهل لأنه علل بأن ذلك يؤذيه وأذيته حرام بالاتفاق ومعنى قوله : «لا أحرم حلالا» أي هي له حلال لو لم تكن عنده فاطمة وأما الجمع بينهما الذي يستلزم تأذي النبي ﷺ لتأذي فاطمة به فلا» . اهـ .

وزعم غيره أن السياق يشعر بأن ذلك مباح لعلي لكن منعه النبي ﷺ رعاية لخاطر فاطمة وقبل هو ذلك امتثالاً لأمر النبي ﷺ .

وبعد هذا قال ابن حجر في فتح الباري :

« والذي يظهر لي أنه لا يبعد أن يعد من خصائص النبي ﷺ أن لا يتزوج

على بناته، ويحتمل أن يكون ذلك خاصاً بفاطمة رضي الله عنها»[1] لمكانتها ودورها العظيم وموقفها وجهدها وجهادها وحب الله عز وجل لها وما أعطاها من خصائص حتى جعلها من الرائدات العظيمات مع مريم بنت عمران وآسيا وخديجة بنت خويلد والله أعلم.

وقد اختصت أمها خديجة بأن تكون الزوجة الوحيدة لرسول الله ﷺ طيلة حياتها الزوجية إلى أن اختارها الله سبحانه إلى جواره فلم تعرف ضرة أبداً مع زوجها الحبيب المصطفى ﷺ.

ومن المهم ونحن نناقش هذا الأمر الخاص بالسيدة فاطمة أن لا نناقشه أو ننظر إليه بمعزل عن بقية خصائصها وفضائلها بل لابد من تحليله على ضوء الأحداث الكلية التي مرت بها، فإنه مثلاً في الوقت الذي سمح لنساء المسلمين لبس الذهب والفضة ونحو ذلك رأينا كيف غضب رسول الله ﷺ عندما رأى في جيد السيدة فاطمة قلادة واحدة تتزين بها مثل بقية النساء، مما دعاها وهي المحبة الحبيبة لأبيها الحريصة على رضاه وطاعته أن تسرع فتبيعها وتشتري بها عبداً تعتقه لوجه الله تعالى. وقس على هذا الكثير مما مر بنا من خصائص لهذه السيدة العظيمة التي تعبت كثيراً من الخدمة في بيتها حتى أثرت الرحى في يدها ففكرت في طلب خادم من السبي لتعينها والتمست ذلك من رسول الله ﷺ فلم يعطها وإنما علمها وزوجها الدعاء الذي مر بنا في وقت أعطى فيه لكثير من المسلمين المحتاجين والمؤلفة قلوبهم وغيرهم.

فالموضوع إذاً ليس مجرد منع أو إيثار ولكنه من خصائص هذه السيدة العظيمة لأنها بضعة من المصطفى ولأنها ذات مكانة مميزة ودور متميز

---

(١) فتح الباري ٩: ٢٤٠.

ومحبة خاصة لوالدها الذي قال في صراحة يريبني ما يريبها . . فهي فاطمة الزهراء البتول بنت المصطفى وأم الحسنين وزوج علي المرتضى رضي الله عنها وأرضاها وجزاها خير الجزاء عن كل ما عملته وما قامت به فقد كانت سيدة عظيمة بحق .

*****

مولد الحسن والحسين رضي الله عنهما

حدثت تلك الجفوة وفي أحشاء الزهراء رضي الله عنها جنين، من صلب علي كرم الله وجهه، وقد انقشعت تلك السحابة التي ظللت أفق الزهراء حيناً من الزمان، وعاد البيت أصفى جواً مما كان قبل أن يمتحن هذا البيت المؤمن بتلك التجربة القاسية.

ومضت الحياة تسير بالزوجين الكريمين على ما يرجوان من التعاون والمودة والرحمة، وأسباب المعيشة ليست ميسرة.

فالماء يجلب بالسقاء، ويحمل في القرب، والخبز يحتاج الطحن والعجن والخبز، والأسواق متناثرة حول المدينة، والخروج إليها لشراء الحاجات متعب.

ولا قدرة لعلي أن يستخدم خادماً، وعلي يسعى للحصول على رزقه، كما يقوم بواجبه نحو دينه.. والجهاد في سبيل الله تعالى، وعلى الرغم من كل هذا الكدح المعيشي، وهذا التعب من أجل ضراورات الحياة.. تحقق للبيت الصغير السعادة والاستقرار، وأدت فاطمة واجبها وأكرمت علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ولم تقصر في حقه وواجباته.

كل هذا وهي حامل بالحسن وما للحمل من مشاق تضاف إلى مشقات الحياة التي يحيونها بين قسوة الظروف وهجير الصحراء.

قالت أم الفضل زوجة العباس رضي الله عنهما: يا رسول الله رأيت كأن عضواً من أعضائك في بيتي، قال ﷺ: خيراً رأيت، تلد فاطمة غلاماً فترضعيه بلبن قثم، فولدت فاطمة الحسن فأرضعته بلبن قثم.

واقترب موعد الولادة، وبدأت الاستعدادات في منزل الزهراء ترقباً للمولد المنتظر، وفي النصف من شهر رمضان سنة ثلاث من الهجرة، استقبلت الزهراء رضي الله عنها، مولودها الأول.

وسعى البشير إلى أبيها ﷺ بالنبأ السعيد، فمشى إليها ﷺ مشوقاً فرحاً، وحمل وليدها بين ذراعيه، وتلا الأذان في مسمعه، ثم أقبل عليه يتأمله في غبطة وحنان.

يقول علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: لما ولد الحسن جاء رسول الله ﷺ فقال: أروني ابني، ما سميتموه؟

قلت: سميته حرباً، قال رسول الله: لا بل هو حسن.

واحتفل النبي ﷺ بمولده، فصنع عقيقة في يوم سابعه، وحلق شعره وتصدق بزنة شعره فضة.

وكان الحسن رضي الله عنه أشبه خلق الله بالرسول ﷺ في وجهه. فقد روى الزهري عن أنس قال: كان الحسن بن علي أشبههم وجهاً برسول الله ﷺ:

وعن هانىء عن علي قال: الحسن أشبه برسول الله ما بين الصدر إلى الرأس، والحسين أشبه برسول الله ﷺ ما أسفل من ذلك[١].

وكان رسول الله ﷺ يحبه حباً شديداً حتى كان يقبل زبيبته[٢] وهو صغير، وربما مص لسانه، وعانقه وداعبه، وربما جاء ورسول الله ﷺ ساجد في الصلاة فيركب على ظهره، ويقره على ذلك ويطيل السجود من أجله، وربما أصعده على المنبر[٣].

---

(١) رواه أحمد. وانظر البداية والنهاية لابن كثير ٨: ٣٣.

(٢) الزبيبة: زبدة ترى في شدق الإنسان إذا أكثر الكلام وقيل قرحة سوداء تظهر على الجبين.

(٣) البداية والنهاية ٨: ٣٣.

وملأ الحسن رضي الله عنه منزل علي كرم الله وجهه، بهجة وسروراً، وامتلأت حياة فاطمة الزهراء رضي الله عنها نشوة وحبوراً، وكان يسعدها كثيراً أن ترى النبي ﷺ، يعنى بمولودها الصغير عناية فائقة، ولا يصبر كثيراً على فراقه فكان يمر على بيت الزهراء رضي الله عنها صباحاً لرؤيتها ورؤية الحسن ومساء قبل أن يعود إلى بيته، ليكحل عينه برؤية طلعة الوليد البهية، شبيهه ﷺ وريحانته.

كان حب النبي ﷺ لفاطمة عظيماً، وكانت المودة بينهما مضرب المثل، وكانا يتبادلان الحنان والمودة ليس كأب وابنته فقط، ولكن كحبيبين عاشا في رحاب الله تعالى.

فعن أبي ثعلبة الخشني قال: كان رسول الله ﷺ إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى ركعتين ثم ثنى بفاطمة، ثم يأتي أزواجه.

قدم من سفر فصلى ركعتين، ثم أتى فاطمة، فتلقته على باب القبة، فجعلت تلثم فاه، وعينيه، وتبكي، قال: ما يبكيك؟ قالت: أراك شعثاً، نصباً قد اخلولقت ثيابك!![1]

فقال لها: لاتبكي، فإن الله عز وجل بعث أباك بأمر لايبقى على ظهر الأرض نبت ولا مدر، ولا حجر، ولا وبر، ولا شعر إلا أدخل الله به عزاً وذلاً[2].

ومما تقدم يتضح أن مكانتها عند أبيها كانت عظيمة، ويؤكد هذا أيضاً ما رواه ثوبان رضي الله عنه حين قال: كان رسول الله ﷺ إذا نوى سفراً يكون آخر عهده إتيان فاطمة، وأول ما يدخل عليه إذا قدم فاطمة.

وعظم هذه المكانة لا يأتي من فراغ، إنما لحب الرسول ﷺ لشخصها

---

(١) فعل غبار السفر برأسه وشعره وثيابه ما فعل، فأصبح شعثاً وصارت ثيابه خَلِقة.

(٢) رواه الطبراني وأبو نعيم. ورواه الحاكم بنحوه في المستدرك ٣:١٥٥.

الكريم رضي الله عنها، وحب الرسول ﷺ هو مقدمة لحب الله تعالى، ففوزها بحب الله تعالى، يرفع من مكانتها درجة لا تدنو منها سيدة أخرى، وهذا يذكرنا بحديث المصطفى ﷺ عن ابن عباس رضي الله عنه ـ مرفوعاً ـ : «أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم»[1].

وعلى الرغم من هذه المنزلة العالية التي خص الله تعالى بها بنت نبيه ﷺ، فقد كان النبي ﷺ يتعهدها وأخواتها بالنصيحة والتوجيه ويحثها على زيادة العبادة والتضرع إلى الله تعالى حتى يكون ذلك استزادة لمنزلتها رضي الله عنها.

فقد كانت رضي الله عنها وأرضاها صوامة قوامة، ترى كثيراً وهي قارئة للقرآن الكريم، ولسانها رطب بذكر الله تعالى، وفي يوم رآها النبي ﷺ جالسة صامتة، وهاله أنها هكذا، ولا ترطب لسانها بذكر الله تعالى، فعتب عليها المصطفى ﷺ عتاباً رقيقاً، وقد روى أنس بن مالك عنه ﷺ أنه قال :

يا فاطمة، ما يمنعك أن تسمعيني ما أوصيك به أن تقولي: «ياحي يا قيوم برحمتك أستغيث، فلاتكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله»[2].

وفي رواية أخرى عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، أنه قال: «يا فاطمة، مالي لا أسمعك بالغداة والعشي تقولين: يا حي ياقيوم برحمتك أستغيث أصلح لي شأنه كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين»[3].

---

(١) رواه أحمد والترمذي بإسناد صحيح. وانظر سنن الترمذي. أبواب المناقب.

(٢) رواه البيهقي، ورواه الديلمي في الفردوس برقم ٨٦٥٣، وانظر جمع الجوامع ١ : ٩٧٥.

(٣) رواه الخطيب، وانظر جمع الجوامع ١ : ٩٧٥.

وهكذا كان الرسول ﷺ لا يفتأ يتابعها بالتوجيه النبوي الكريم، حثا لها على كثرة العبادة والذكر . .

وكان يدفعها إلى ذلك بأسلوب رفيع السمات، يبعث الهمة في النفس الخاملة، فما بالنا بمن كانت نفسه تشتعل همة، ولا تفتر عن العبادة طرفة عين، وتحكي فاطمة الزهراء عن أبيها فتقول : قال لي رسول الله ﷺ: « يا فاطمة، أما ترضين أن تأتي يوم القيامة سيدة نساء العالمين»[1] .

وهذا توجيه لطيف كريم من نبي الله ﷺ ليبعث الهمة في نفسها لتشتعل عبادة متواصلة حتى تحافظ على هذه المنزلة العالية عند الله تعالى .

وإننا لنتصور أن من زُحزح عن النار وأُدخل الجنة، فقد فاز فوزاً عظيماً، ولنا أن نتصور أيضاً أن من فازت بالجنة، ثم أصبحت سيدة نساء المؤمنين يوم القيامة . أي منزلة قد بلغت وأي عبادة تلك التي تصل بصاحبها إلى تلك المنزلة الرفيعة من منازل الفردوس ؟

ومضت الأيام سريعة وحملت الزهراء رضي الله عنها جنينها الثاني، وبدأ الحسن رضي الله عنه يدب على الأرض ويمشي، وجده المصطفى ﷺ يحبه ويرعاه، ويدعو له .

يقول أبو نعيم في حلية الأولياء : قال لي أبو هريرة : ما رأيت الحسن قط إلا فاضت عيناي دموعاً، وذلك أنه أتى يوماً يشتد حتى قعد في حجر رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ يفتح فمه ثم يدخل فمه في فمه ويقول : اللهم إني أحبه فأحبه، يقولها ثلاث مرات[2] .

وأوشك حمل الزهراء رضي الله عنها أن تكتمل أيامه، وبدأ بيت علي بن

---

(١) رواه الديلمي، وانظر جمع الجوامع ١ : ٩٧٤ .

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم ١ : ٣٥.

أبي طالب كرم الله وجهه يستعد لاستقبال مولود جديد آخر.

وبدأ المخاض، وبدأت ساعة الوضع تقترب، وجلس علي كرم الله وجهه وفي حجره ابنه الحسن رضي الله عنه.. وشرد ذهنه بعيداً، عاد به خياله إلى ماضي الأيام، يوم أراد أن يتزوج بنت أبي جهل.. وكيف غضب المصطفى ﷺ، من أجل ابنته، واتضح لعلي كرم الله وجهه مدى حب المصطفى ﷺ للزهراء رضي الله عنها..

ولعله قد عاد بخياله يوم أن انتهى به المسير إلى البيت بعدما صعد الرسول ﷺ إلى المنبر وخطب في الناس تلك الخطبة القصيرة في كلماتها الكبيرة في معانيها، عاد حيث يجد الزهراء رضي الله عنها في وحدتها تجتر أحزانها، وتسامر همومها، فيدنو منها حتى يأخذ مكانه إلى جانبها صامتاً لا يدري ماذا يقول!!

وإذ رآها تبكي همس معتذراً: هبيني أخطأت في حقك يا فاطمة، فمثلك أهل للعفو والمغفرة.. ومضت قطعة من الليل قبل أن تجيب بصوت فيه حنان ودموع تنم عن حب دفين: غفر الله لك يا ابن العم. فأقبل عليها مترفقاً، ثم راح يروي لها ما كان من حديث المسجد، ويصف لها شعوره حين سمع رسول الله ﷺ يتحدث عن ضيقه بالأذى يلحق ابنته فاطمة، وإنكاره أن يتزوج علي من بنت أبي جهل مع الزهراء، وقسمه ﷺ ألا تجمع بنت رسول الله ﷺ وبنت عدو الله أبداً. واغرورقت عينا فاطمة تأثراً بحديث علي كرم الله وجهه، وفاضت بالدمع تأثراً بحب أبيها ﷺ.

مرت هذه الخيالات سريعة سريعة في ذاكرة علي كرم الله وجهه، ثم أفاق منها فجأة على صوت الوليد الجديد، لقد بشروه بمولود ذكر، وطاف في ذهن أبيه رضي الله عنه سريعاً سؤال: هو ماذا يسميه؟ وعلى الفور أجاب على نفسه: أسميه حرباً حتى يكون حرباً على الكافرين!!

واستراحت نفس علي كرم الله وجهه لهذا الاسم، وهو الاسم الذي كان قد اختاره لأخيه الحسن رضي الله عنه، ولكن الرسول ﷺ سماه الحسن ولم يجزم علي رضي الله عنه بتسميته لقد فوض الأمر للرسول ﷺ في هذا الأمر مع احتفاظه بالاسم الذي أطلقه على وليده إذا سئل من الرسول ﷺ أجابه به.

وذهب البشير إلى المصطفى ﷺ، ليزف إليه بشرى ولادة الزهراء لوليد يتلألأ نوراً ويفيض وجهه بشراً وبشاشة، وهرول المصطفى ﷺ مسرعاً إلى بيت ابنته، وحمل الوليد بين يديه، وأذن ﷺ في أذنه.

ثم سأل علياً كرم الله وجهه: «ما سميتموه؟».

أجاب علي كرم الله وجهه: سميته حرباً. فقال المصطفى ﷺ بل هو حسين.

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: لما ولد الحسن سميته حرباً، فجاء رسول الله ﷺ، فقال: أرونى ابني ما سميتموه؟!

قلنا حرباً. قال: بل هو حسن، فلما ولد الحسين سميته حرباً، فجاء رسول الله ﷺ فقال: أروني ابني، ما سميتموه؟ قلنا حرباً، قال بل هو حسين[1].

أمّا عن مولده رضي الله عنه، فقد قال الليث بن سعد، ولدت فاطمة رضي الله عنها، الحسين بن علي رضي الله عنه، في ليال خلون من شعبان سنة أربع من الهجرة[2].

وقال الزبير بن بكار: ولد الحسين لخمس خلون من شعبان سنة أربع من

---

(١) انظر أسد الغابة ٢: ١٩.

(٢) المرجع السابق، وانظر الطبقات والاستيعاب والإصابة في ترجمتي الحسن والحسين رضي الله عنهما، وانظرهما في كتاب المناقب من صحيح البخاري، والفضائل من صحيح مسلم.

الهجرة[1].

وابتهجت مدينة رسول الله ﷺ بمقدم الحسين كما ابتهجت من قبل مع الرسول ﷺ بمولد الحسن، وعق النبي ﷺ عنه يوم السابع، وتصدق بزنة شعره فضة كما فعل مع أخيه الحسن رضي الله عنهما.

ومضت الأيام سراعاً، وكبر الحسن فقد بلغ من العمر حوالي سنتين وأصبح شبه ملازم لجده المصطفى ﷺ. وقد تجلى الكرم والحنان والحنو الأبوي، وتجلت الرحمة والعطف في أبهى الصور، في مواقف النبي ﷺ مع ابن بنته الحسن وفيما بعد مع الحسين رضي الله عنهما.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يحمل الحسن على عاتقه فقال رجل: نعم المركب ركبت يا غلام. فقال النبي ﷺ: ونعم الراكب هو.

وعن البراء رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ واضعاً الحسن بن علي على عاتقه، وهو يقول: «اللهم إني أحبه فأحبه وأحب من يحبه»[2].

وهكذا نرى من حنان النبي ﷺ أن يحمل على عاتقه الحسن دائماً، وكان يغدق عليه ﷺ من عطفه الكثير.

وكان يرى فيه أنه سيكون أمة من الأمم وحده، فقد قال ﷺ: «الحسن سبط من الأسباط».

وعن أبي بكرة رضي الله عنه قال: صعد النبي ﷺ المنبر فقال: «إن ابني هذا سيد، يصلح الله به بين فئتين عظيمتين»[3].

---

(١) المرجع السابق.
(٢) أسد الغابة ٣: ١٤.
(٣) رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم وابن الأثير في أسد الغابة.

وفي رواية عن أبي بكرة أيضاً قال : كان رسول الله ﷺ يصلي بالناس، وكان الحسن بن علي ـ رضي الله عنهما ـ يثب على ظهره إذا سجد، ففعل الحسن ذلك غير مرة.

فقالوا له ـ أي للرسول ﷺ ـ إنك لتفعل بهذا شيئاً ما رأيناك تفعله بأحد، قال: «إن ابني هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين من المسلمين»[1].

وفي حديث آخر : «إن ابني هذا سيد، وعسى الله أن يبقيه حتى يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين» رواه جماعة من الصحابة[2] رضوان الله عليهم.

وتفتح قلب المصطفى ﷺ لهذين الحفيدين الغاليين يملآن حضن أم أبيها الزهراء رضي الله عنها، ورأى فيهما امتداداً لحياته الخاصة على هذه الأرض، ومتنفساً لما يفيض به قلبه الكبير من عاطفة الأبوة، والحنو على الأطفال الصغار منذ أن ماتت خديجة رضي الله عنها، ومنذ أن كبرت بناته رضي الله عنهن.

فقد مرت الأحداث سريعة، فما هي إلا أيام وقد جمعت قريش جموعها، واتجهت نحو المدينة المنورة لقتال المسلمين فقد أغراهم ما أصابوه من المسلمين في أحد من هفوة من الرماة رغم أنه في النهاية كان نصراً مبيناً. وكانت هذه الغزوة الجديدة التي سميت بالخندق أو الأحزاب في شوال سنة خمس من الهجرة، وكانت من الحوادث التي لها أثر بعيد في تاريخ الإسلام والمسلمين، وفي المهد الإسلامي، وكانت معركة حاسمة، ومحنة ابتلي فيها المسلمون ابتلاء لم يبتلوا بمثله[3].

---

(١) أسد الغابة ٣: ١٤.
(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ١: ٢٣٠.
(٣) انظر تراجم سيدات بيت النبوة ص ٦٢٥.

ولا تصوير أدق وأصدق من قول الله تعالى : ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾[1] .

وقد تجلت في هذه الغزوة عبقرية علي كرم الله وجهه الحربية لأول مرة في أروع مظاهرها وذلك حين طلب عمرو بن عبد ود مبارزاً فقام إليه يستأذن رسول الله ﷺ في مبارزته فقال له : إنه عمرو، فقال علي وإن كان عمراً فأذن له فبارزه فقتله، وكان الخندق ـ الذي حفره المسلمون بإشارة سلمان الفارسي رضي الله عنه في السهل الواقع شمال غرب المدينة، والجانب المكشوف الذي يخاف منه اقتحام العدو ـ حائلاً بين المسلمين وبين قريش وغطفان الذين بلغ عددهم عشرة آلاف .

وأقبلت فوارس . من قريش تسرع بهم خيلهم حتى وقفوا على الخندق، فلما رأوه قالوا : والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها، ثم تيمموا مكاناً ضيقاً من الخندق، فضربوا خيلهم فاقتحمت منه، فجالت بهم في أرض المعركة التي نزل بها المسلمون .

ومنهم الفارس المشهور عمر بن عبد ود الذي كان يقوم بألف فارس . فلما وقف قال : من يبارز؟

فبرز علي بن أبي طالب كرم الله وجهه . فقال : يا عمرو، إنك كنت عاهدت الله لا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه .

قال عمرو : أجل .

قال علي : فإني أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام .

قال عمرو : لا حاجة لي بذلك .

---

(١) سورة الأحزاب الآية (١٠-١١).

قال علي كرم الله وجهه : فإني أدعوك إلى النزال .

فقال عمرو : لم يا ابن أخي؟ فوالله ما أحب أن أقتلك .

قال علي : لكني والله أحب أن أقتلك .

فحمي عمرو عند ذلك، فاقتحم عن فرسه فعقره وضرب وجهه، ثم أقبل على علي رضي الله عنه، فتنازلا وتجاولا، فقتله علي رضي الله عنه وأرضاه[١] .

وجاء في رواية أخرى أن عمراً نادى على رجل يبرز، وجعل يؤنبهم ويقول : أين جنتكم التي تزعمون أن من قتل منكم دخلها، أفلا تبرزون إلي رجلاً؟

وقام علي كرم الله وجهه مرتين، فقال : أنا يا رسول الله، فقال له المصطفى ﷺ : اجلس .

ثم نادى عمرو الثالثة واستثار، فقام علي فقال : يا رسول الله أنا .

فقال له رسول الله ﷺ : إنه عمرو .

فقال علي كرم الله وجهه في تحد ظاهر : وإن كان عمراً .

فأذن له الرسول فمشى كرم الله وجهه إليه، فلما سمى علي رضي الله عنه نفسه لعمرو .

قال عمرو : يا ابن أخي من أعمامك من هو أسن منك، فإني أكره أن أهريق دمك .

قال علي كرم الله وجهه : لكني والله لا أكره أن أهريق دمك[٢] .

فكانت المجالدة، واستطاع علي كرم الله وجهه أن يقتل عمراً بن عبد ود[٣]

---

(١) المرتضى ص٥٣ .

(٢) البداية والنهاية. لابن كثير ٤ : ١٠٠(بتصرف).

(٣) المرجع السابق ٤ : ١٠٦ .

وكبر المسلمون وهللوا، فقد كان هذا بشير نصر مؤزر من الله تعالى.

وتعجب المشركون في ذهول مما حدث أيقتل الفتى الشاب علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، عمرو بن عبد ود الذي قدمه المشركون للمبارزة لأنه أفضل الفوارس عندهم وأقواهم.

وانتشر الخبر ـ خبر مقتل عمرو بن عبد ود ـ وتلقته الزهراء رضي الله عنها، بقلب فرح، فقد خلص زوجها المؤمن، وأبو أولادها، خلص المؤمنين من شر فارس عتيد، وبرزت على ساحة المسلمين قوة زوجها وجلده وشكيمته.

ووضعت الحرب أوزارها بعد ما حدث خلاف بين بني قريظة ـ الذين حالفوا قريشاً ـ وبعد أن بعث الله على الأحزاب الريح العاصفة في ليال شاتية باردة، تقلب قدورهم، وتطرح أبنيتهم[١].

ولم ترجع قريش بعدها إلى حرب المسلمين، وقال رسول الله ﷺ: «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا، ولكنكم تغزونهم»[٢].

عاد المسلمون في غزوة الأحزاب وسط تكبير وتهليل وخرج من في المدينة لاستقبال الأبطال العائدين، وكانت فرحة الزهراء رضي الله عنها لا توصف برجوع بطلها المغوار وبطل المسلمين زوجها الميمون علي كرم الله وجهه.

وعاد الزوج الحبيب إلى زوجته الطاهرة، وولده الحسن الذي اعتنقه وتعلق في رقبته، وحنا على ولده الرضيع الحسين وحمله بين يديه، وأخذ يقبله تقبيلاً حاراً، ثم أمضوا ليلة سعيدة مباركة احتفالاً بنصر المسلمين وببطولته الفذة.

---

(١) المرجع السابق بتصرف.

(٢) اقرأ سورة الأحزاب وكتب السيرة في هذه الغزوة وأيضاً تفسير السورة في كتب التفسير.

وتمضي الأيام سريعة والمسلمون لا يألون جهداً في الدعوة إلى الله تعالى، وبدأ الإسلام دين الله الحنيف ينتشر انتشاراً سريعاً، وبدأ الناس يدخلون في دين الله أفواجاً.

وذات يوم أخذت الزهراء رضي الله عنها، سنة من النوم، ثم هبت من نومها، وطيف أمها الرؤوم رضي الله عنها، يعانق نظرها أينما اتجه.

فأخذت الحسن والحسين رضي الله عنهما ومضت إلى بيت أبيها ﷺ، فإذا بخالتها هالة قد جاءت لزيارة المدينة المنورة وزيارة صهرها المصطفى ﷺ وابنة أختها فاطمة رضي الله عنهما.

وسمع النبي ﷺ صوتها في فناء بيته، وكان يشبه صوت السيدة أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها، فهش المصطفى ﷺ قائلاً: « اللهم هالة أخت خديجة ».

ووجدت الزهراء رضي الله عنها، كأن أباها يحدث أمها رضي الله عنها، ووجدت مدى الفرحة التي في عينيه حين رأى خالتها، ورأت حنينه لذكرى أمها رضي الله عنها، ووده لرحمها ووفاء لذكرها.

واطمأنت فاطمة الزهراء، حين رأت أن أمها الراحلة، مازالت تملأ فكر أبيها ﷺ، ومازالت تحيا في خياله، وأحست أن أمها تركت في قلب أبيها ﷺ مكانة لم تملأها امرأة بعدها فلم تبلغ زوجة من زوجاته منزلتها.

وكانت الزهراء تفرح وهي ترى الوالد الحنون مقبلاً على سبطيه الحسن والحسين رضي الله عنهما يغمرهما بحبه ويفيض عليهما من عواطف الأبوة الحانية.

وكانت تفرح حين تراه يدعوهما ﷺ ابنيه، فعن أنس رضي الله عنه: ادع لي ابنيّ. فإذا ما جاءا إليه شمهما وضمهما.

وروى الترمذي في سننه عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما، قال: طرقت

باب النبي ﷺ في بعض الحاجة، فخرج رسول الله ﷺ وهو مشتمل على شيء لا أدري ما هو، فلما فرغت من حاجتي قلت:

ما هذا الذي أنت مشتمل عليه يا رسول الله، فكشفه فإذا الحسن والحسين، وقال:

هذان ابناي وابنا ابنتي، اللهم إني أحبهما فأحبهما، وأحب من يحبهما[1].

وكان اسماهما -رضي الله عنهما- نغمة حلوة في فم أبي الزهراء ﷺ يستعذبها ولا يمل من ترديدها، وفيهما كان أنسه ومسلاته عمن فقد من الأبناء.

وأحست الزهراء أن الله تعالى قد آثرها بهذه النعمة الكبرى، فحصر فيها وفي ولدها ذرية المصطفى ﷺ، وحفظ بها أشرف سلالة عرفتها البشرية منذ كانت.

كما اقتنعت بأن الله تعالى كرم وجه زوجها علي رضي الله عنه، فجعل في صلبه نسل خاتم الأنبياء، فكان له من هذا الشرف عز الأبد.

والحقيقة أن من ينظر في عاطفة المصطفى ﷺ نحو الأطفال يدرك أبعاد هذه الرحمة المهداة للعالمين وأن قلبه كان مليئاً بالحب والعطف والحنان وحب نبي الله ﷺ وشفقته على الأطفال كان عظيماً حتى إنه كان إذا سمع بكاء طفل أثناء الصلاة في المسجد يخفف من الصلاة رحمة بالأم وبالطفل ولا غرو فقد وصفه الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ فما بالك بعطفه وحنانه ورأفته بحفدته.

لقد أحب حفيده علي بن أبي العاص من زينب رضي الله عنهما حباً كبيراً

---

(١) البداية والنهاية ٤: ١١٥.

وأظهر ذلك الحب منذ بشر هو والسيدة أم المؤمنين خديجة بمولد الغلام عند عودتهما إلى مكة المكرمة بعد أن فرج الله سبحانه عن النبي ﷺ والمحاصرين في شعب أبي طالب وفك عنهم هذا الحصار الذي كاد أن يقضي عليهم وكان حب النبي ﷺ لحفيده هذا عظيماً ومن دلائل ذلك أنه ﷺ أردفه خلفه عندما دخل مكة المكرمة مؤيداً بنصر الله العلي العظيم، وكان هذا الحفيد قد جاوز الحادية عشرة من عمره(١).

وكان النبي ﷺ يحب أمامة بنت زينب حباً كبيراً وكان كثير العطف عليها كما كان يدللها في صغرها وكان يحنو عليها عندما شبت: فكان يؤثرها بالهدايا على أحب زوجاته إليه فقد روي: «أنه دخل يوماً على أهله ومعه قلادة جزع(٢) وقال «لأعطينها إلى أحبكن إلي» فقلن(٣): يدفعها إلى ابنة أبي بكر ولكنه دعا بابنة أبي العاص من زينب فعقدها بيده حول عنقها(٤).

وكذلك روت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «أن النجاشي أهدى إلى رسول الله ﷺ حلية فيها خاتم من ذهب فأخذه وأنه لمعرض عنه فأرسل إلى زينب فقال: تحلي بهذا يا بنية».

واتجهت فاطمة الزهراء مع خالتها هالة وقد ارتاح فؤادها بهذه الخواطر المتلاحقة التي دفعت بها دفعاً خالتها لهم في المدينة.

واستقبلت زينب رضي الله عنها، خالتها أحسن استقبال وسألتها عن ابنها أبي العاص أحست الخالة ما يدور في قلب بنت أختها تجاه ابنها أبي العاص

---

(١) انظر تراجم سيدات بيت النبوة، ثم انظر مناقبهما في اللؤلؤ والمرجان كتاب الفضائل حديث ١٥٦٨، ١٥٦٩.

(٢) متفق عليه، وقد ورد في أكثر كتب الطبقات. والجزع: خرز فيه بياض.

(٣) الضمير هنا عائد على زوجات النبي ﷺ.

(٤) الطبقات الكبرى ٨: ٢٧.

وعرفت أن زوجته رغم أن الإسلام قد فرق بينهما إلا أنها مازالت تحمل له كل حب وتكن له كل احترام.

وتمنت زينب رضي الله عنها، كما تمنت فاطمة الزهراء رضي الله عنها أن يسلم ابن الخالة، ويدخل في رحاب الإسلام، فهو من القرشيين الذين يعرفون بحسن الخلق، والمروؤة والشهامة.

وتركت الزهراء رضي الله عنها خالتها هالة بنت خويلد عند أختها، ثم عادت إلى بيتها لتكون في استقبال زوجها رضي الله عنهما، ولتعد له طعاماً يأكله بعد عودته من يوم شاق في البحث عن أسباب الرزق.

عادت وكلها سعادة، ومشت وهي ترفل في البشر والحبور، وكأني بها تردد بينها وبين نفسها، ماذا أريد أكثر من هذا سعادة، ألا يكفيني أن أكون بنت سيد البشر أجمعين، بنت خاتم المرسلين بنت محمد ﷺ وأن أكون إحدى سيدات العالمين يوم القيامة.

وفي المساء في بيت المصطفى ﷺ وعند أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها اجتمع السعداء: علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وزوجته فاطمة الزهراء رضي الله عنها. وذو النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه وزوجته أم كلثوم رضي الله عنها..

وكانوا في انتظار زينب رضي الله عنها ومعها خالتها هالة بنت خويلد، وما أن استأذنت هالة حتى هش لها النبي ﷺ فغارت السيدة عائشة من ترحابه بها وأخذتها الغيرة من ضرتها الراحلة أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها.

تحكي السيدة عائشة عن ذلك فتقول: استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله ﷺ فعرف استئذان خديجة، فارتاع[1] لذلك، وقال

---

(١) ارتاع أي تغير لونه لرؤيتها، وفي رواية مسلم في كتاب الفضائل ٧: ١٣٤ « فارتاح =

اللهم هالة[1]. فغرت فقلت: ما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين[2] هلكت في الدهر وأبدلك الله خيراً منها.

فغضب النبي ﷺ لقول عائشة رضي الله عنه، ثم قال: «لا والله ما أخلف الله لي خيراً منها، لقد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله عز وجل منها الولد».

وفي رواية أخرى للبخاري: «وكان لي منها ولد».

فقالت عائشة رضي الله عنها: فقلت بيني وبين نفسي لا أذكرها بسوء أبداً[3].

وابتسمت البنات الثلاث، فما زالت أمهن تحيا في قلب أبيهم ﷺ، ومازال ثناؤه عليها غضاً طرياً، كأنها معه، ومازال الوفاء لأيامها الماضية، ولمواقفها المشرفة معه، مازال كل ذلك يحيا مع النبي ﷺ، وهذا ما أثلج صدور بناته رضي الله عنهن وصدر خالتهن الحبيبة هالة.

تروي السيدة عائشة رضي الله عنها فتقول: ما غرت على أحد من نساء النبي ﷺ مثلما غرت على خديجة، وما رأيتها. ولكن كان رسول الله ﷺ يكثر من ذكرها، وربما ذبح الشاة يقطعها أعضاء ثم يبعثها إلى صدائق خديجة ـ فربما قلت له: كأن لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة فيقول: «إنها كانت... وكان لي منها ولد».

وروت السيدة عائشة أيضاً أن امرأة عجوزاً زارت النبي ﷺ في بيت عائشة

= لذلك» وهي أصوب.

(1) أي هذه هالة.

(2) أي عجوز كبيرة جداً، ولم يبق لشدقها بياض شيء من الأسنان إنما بقي فيه حمرة لثتها.

(3) الحديث رواه أحمد في مسنده.

رضي الله عنها، فهش لها وأكرمها، وبسط لها رداءه فأجلستها عليه.

فلما انصرفت سألته عائشة عنها، فأخبرها ﷺ « أنها كانت تزورنا أيام خديجة رضي الله عنها[1] .

والأمثلة الدالة على وفاء النبي ﷺ لزوجته الراحلة أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها كثيرة منها[2] :

أن ماشطة أم المؤمنين السيدة خديجة رضي الله عنها وفدت على النبي ﷺ وهو بالمدينة فأكرم وفادتها، ثم قال : « هذه كانت تغشانا في عهد خديجة، وإنّ حسن العهد من الإيمان ».

ورأت فاطمة الزهراء أن المصطفى ﷺ رغم زواجه الخامس إلا أن الأيام تمر بالمدينة، وذكريات أمها رضي الله عنها، لا تفارق بال أبيها ﷺ.

فكان كلما تطرق لذكريات مكة وحياته فيها وكفاحه الذي كافحه، وموقف المشركين منه واستمرارهم على إيذائه تذكر شريكة حياته، ووقوفها بجواره، ورعايتها له، وتشجيعها إياه.

وانصرف الجمع السعيد من عند النبي ﷺ من بيت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، انصرف علي كرم الله وجهه، وهو يحمل على عاتقه ولده الحسن وعلى يديه الحسين رضي الله عنهما ومضت بجواره فاطمة الزهراء رضي الله عنها، إلى بيتها.

وانصرف كذلك عثمان بن عفان رضي الله عنه، وانصرفت معه زوجته أم كلثوم رضي الله عنها، ومضت خالتهن هالة بنت خويلد مع أختهما الكبرى زينب رضي الله عنها.

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم في فضائل خديجة.

(٢) خديجة بنت خويلد المثل الأعلى لنساء العالمين. محمد علي قطب ص٢٣٣.

وكأني بفاطمة الزهراء رضي الله عنها قد باتت قريرة العين، هادئة البال، مطمئنة النفس، فمازال الأب الحنون، والزوج الطيب يحمل ذكريات الأم الراحلة.

وكأني بها وقد طابت نفسها أكثر باهتمامه البالغ بابنها الحسن وابنها الحسين.

وكأني أتخيلها رضي الله عنها وقد سرحت بأفكارها إلى مكة حيث ابن الخالة هالة أبو العاص بن الربيع وتمنت لو يهديه الله تعالى إلى الإسلام ليلتئم الشمل بعد طول فراق.

* * * * *

واستجاب الله الدعاء

كانت ليلة من ليالي جمادى الأولى من السنة السادسة من الهجرة. وكأني بزينب رضي الله عنها قد باتت فيها مؤرقة تسامر ذكريات ألمت بها.

وطاب لها أن تحلم في يقظتها بالغد الذي طال انتظاره، فالمسلمون يزدادون كل يوم قوة وعدداً، وقد دخل في الإسلام ألوف ممن كانوا أشد الناس عداوة له وحرباً عليه، وظهر أن النصر المبين آت دون ريب، كما وعد الله تعالى رسوله ﷺ. . .

وربما ألقت زينب على نفسها سؤالاً: هل يسلم أبو العاص بن الربيع؟ ودنا الفجر، وقامت من رقدتها، وأخذت تستعد لصلاة الفجر الذي دنا، وبدأت خيوط أنواره تنتشر على الأفق.

وبينما هي كذلك شعرت بالباب يطرق في تردد وحذر.

وسألت: من الذي بالباب؟!

فقال في صوت ضعيف مهزول: أبو العاص بن الربيع.

وظنت أنها في حلم يقظة، فما الذي أتى بأبي العاص في هذه الساعة المتأخرة من الليل، لعله طيف الزوج الغائب في مكة.

واتجهت إلى الباب، ولكن الطيف كما هو، واقف، ولكنه شاحب الوجه، واهن القوى، يبدو عليه الاجهاد والقلق الشديد.

ونادت زينب رضي الله عنها: أبو العاص!!

فأجابها بصوته المعهود الذي تحفظه: أجل.. أنا.. أنا.. أنا.. أبو العاص. ثم قال: يا زينب أنا أبو العاص بن الربيع.

ولكنها ظلت غير مصدقة، ما ترى وتسمع، وظلت تنظر إليه بنظرة حالمة، وهي شبه نائمة، واستمرأت أن تبقى هكذا في مكانها، سعيدة بلقيا طيف أبي العاص على غير موعد . . .

ولكنها أفاقت من خيالاتها على صوته ينادي عليها: يازينب أنا أبو العاص ابن الربيع.

وسألته على الفور وتتمنى أن تكون الإجابة التي تحلم بها : ما الذي أتى بك يا أبا العاص؟!

الأجدر بك أن تفتحي أولاً، لأجلس، وأسترد أنفاسي. . فقد أضناني الجهد وأجهدني السفر.

وكأني بزينب قد انفرجت أساريرها إنه فعلا هو أبو العاص.

وانطلق بلال بصوته الرخيم يؤذن لصلاة الصبح، ليشق سكون الليل، فتجيبه أصوات المؤمنين الذين هبوا من مضاجعهم عندما سمعوا الله أكبر. . .

وترددت أصوات تجيب المؤذن. . فانكسر صمت الليل.

وسمعت زينب رضي الله عنها أصوات خطوات أبيها ﷺ، فقد خرج ليصلي بالناس.

وظن أبو العاص أن زينب رضي الله عنها قد نسيته، وهو المجهد المكدود من السفر، فقال :

يا زينب هذا ضيفك ينتظر أن تحييه بعد أن أجهده السرى وأرهقته المطاردة وأضناه الفراق.

وامتلأ وجهها بشراً بنور ابتسامة ارتسمت على شفتيها، وقامت إليه تريد أن تحييه، ولكن كلماته أوقفتها في مكانها : لقد أجهده السرى، وأرهقته

المطاردة وأضناه الفراق وتساءلت : أي مطاردة تلك ، وهو سيد في قومه؟!

وبدأ نور الفجر يظهر ملامح أبي العاص ونظرت إليه نظرة متساءلة عما يدور في داخلها؟!

وقرأ أبو العاص ما تريد عيونها أن تسأله وأجابها على الفور : كلا يا زينب لم آت يثرب مسلماً . . وإنما خرجت تاجراً إلى الشام في أموال لي وأخرى لرجال من قريش، فلما فرغت من تجارتي، وأقبلت قافلاً، لقيتني سرية لأبيك فيها زيد بن حارثة ومعه مائة وسبعون رجلاً، فأصابوا كل ما معي، وأعجزتهم هارباً، حتى إذا جن الظلام جئتك متخفياً مستجيراً.

فعادت إلى مكانها الأول وهي تقول بصوت يخالطه الحزن والفرح : مرحباً يا ابن الخالة، مرحباً أبا علي وأمامة.

ولفهما صمت مشحون بالشجن وغرق الكون من حولهما في سكون خاشع، وبدا كأن الدنيا قد أمسكت أنفاسها للحظات.

ثم تناهى إلى سمعها صوت أبيها يكبر في المسجد، ويكبر الناس معه، ثم بدأ يؤم الناس للصلاة وأخذ يتلو فاتحة الكتاب.

وجلس أبو العاص وهي حيرى لا تدري ماذا تفعل، إنه ابن خالتها، وزوجها وقد فرق الإسلام بينهما، وهو أبو ولدها علي وبنتها أمامة. لابد وأن تجيره، كما جاءها مستجيراً.

وعليها أن تنتظر حتى ينتهي أبوها ﷺ من صلاة الفجر، وتخبره. . ولكن جاءتها فكرة سريعة، ونفذتها في أسرع وقت.

فقد جمعت نفسها ثم وقفت بالباب، وصاحت بأعلى صوتها: أيها الناس، إني أجرت أبا العاص بن الربيع[1] قالتها أكثر من مرة ودخلت إلى

---

(١) الطبقات الكبرى ٢:٦٣، والإصابة ٧:١١٩، والسيرة ٢:٣١٢.

داخل البيت مسرعة توضأت، ثم أخذت تصلي الفجر.

وحمل نسيم الصبح صوتها إلى من في المسجد، فلما سلم المصطفى ﷺ أقبل بوجهه على من معه في المسجد وقال: أيها الناس هل سمعتم ما سمعت؟!

قالوا: نعم... يارسول الله.

فقال ﷺ: «أما والذي نفس محمد بيده، ما علمت بشيء من ذلك حتى سمعت ما سمعت».

ثم أضاف بعد فترة صمت قصيرة: إنه يجير على المسلمين أدناهم وقد أجرنا من أجارت[1].

وانصرف النبي ﷺ فدخل على ابنته وعندها ابن خالتها، فما كادت تراه، حتى هبت واقفة وقالت في ضراعة:

يا رسول الله.. إن أبا العاص.. إن قرب فابن عم، وإن بعد فأبو ولد، وإني قد أجرته...

فنظر الرسول ﷺ نظرة اشفاق من أب عطوف كريم حليم، ثم قال في تأثر وهو يحدث ابنته:

«أي بنية، أكرمي مثواه، ولا يخلصن إليك، فإنك لا تحلين له»[2].

وانصرف المصطفى ﷺ، وهما لا يدريان ما يفعلان، وعلام استقر رأيه فيهما، فنظرا إليه نظرات استفهام حتى غاب ﷺ عن أنظارهما.

وقامت زينب رضي الله عنها لتجهز لضيفها طعاماً، وقلبها يحدثها عن روح الإسلام التي تسري في وجه أبي العاص، لكن حديثه يكذب ما تحس به.

---

(١) الطبقات الكبرى ٢:٦٣، تاريخ الطبري ٢:٢٩٢، وسيرة ابن هشام ٢:٣١٣.

(٢) السيرة ٢:٣١٣، وتاريخ الطبري ١:٢٩٣.

وشعر أبو العاص بكل ما يدور في خلجات نفس زينب رضي الله عنها، وآلمه هذا الفراق الذي شتتهما وأبعده عن ولديه، وكاد قلبه يقفز من صدره ليرى الحبيبين الصغيرين النائمين، علياً وأمامة.

وأحست زينب بما يعاني، فنادته ليرى طفليه النائمين ويجلس بجوارها حتى تعد له الطعام.

ودخل إلى حجرة الطفلين، وألقى عليهما نظرة أب حرمه الفراق من رؤيتهما وحجز دمعة تكاد تقفز من مقلتيه.

فبادرته زينب رضي الله عنها قائلة: ففيم إذن هذا العذاب يا ابن الخالة؟!

فقال على الفور وفي صوته رائحة العبرات: حتى يقضي الله أمره فينا...

فقالت رضي الله عنها في صوت فيه ضعف تخنقه العبرات: فليرحمنا الله يا ابن الخالة.

فرفع وجهه متهللاً وقال: لقد عرضوا علي بالأمس أن أسلم وآخذ ما معي من أموال، فإنها أموال المشركين.

فسألته زينب رضي الله عنها في سرعة وماذا قلت لهم؟!

قال: أبيت هذا، وقلت: بئس ما أبدأ به إسلامي أن أخون أمانتي[1].

وتهلل وجه زينب فرحاً بهذه الكلمات التي تبين ما في نفسه، وما تحس به، ولكنه لم يمهل هذا الفرح في نفسها يتمادى، فقد بدأ يوقظ طفليه النائمين ويعتنقهما في حنان ولهفة.

وفي الصباح أرسل النبي ﷺ من يصحب أبا العاص إلى المسجد، حيث

---

(١) سيرة ابن هشام ٢: ٣١٤.

كان يجلس في جمع من صحابته، بينهم رجال السرية التي أصابت مال أبي العاص.

وقال لهم المصطفى ﷺ: إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم، وقد أصبتم له مالاً، فإن تحسنوا وتردوا عليه الذي له فإنا نحب ذلك، وأن أبيتم فهو فيء الله الذي أفاء عليكم فأنتم أحق به.

فأجاب الجميع في صوت واحد: يا رسول الله، بل نرد عليه ماله. وأسرع الجميع يفعلون ذلك، حتى إن أحدهم ليأتي بالدلو، وبالإناء الصغير، وبالسقاء البالي، إلى أن ردوا عليه ماله بأسره، لم يفقد منه شيئاً[1].

وفرح أبو العاص بن الربيع بسماحة الإسلام والمسلمين، وأكبر في نفسه مواقف النبي ﷺ معه...

وأزمع أبو العاص الرحيل على الفور، فودعه النبي ﷺ وقال وهو يودعه: حدثني فصدقني، ووعدني فوفى لي.

رحل أبو العاص وهو يرمي دار زينب رضي الله عنها بنظرات حانية، ففيها حبيبة القلب. وفيها فلذات الكبد والفؤاد.

مضى في طريقه إلى مكة، وزينب تصدق ما يمليه عليها قلبها تارة، وتكذبه تارة أخرى. ولكن إلى التصديق كانت تميل كثيراً، وخاصة قولته: بئس ما أبدأ به إسلامي أن أخون أمانتي.

وتعد مع نفسها أن أبا العاص قد أسلم، أو أنه على وشك الإسلام وتسأل نفسها، ولماذا لم يعلن إسلامه أمام النبي ﷺ، حتى يجتمع شمل المتفرقين، هي وهو، وأولادهما.

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ٢:٣١٣، وانظر تاريخ الطبري ٢:٢٩٣، وراجع الاستيعاب والإصابة في ترجمة أبي العاص بن الربيع.

بلغ أبو العاص مكة واستقبلته قريش فرحة جذلة، إذ رأته يعود سالماً غانماً بتجارتها وقد عاد بتجارة رابحة وأموال مثمرة لم تمس، وأقبلت قريش عليه تستعجله الحديث عما كان من أمره مع الأعداء في يثرب. . لكنه استمهل القوم الحديث حتى يؤدي لكل ذي حق حقه، ويأخذ كل صاحب مال ماله.

ولم تصبر زينب رضي الله عنها، عما يدور بخاطرها، ويحدثها به قلبها، فأسرعت إلى الزهراء رضي الله عنها لتفضي لها بما يدور في فكرها. . وأخبرت الزهراء رضي الله عنها ما رأته في ووجه وفي حديث وفي دموع أبي العاص.

وبشرتها فاطمة أنه أصبح من الإسلام قاب قوسين أو أدنى ولعل الله تعالى قد استجاب لدعائهم يوم زيارة خالتها هالة بنت خويلد.

بعدما انتهى أبو العاص من توزيع أموال القافلة، اشرأبت أعناق القوم لسماع حديثه عما فعله في يثرب مع اعدائهم.

فوقف أبو العاص بحيث يسمع ثم صاح بأعلى صوته:

يا معشر قريش، هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه؟

قالوا: لا. . وجزاك الله خيراً. . إنك وفي كريم.

فأدار فيهم بصره. . ونظر الجميع إليه، فهم متلهفون لسماع ما حدث له في يثرب. فقال على مهل، وكأنه يزن كل كلمة مما يقول:

أنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله ﷺ، والله ما منعني من الإسلام إلا تخوف أن تظنوا أني إنما أردت أن آكل أموالكم، فلما أداها الله إليكم. . وفرغت منها. . أسلمت[١].

---

(١) انظر الاستيعاب والإصابة في الكنى ترجمة أبي العاص بن الربيع، وانظر السيرة الهاشمية ٢: ٣١٣، وتاريخ الطبري ١: ٢٣١.

وخلف أبو العاص القوم واجمين، كأنما صاعقة قد انقضت عليهم، فتركتهم كالخشب المسندة، وانطللق مسرعاً مستقبلاً المدينة دار الهجرة.

بدأ قلب زينب رضي الله عنها يخفق بالفرحة، وهي لا تعرف لهذا الخفقان سراً، وأخذت تحتضن ابنها وبنتها، وهي لا تعلم لماذا تقبل هكذا على أولادها؟

وذهبت إلى الزهراء لعلها تجد عندها تفسيراً لهذه الفرحة المفاجئة، وبمجرد أن رأتها الزهراء رضي الله عنها أحست بالفرحة تملأ جوانح أختها، وسألتها الزهراء عن سر هذه الفرحة، وقالت: هل جاءك أبو العاص مسلماً؟

وما أن أتمت فاطمة الزهراء كلمتها إلا وكان أبو العاص قادماً، ومتجهاً إلى بيت زينب فهرولت إليه تستوضح الأمر من مجيئه فوجدت على وجهه الذي رأته من قبل وعليه بشر الإسلام. لقد هداه الله وجاء مسلماً.

وشاهد أبو العاص الفرحة الناطقة بما يدور في قلب زينب على وجهها، ولم يكن ما يبدو على وجهه أقل مما يبدو على وجهها، إلا أن مظهر الفرحة، الذي كان يبدو عليه شابه بعض القلق الذي احتفظ به لنفسه ولم يعلنه للحبيبة المنتظرة عودته.

لقد كان سؤالاً يدور في نفس أبي العاص هل ستظل زينب زوجته؟ لقد فرق الإسلام بينهما من قبل، وها هو ذا يعود مسلماً، هل سيجمع الإسلام بينهما مرة أخرى؟

وساوره القلق فترة، ولكنه كان يسمع من المسلمين الذين سبقوه إلى الإسلام أن الإسلام يجب ما قبله، هل سيمحو الإسلام تلك التفرقة التي حدثت بينه وبين زوجته، أم أن الإسلام يجب ما قبله من الشرك فقط. وثارت نفسه قائلة: لا.. إني أعتقد أن الإسلام لا يتجزأ فهو يمحو كل شيء...

وهدأت نفسه وخطاه تمضي إلى المسجد النبوي، ودخل فعانق النبي ﷺ، وأعلن إسلامه، فهلل المسلمون وكبروا حين رأوه يبايع النبي ﷺ، ثم حفوا به مهنئين، مبشرين.

ورغم فرحة المسلمين به التي تبدو حوله، إلا أن ذهنه كان يشرد عنهم في أمره الذي يقلقه : أترى المصطفى ﷺ سيرد عليه زينب رضي الله عنها بعد الذي كان ؟!

ولم يترك أبو العاص نفسه تسترسل في وساوسها بل استجمع شجاعته، وأفصح عما يدور في نفسه للرسول ﷺ. فأثنى المصطفى ﷺ عليه خيراً، ثم قام ﷺ إلى بيته وفي صحبته أبو العاص.

ولاحظت زينب رضي الله عنها، أن أبا العاص رغم فرحته، كانت بعض علامات القلق تبدو على وجهه. . ودار في ذهنها ما دار في ذهن أبي العاص وخاصة أنه لم يكن قد حدث لأحد مثلما حدث لهما . . ولكن الفرحة التي تخفق في قلبها قد أصبحت أشد وحدثها فؤادها أن الشمل الممزق سوف يلتئم.

وعاد الرسول ﷺ إلى بيته ثم مضى ومعه صهره إلى بيت ابنته زينب رضي الله عنها، وانتظر الحبيبان ما سوف ينطق به المصطفى ﷺ.

واجتمع شمل الحبيبين، وتلاقى الزوجان الحبيبان بعد فراق طال، وتعانقت الأرواح بعد جفوة الزمان وتباعد الديار.

فقد رد المصطفى ﷺ زينب رضي الله عنها، على أبي العاص رضي الله عنه، لتصبح له زوجة مرة ثانية. وقيل ردها إليه على النكاح الأول وهذا الذي استدل به الشافعي وغيره على عودتها بالنكاح الأول ولا حاجة لعقد جديد وهو قول الأكثرين، وقيل ردها عليه بنكاح

جديد[1] .

وذهبت فاطمة الزهراء وعلي بن أبي طالب وأم كلثوم وعثمان بن عفان ، ذهبوا إلى زينب رضي الله عنهم جميعاً ليهنئوها بإسلام أبي العاص بن الربيع أولاً ، ثم باجتماع الشمل ثانياً .

وأمضى القوم وبينهم المصطفى ﷺ وقتاً غير قصير يحتفلون بهاتين المناسبتين السعيدتين، ثم مضى كل إلى بيته وخلا كل حبيب بحبيبه .

وبدأ أبو العاص رضي الله عنه مسيرته الإسلامية الناصعة .

*****

---

(١) على القول الأول اقتصر الطبري ٢ :٢٩٣، وأخرجه ابن عبد البر في الاستيعاب ٤ :١٧٠٣ من حديث ابن عباس، ثم أتبعه بالقول الثاني، وقال رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وهو قول الشعبي وطائفة من أهل السير، وانظر في هذا طبقات ابن سعد ١ :٨،٣٣ :٢٢،٢١ .

حب الرسول ﷺ للزهراء وعلي وبنيهما

رضي الله عنهم

لقد شغف النبي ﷺ بحب الصبيين الصغيرين، السبطين الحسن والحسين، رضي الله عنهما، وما كان حبه لهما إلا امتداداً لحبه لابنته رضي الله عنها ولزوجها كرم الله وجهه، وكان رضي الله عنه يعرف منزلته عند ابن عمه وصهره ﷺ، ويعتز بهذه المنزلة التي جعلته يسأل المصطفى ﷺ ذات مرة وقد غمره فيض عطفه :

- أيهما أحب إلى رسول الله ﷺ : ابنته فاطمة الزهراء، أم زوجها علي؟!

- فأجابه المصطفى ﷺ إجابة يتضح منها لطفه وخلقه، ويتضح فيها إعزازه لعلي كرم الله وجهه : «فاطمة أحب إليَّ منك، وأنت أعزّ عليَّ منها»[1].

وليس بمستغرب بعد هذا، أن يعي الزمن من آيات حب الرسول ﷺ للزهراء، وعلي وبنيهما، ما نستطيع معه أن نتمثله ﷺ وهو يرنو إلى بيت صهره علي كرم الله وجهه كلما مر به، وقلبه الكريم يخفق حباً وحنواً، فإذا وجد من وقته سعة، عرج على دار الأحبة، فأسعد أهلها بعطفه، وأسبغ على سبطيه فيضاً من حنانه :

ومما يظهر فيض حبه لهما ﷺ أن حدث في إحدى المرات أن ألفى ابنته وزوجها قد غلبهما النعاس، والحسن رضي الله عنه يبكي ويطلب طعاماً،

---

(١) فيض القدير ٤ : ٤٢٢(٥٨٣٦).

فلم يهن على الأب الكريم أن يوقظ العزيزين النائمين، بل أسرع إلى غنمة كانت تقف في ساحة الدار، فحلبها وسقى الحسن حتى ارتوى.

ومر ﷺ بالبيت ذات يوم وهو متعجل، فبلغ مسمعه صوت بكاء حبيب القلب، الحسين رضي الله عنه، فدخل مسرعاً، وقال للزهراء رضي الله عنها معاتباً: «أو ما علمت أن بكاءه يؤذيني؟»

ولا نستطيع أن نصف ما كان لهذا الحب الأبوي المتدفق من أثر بعيد عميق في إسعاد فاطمة الزهراء رضي الله عنها التي أرهقها الحزن صغيرة، وأنهكها العبء شابة، كما لا أصف هنا مدى ما بعث في حياتها التي عرفنا خشونتها وقسوتها، من بهجة وأنس وإشراق.

لقد أسعد فاطمة الزهراء رضي الله عنها، أن تكون أماً لهذين الولدين الأثيرين عند أبيها ﷺ، وأرضاها أن تستطيع بفضل الله تعالى، أن تهيىء لأبيها الحبيب ـ بعد أن انتقلت من بيته ـ هذه المتعة الطيبة التي يجدها في سبطيه الغاليين.

ولم يكن علي كرم الله وجهه، أقل منها سعادة وغبطة، فلقد سره، بل أعزه، أن تتصل به حياة ابن عمه النبي ﷺ هذا الاتصال الوثيق، فيمتزج دمه بدم النبي الزكي، لتخرج من صلبه ذرية سيد البشر، وبنو بنته الزهراء، ويذهب دون الناس جميعاً بمجد الأبوة لسلالة النبي ﷺ، وآل بيته الأكرمين.

وقد أخرج الطبراني بإسناد حسن عن فاطمة الزهراء رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ أتاها يوماً فقال:

- أين ابناي؟ ـ يعني حسناً وحسيناً رضي الله عنهما ـ قالت: أصبحنا وليس في بيتنا شيء يذوقه ذائق، فقال علي: أذهب بهما فإني أتخوف أن يبكيا، وليس عندك شيء. فذهب إلى فلان اليهودي، فتوجه إليه النبي ﷺ

فوجدهما يلعبان في شربة[١]، يلعبان وبين أيديهما فضل من تمر، فقال ﷺ: يا علي ألا تقلب ابني قبل أن يشتد الحر؟

قال علي كرم الله وجهه: أصبحنا وليس في بيتنا شيء، فلو جلست يا رسول الله حتى أجمع لفاطمة فضل تمرات، فجلس رسول الله ﷺ حتى اجتمع لفاطمة فضل تمر، فجعله في خرقة، ثم أقبل النبي ﷺ فحمل أحدهما، وحمل عليٌّ الآخر حتى أقلباهما[٢].

وكان علي كرم الله وجهه لا يألو جهداً فيما يريح النبي ﷺ فقد كان الحب متبادلاً بين الطرفين، وخاصة أن كل المسلمين كانوا حريصين أن يتفرغ النبي ﷺ للدعوة إلى الله والجهاد في سبيل الله، فقد أخرج ابن عساكر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أصابت نبي الله ﷺ خصاصة، فبلغ ذلك علياً رضي الله عنه، فخرج علي كرم الله وجهه يلتمس عملاً يصيب فيه شيئاً ليغيث به النبي ﷺ، فأتى بستاناً لرجل من اليهود، فاستسقى له سبعة عشر دلواً، على كل دلو تمرة، فخيره اليهودي على تمره، فأخذ سبع عشرة عجوة، فجاء بها إلى النبي ﷺ، فقال: «من أين لك هذا يا أبا الحسن؟».

قال علي كرم الله وجهه: بلغني ما بك من خصاصة يا نبي الله فخرجت ألتمس لك عملاً لأصيب لك طعاماً، قال: حملك على هذا حب الله ورسوله، قال: نعم يا نبي الله، قال النبي ﷺ:

«ما من عبد يحب الله ورسوله إلا كان الفقر أسرع إليه من جرية السيل على وجهه، ومن أحب الله ورسوله فليعد للبلاء تجفافاً»[٣].

---

(١) الشربة: حوض يكون في أصل شجرة النخيل وحولها يملأ ماءاً لتشربه النخلة.
(٢) الترغيب والترهيب للمنذري ٥ : ١٧١.
(٣) كنز العمال ١ : ٣٢١، وعزاه إلى البيهقي وابن عساكر، وفي معناه أحاديث كثيرة منها ماارواه الترمذي عن عبد الله بن مغفل ٤ : ٤٩٨.

مشاركة الزهراء في الأحداث العامة والخاصة

نشأت فاطمة الزهراء رضي الله عنها، نشأة نبوية، وقد ثبت اشتراكها في بعض غزوات الرسول الكريم ﷺ، وكان يصطفيها لأسراره، كما أنها كانت تقوم بأمر بيتها وتدبيره، وتربية أولادها وتنشئتهم، وكانت تجاذب أباها رسول الله ﷺ وزوجها علياً رضي الله عنه الشئون الخارجية.

وكان المصطفى ﷺ يحضرها في الأمور المهمة، فقد حضرت بيعة النساء، كما حضرت مباهلة وفد نجران:

وكان هذا الوفد قد وفد وفيه العاقب، والسيد، وقد حددت بعض المصادر التاريخية عدد هذا الوفد، فكان أربعة عشر رجلاً من أشراف النصارى، فيهم العاقب ـ وهو عبد المسيح ـ رجل من كندة، وأبو الحارث ابن علقمة، رجل من ربيعة وأخوه كرز، والسيد وأوس ابنا الحارث، وزيد ابن قيس، وشيبة، وخويلد، وخالد، وعمرو وعبد الله، وفيهم ثلاثة نفر يتولون أمورهم.

وكان أميرهم هو العاقب وهو صاحب مشورتهم وكان أبو الحارث أسقفهم وحبرهم وصاحب مدراسهم، والسيد هو صاحب رحلتهم.

وقدموا على النبي ﷺ، ودخلوا المسجد عليهم ثياب الحبرة، وأردية مكفوفة بالحرير، فقاموا يصلون في المسجد نحو المشرق، فقال رسول الله ﷺ دعوهم، ثم أتوا النبي ﷺ، فأعرض عنهم ولم يكلمهم، فقال لهم عثمان رضي الله عنه: ذلك من أجل زيكم هذا، فانصرفوا يومهم هذا.

ثم غدوا عليه بزي الرهبان فسلموا عليه فرد عليهم ودعاهم إلى الإسلام

فأبوا وكثر الكلام والمحاجة[1] بينهم، وتلا عليهم القرآن الكريم. وقال لهم ﷺ: «إن أنكرتم ما أقول لكم فهلم أباهلكم»، وهذا القول لم يقله المصطفى ﷺ عن هوى بل هو وحي يوحى، فقد نزل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾[2].

وانصرفوا على ذلك، وكان الموعد الغد، فلما رجعوا وتدارسوا الأمر مع أنفسهم ورجالهم قال لهم الأسقف: انظروا محمداً في غده فإن غدا بولده وأهله فاحذروا مباهلته، وإن غدا بأصحابه فباهلوه، فإنه على غير شيء.

فلما كان الغد جاء النبي ﷺ آخذاً بيد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والحسن والحسين رضي الله عنهما بين يديه يمشيان، وفاطمة رضي الله عنهما تمشي خلفه.

وخرج النصارى يقدمهم أسقفهم، فلما رأى النبي ﷺ قد أقبل بمن معه سأل عنهم، فقيل له: هذا ابن عمه وزوج ابنته وأحب الخلق إليه، وهذان ابنا بنته من علي، وهما ريحانتاه، وهذه الجارية ـ أي الفتاة ـ ابنته فاطمة رضي الله عنها، وأقربهم إلى قلبه. وتقدم رسول الله ﷺ فجثا على ركبتيه، فقال: الأسقف أبو حارثة: جثا والله كما جثا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام للمباهلة، فرجع ولم يقدم على المباهلة.

فقالوا له: يا أبا حارثة تقدم للمباهلة: فقال: لا، اني لأرى رجلاً جريئاً على المباهلة ـ أي النبي ﷺ ـ وأنا أخاف أن يكون صادقاً، ولئن كان صادقاً لم يحل والله علينا الحول وفي الدنيا نصراني يطعم الماء.

---

(١) حاجه فحجه: غلبه بالحجة.

(٢) سورة آل عمران الآية (٦١).

وقال الأسقف : يا أبا القاسم، إنا لا نباهلك، ولكن نصالحك، فصالحنا على ما ننهض به. فصالحهم رسول الله ﷺ على ألفي حلة من حلل الأواقي، قيمة كل حلة أربعون درهماً، فما زاد أو نقص فعلى حساب ذلك، وعلى عارية ثلاثين درعاً، وثلاثين رمحاً، وثلاثين فرساً، وثلاثين بعيراً، ورسول الله ﷺ ضامن حتى يؤديها.

وكتب لهم رسول الله ﷺ كتاباً :

« بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما كتب محمد النبي ﷺ لأهل نجران، إذا كان عليهم حكمه، في كل ثمرة وفي كل صفراء وبيضاء ورقيق فأفضل ذلك عليهم، وترك ذلك كله لهم على ألفي حلة من حلل الأواقي في كل رجب ألف حلة، وفي كل صفر ألف حلة كل حلة أوقية من الفضة، فما زادت على الخراج أو نقصت عن الأواقي فبالحساب، وما قضوا من دروع أو خيل أو ركاب أو عروض أخذ منهم بالحساب، وعلى نجران مؤونة رسلي ومتعتهم ما بين عشرين يوماً فما دون ذلك، ولا تحبس رسلي فوق شهر، وعليهم عارية ثلاثين درعاً، وثلاثين فرساً، وثلاثين بعيراً إذا كان كيد باليمن ومعرة، وما هلك مما أعاروا رسلي ، من دروع أو خيل أو ركاب أو عروض فهو ضمين على رسلي حتىيؤدوه إليهم ، ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أموالهم وأنفسهم وأرضهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبيعهم وكل ماتحت أيديهم من قليل أوكثير، وليس عليهم رُبِّيَّة ولا دم جاهلية، ولا يحشرون ولا يعشرون[1] ولايطأ أرضهم جيش، من سأل منهم حقاً فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين بنجران. ومن أكل منهم ربا من ذي قبل فذمتي منه بريئة، ولا يؤخذ منهم

(١) لايحشرون : لا يخرجون من بيوتهم ولا ديارهم، ولا يعشرون: لا يؤخذ منهم عشر مالهم، والربية هي الربا.

رجل بظلم آخر، ولهم على ما في هذه الصحيفة جوار الله وذمة محمد النبي أبداً حتى يأتي الله بأمره ما نصحوا وأصلحوا ما عليهم غير مكلفين شيئاً بظلم»[١].

وشهدت الزهراء وزوجها وبنوها رضي الله عنهم نكوص المبتهلين وارتدادهم حاسرين عن مباهلة النبي ﷺ، وكان هذا نصراً مؤزراً ليس للسلاح فيه نصيب.

وكم كانت سعادتها أن يختصها الله ورسوله ﷺ هي وزوجها والحسن والحسين، ليكونوا وفد المباهلة دون سائر المسلمين، إنه شرف لها خصها الله به، وشرف للفتيين الصغيرين أن يكونا في مواقع الأحداث الإسلامية منذ نعومة الأظافر.

وهكذا كانت الزهراء رضي الله عنها مشاركة في أحداث المسلمين العامة مثل حضور الحرب، وبيعة النساء، والمباهلة، وأيضاً الخاصة وذلك مما يخص بعض المسلمين من مساعدتهم، مثل إطعام الأسير الذي جاءها وكذلك مشاركة النسوة بالنصيحة.

*****

---

(١) ابن هشام ١ : ٥٧٣، وانظر الوثائق السياسية - الوثيقة ٩٤.

أحداث مفرحة ومحزنة

لقد وضعت الزهراء رضي الله عنها طفلتها الأولى فسماها جدها المصطفى ﷺ زينب والرسول ﷺ كان يحب هذا الاسم، فقد حدثت زينب بنت أبي سلمة ربيبة رسول الله ﷺ قالت: « كان اسمي برة فسماني رسول الله ﷺ زينب، ودخلت عليه زينب بنت جحش واسمها برة، فسماها زينب ».

وفي هذه الآونة كانت زينب بنت الرسول ﷺ، تعاني من المرض، فقد لازمتها علة بسبب طرح جنينها على أديم الصحراء وهي خارجة من مكة المكرمة مهاجرة إلى الله ورسوله ﷺ إلى المدينة، حينما نخس المجرم هبار ابن الأسود البعير، وروعها بالرمح، فألقاها البعير على صخرة هناك.

فما زالت هذه الواقعة لها أثر نفسي على زينب الكبرى رضي الله عنها، ولها أثر جسدي في علة لازمتها حتى وافتها المنية.

وكانت زوجات النبي ﷺ حتى السنة الثامنة من الهجرة قد بلغن تسع زوجات غير مارية القبطية، وهن: سودة بنت زمعة، عائشة بنت أبي بكر، وحفصة بنت عمر، وزينب بنت خزيمة - توفيت سنة ٤ هـ - وأم سلمة، وزينب بنت جحش، وجويرية بنت الحارث وصفية بنت حُيَي، وأم حبيبة رملة بنت أبي سفيان، وميمونة بنت الحارث الهلالية، بالإضافة إلى مارية القبطية رضي الله عنهن جميعاً.

ولكن ذلك لم يكن يشغل النبي ﷺ عن ابنته الزهراء رضي الله عنها، ولا عن بنتيه زينب وأم كلثوم رضي الله عنهما، فكان يغشى بيوتهما أيضاً، ويداعب أمامة بنت أبي العاص بنت زينب رضي الله عنها، فكان يحملها على عاتقه

ويصلي بها، فإذا سجد وضعها حتى يقضي سجوده ثم يعود فيحملها.

وحتى هذه السنة الثامنة من الهجرة كانت أحداث عظيمة قد مرت بالمسلمين كلها تدعو إلى الفرحة الكبرى لتوالي الانتصارات العظيمة التي منّ الله بها على المسلمين، فتم فتح خيبر، وظهرت فيه بطولات جديدة لزوج الزهراء رضي الله عنها.

وكانت غزوة خيبر في آخر المحرم سنة سبع من الهجرة وكاننت خيبر مستعمرة يهودية تتضمن قلاعاً حصينة، وقاعدة حربية لليهود، وكانت آخر معقل من معاقلهم في جزيرة العرب.

وكان اليهود يتربصون بالمسلمين الدوائر، ويتآمرون مع يهود المدينة وضواحيها لغزو المدينة، فأراد رسول الله ﷺ، أن يقضي على شوكتهم ويأمن من جهتهم، ومدينة خيبر تقع إلى الشمال الشرقي للمدينة على بعد سبعين ميلاً منها.

توجه رسول الله ﷺ بجيشه إلى خيبر، وكانوا ألفاً وأربعمائة، ونازل حصون خيبر، وبدأ يفتحها حصناً حصناً، واستعصى حصن القموص على المسلمين. وكان علي بن أبي طالب رمداً فقال ﷺ: «ليأخذن الراية غداً رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله يفتح عليه».

وتطاول لهذا الأمر كبار الصحابة رضي الله عنهم، وكل منهم يرجو أن يكون صاحب ذلك، ودعا علياً وهو يشتكي عينيه، فأتى فبصق رسول الله ﷺ في عينيه، ودعا له فبرىء، حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، فقال علي رضي الله عنه: أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ قال رسول الله ﷺ: «انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم».

وأتى علي رضي الله عنه حصن القموص فخرج مرحب وهو الفارس المشهور يرتجز، فاختلفا ضربتين، فبدره علي بضربة، ففلق مغفره ورأسه ووقع، وكان الفتح[1].

وجاء في مصنف ابن أبي شيبة بسنده عن ليث، قال: دخلت على أبي جعفر فذكر ذنوبه وما يخاف، قال: فبكى، ثم قال: حدثني جابر أن علياً حمل الباب يوم خيبر حتى صعد المسلمون ففتحوها، وأنه جرب، فلم يحمله إلا أربعون رجلاً.

وذكر محمد بن إسحاق عن أبي رافع أن يهودياً ضرب علياً فطرح ترسه، فتناول باباً عن الحصن، فترس به، فلم يزل في يده حتى فتح الله على يديه، ثم ألقاه من يديه، قال أبوو رافع: فقد رأيتني أنا وسبعة معي نجتهد أن نقلب ذلك الباب على ظهره يوم خيبر فلم نستطع، وقال ليث عن أبي جعفر عن جابر فلم يحمله إلا أربعون رجلاً[2].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٣: ١٦٨٨(٢١٢٤)، وجاء في سيرة ابن هشام أن الذي قتل مرحب هو محمد بن مسلمة، والصحيح أن الذي قتل مرحبا هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وانظر في هذا الطبري ص١٥٧٩، وقد جاء ذلك مصرحاً في رواية مسلم وجاءت فيه هذه الأبيات التي ارتجز بها علي، والذي يرويه مسلم بسنده أولى بالاعتماد والترجيح. راجع صحيح مسلم كتاب الجهاد والسير حديث رقم (١٧٠٨).

(٢) انظر رواية هذه الغزوة في صحيح البخاري ومسلم في باب غزوة خيبر.
وقد ضعف الحافظ ابن كثير حديث حمل باب خيبر، وقال في هذا الخبر جهالة وفيه انقطاع، وضعف رواية أبي جعفر الباقر عن جابر كذلك، انظر البداية والنهاية ٤: ١٨٩، ويعلق الشيخ أبو الحسن الندوي على هذا فيقول: « رويت هذه القصة من طرق عديدة، وهي قصة مشهورة، ولا يستبعد وقوعها - إن صح ثبوتها وكان لها أصل - فمن عقائد أهل السنة أن كرامات الأولياء حق، ولها أصل في القرآن الكريم فقد قال تعالى: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَامَرْيَمُ أَنَّى لَكِ =

في هذه الآونة تناقلت الألسن بطولة علي كرم الله وجهه وصموده في وجه اليهود حتى حقق الله تعالى على يديه النصر المؤزر للمسلمين.

واشتد المرض بالسيدة زينب بنت رسول الله ﷺ وذهب الجميع بعد عودتهم من خيبر ليعودوها، وألقى الرسول ﷺ بخبر سار، فقد حملت السيدة ماريا ولعلها تأتي بولد ذكر للنبي ﷺ.

وتلاقت الفرحة بحمل السيدة مارية رضي الله عنها، مع الأحزان على اشتداد المرض على زينب الكبرى رضي الله عنها.

وظهر أثر الحزن واضحاً جلياً على أبي العاص بن الربيع رضي الله عنه، لمرض زينب الشديد، فلم يكتمل لقاؤهما بعد الفراق سنتين، وأخذ أبو العاص يلوم نفسه لوماً شديداً، على ما كان منه، وعلى ما فرط في حقها، يوم أن أخذته العزة بالإثم واتبع دين الآباء خوفاً من ألسنة القوم..

لقد من الله عليه ووقع أسيراً في يد صهره، ورده عزيزاً مكرماً، وكان استغلال هذه الفرصة السانحة للإسلام كما فعل غيره استغلالاً حسناً يخرجه من الضلالة إلى النور.

بل كانت الفرصة الأخرى أثمن وأغلى، لو خرج مهاجراً بصحبة زوجته، وأسلم في تلك اللحظات، ودافع عنها، لم يخلص إليها المجرم الفاجر هبار ابن الأسود.

إنه لوم نفس شديد يقع على فؤاد أبي العاص، ولا يخرجه منه إلا الدموع يذرفها، ندماً على تلك الأيام التي قضاها بعيداً عن زوجته الشابة، ضياعاً في فلوات الكفر والعناد، وانصياعاً لجاهلية عمياء.

= هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وسيدنا علي كرم الله وجهه من سادة الأولياء ومقدميهم.

وثقل المرض على زينب رضي الله عنها وأسرتها الكريمة لا تبرح مخدعها، حتى كان اليوم الموعود في مستهل السنة الثامنة من الهجرة، فاضت الروح إلى بارئها.

وأعتقد أن أبا العاص قد ذهل للمصاب الفادح، فأكب على الحبيبة يناجيها، ويتشبث بها حتى أبكى من حوله، ولم يجرؤ أحد أن يبعده، عن فراش الراقدة حتى جاء أبوها محزوناً فاستودعها الله.

وقال النبي ﷺ: «اغسلنها وتراً»: ثلاثاً أو خمساً ـ واجعلن في الآخرة كافوراً.

هنالك غادر أبو العاص مخدع الغالية بخطوات مترنحة، ووقف بالباب محزوناً شارد النظرات، إلى أن جهزوها للرحلة الأخيرة التي لا يؤوب منها مسافر.

وصلى عليها أبوها المصطفى ﷺ في مسجده، ثم شيعها إلى مرقدها حيث أودعها ثرى طيبة الطيبة.

ورجع أبو العاص إلى داره التي كانت بالأمس جنة الحب، فأمست بعد رحيل زينب رضي الله عنها منزلاً للذكريات والأشجان، ومما خفف عليه وجده ولده علي وابنته أمامة وهما امتداد للحبيبة الغالية، وظلت أمامة على وجه خاص صورة حية تجسد الراحلة في عينيه، تؤنس وحشته برؤيته لها، وتأسو جراحه بابتسامتها له، وتمحو بعض ما ران على البيت من وجوم واكتئاب.

وكان أبرز الباكين على وداع زينب رضي الله عنها أختها الصغرى فاطمة الزهراء رضي الله عنها، فرقتها المعهودة، كانت تضفي على قلبها ذكريات ماضية فتجترها لتجتمع في لحظة واحدة، ذكريات الأم الغالية خديجة رضي الله عنها، والأخت الراحلة رقية رضي الله عنها.

ولم يكن جزع فاطمة على أختها الكبرى بالذي يوصف، فقد راحت تبكي في أختها الأم والشقيقة والصديقة والصاحبة، وتذكر أيامها السعيدة الهانئة وهي طفلة صغيرة في مكة المكرمة، إذ كان البال خالياً وشمل الأسرة ملتئماً.

وكأني بالزهراء الحبيبة وقد دار في خلدها رضي الله عنها شيء جعل ابتسامة رقيقة هزيلة ترف على شفتيها، فما هو ذلك الشيء الذي أدخل عليها بعض السعادة؟!

إنها ابنتها الصغيرة زينب، إنها تحمل اسم أختها الراحلة زينب الكبرى، ومولدها كان إحياء لذكرى الفقيدة الغالية، وترديداً لاسمها الحبيب الذي لا يمل..

وحدثت الزهراء رضي الله عنها نفسها، لماذا سمى أبي ﷺ وليدتي زينب؟ هَلَل كان يحس بدنو أجلها فأحب أن يجد لسميها ذكرى تتردد بيننا؟!

لك الله يا أبي! ولك الله يا راحلة عنا!!

مرت الأحداث سريعة ونقضت قريش صلح الحديبية حيث قام بعض أعيان قريش بمناصرة بني بكر على خزاعة التي دخلت في عقد رسول الله ﷺ وعهده في صلح الحديبية ودخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم وبيّتوهم بالوتير وهم غارّون آمنون من عدوهم فلم يزالوا يقتلونهم حتى انتهوا بهم إلى أنصاب الحرم ودخلت خزاعة دار بديل بن ورقاء ودار الخزاعيين وقد قتل منهم نحو عشرين رجلاً ودخل أعيان قريش الذين أسهموا في هذه المقتلة منازلهم وهم يظنون أن لا يعرفوا وأن لا يبلغ خبرهم رسول الله ﷺ.

ثم تنحت قريش وندموا على ما صنعوا وعرفوا أن هذا الذي صنعوا إنما هو نقض للمدة والعهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ وجاء الحارث بن هشام وابن أبي ربيعة عبد الله إلى صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو وعكرمة بن أبي

جهل ولاموهم فيما صنعوا من عونهم بني بكر على خزاعة والحال أن بينهم وبين محمد عقد ومدة والذي صنعوا نقض لذلك.

ومشى الحارث بن هشام وعبد الله بن أبي ربيعة إلى أبي سفيان صخر بن حرب فقالا: هذا أمر لابد له من أن يصلح والله لئن لم يصلح هذا الأمر لا يروعكم إلا محمد في أصحابه. فقال أبو سفيان: هذا والله أمر لم أشهده ولم أغب عنه، فأحمل هذا علي، ولا والله ما شوورت ولا هويت حيث بلغني والله ليغزونا محمد إن صدقني الظن وهو صادق وما لي بد من أن آتي محمداً فأكلمه أن يزيد في الهدنة ويجدد المدة قبل أن يبلغه هذا الأمر.

وخرج عمرو بن سالم الخزاعي في أربعين راكباً من خزاعة يستنصرون رسول الله ﷺ ويخبرونه بالذي أصابهم وما ظهرت عليه قريش فأعانوهم بالرجال والسلاح والكراع وحضر ذلك صفوان بن أمية في رجال قريش متنكرين فقتلوا بأيديهم. فقال رسول الله ﷺ: لا نصرت إن لم أنصر بني كعب مما أنصر منه نفسي والذي نفسي بيده لأمنعنهم مما أمنع منه نفسي وأهلي وبيتي»[1].

وها هو ذا الرسول ﷺ يتأهب للحدث العظيم لفتح مكة المكرمة، ليكشف الله تعالى الظلمات بنور الإسلام، ويدنو من النصر المؤزر الذي وعد الله تعالى به المسلمين، وقد تأهب الجميع نفسياً لهذا النصر العظيم، وكل يعد نفسه لينال جزءاً من هذا الشرف.

وأمر النبي ﷺ الناس بأن يتجهزوا، واستعان على أمره بالكتمان وقال: «اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها.

وأراد حاطب بن أبي بلتعة وهو ممن هاجر من مكة وشهد بدراً، وكان امرءاً

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ٢: ٣٩٧، وانظر كذلك زاد المعاد ١: ٤٢١.

ملصقاً في قريش ليس من أنفسهم، وله فيهم أهل وعشيرة وولد، وليس فيهم قرابة يحمونهم، فأحب إذ فاته ذلك أن يتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابته فكتب كتاباً يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ إليهم، وأعطاه امرأة، وجعل لها جعلاً على أن تبلغه قريشاً ـ وكان تصرفاً خاطئاً غفر الله له ـ وقد قال رسول الله ﷺ فيه كلمة خير، وقال: «لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»[1].

وجعلت المرأة هذا الكتاب في قرون رأسها ثم خرجت به، وجاء النبي ﷺ الخبر من الله تعالى بما صنع حاطب، فبعث علياً والزبير، فقال: انطلقا حتى تأتيا روضة خاخ[2] فإن بها ظعينة معها كتاب إلى قريش.

وترك علي كرم الله وجهه زوجته وأولاده رضي الله عنهم وانطلق مع الزبير رضي الله عنه تعدو بهما خيلهما حتى وجدا المرأة بذلك المكان، فاستنزلاها وقالا: معك كتاب؟

فقالت: ما معي من كتاب. ففتشا رحلها فلم يجدا شيئاً.

فقال لها علي كرم الله وجهه: أحلف بالله ما كذب رسول الله ﷺ ولا كذبنا، والله لتخرجن الكتاب أو لنجردنك، فلما رأت الجد من علي كرم الله وجهه قالت: أعرض، فأعرض، فحلت قرون رأسها فأخرجت الكتاب منها، فدفعته إليهما، فأتيا به رسول الله ﷺ.

وإصرار علي كرم الله وجهه على استحضار الكتاب من المرأة إنما يدل على الإيمان القوي الراسخ والثقة الفائقة بما أخبر به رسول الله ﷺ.

---

(١) زاد المعاد ١: ٤٢١، والقصة وردت بكاملها في كتب الصحاح.
(٢) موضع بين المدينة ومكة على مسافة اثني عشر ميلاً من المدينة.

عاد علي كرم الله وجهه إلى أهله، والجميع في انتظار أمر الرسول ﷺ بالتحرك إلى مكة المكرمة.

وأمست فاطمة الزهراء تلك الليلة، وقد ذاد الكرى عن عينيها قرب الأوبة إلى الوطن الذي غابت عنه ثمانية أعوام، فراحت تسامر زوجها المؤمن، البطل المغوار، وتستعيد معه ذكريات صباهما الخلي الذي مضى وراح وكأني بها تسأل:

- أترى مكة لا تزال على العهد بها، كما تركناها منذ ثمان أم غيرها كر الغداة، ومر العشي ومحت يد الحدثان من معالمها ما كان لنا بالأمس مهداً ومرتعاً؟!!!

ودار الأهل والأحباب حيث مولدي، أتراها باقية كما كانت، أم عدا عليها العدو فنقضها وصيرها طللاً دارساً وخراباً بلقعاً؟!!

أما تزال الكعبة الشريفة يا أبا الحسن كما هي؟

أما يزال الحمام الجميل يرتفع في حماها آمناً أم روعته الوثنية الغاشمة الضالة، والجاهلية الحمقاء، فانكمش هناك مكتئباً محزوناً مهيض الجناح؟

ويرد عليها علي كرم الله وجهه، إن غداً لناظره قريب يا أم الحسن وما هي إلا أيام ونرى بأنفسنا ما محا الدهر وغير...

واضطجع كل منهما، ومازال خيال الزهراء في مكة وتساءلت: وملاعب الصبا، أما تزال تذكر من رحل عنها من الأحباب، أم نسيتهم على مر الأيام وتطاول السنين، فعادت لا تعرف منهم اليوم أحداً ولا ترد جواباً؟

وأخذها الخيال إلى حيث مثوى خديجة، الأم الرؤوم الراحلة، وجنح بها حيث قبر أبي طالب، وحيث الآخرون من الأهل والعشيرة، هل مكة ماتزال محتفظة بهذه الودائع الغالية، أم تاهت بما أودعت من رفات الأعزة الراحلين؟!!

ولم تكتحل عيون الزهراء رضي الله عنها بالنوم وإذ هي في غشية من دمعها الذي ذرفته تذكراً للأحبة الغائبين، يطرق الباب، فينهض علي كرم الله وجهه ـ مسرعاً، ويدل ذلك على أن النوم لم يطرق باب جفنيه هو الآخر ـ ليرى من الطارق بليل. ويفتح الباب وتنهض الزهراء رضي الله عنها، وفي عينيها دمع من أثر الذكريات فإذا أمامها أبو سفيان بن حرب حامل لواء المشركين، والمحرض على حرب المسلمين، وزوج هند بنت عتبة آكلة الأكباد التي صنعت ما صنعت بشهداء أحد وبعمهما حمزة رضي الله عنه.

ويتكلم أبو سفيان فيذكر كيف جاء إلى المدينة لما بلغ قريشاً تأهب محمد للمسير إلى مكة، فرأى من قوة الإسلام، ومن استعداد الجيش المعبأ للزحف على مكة، ما روعه، فدخل على ابنته رملة، أم حبيبة فما كاد يهم بالجلوس على الفراش حتى طوته عنه كراهة أن يجلس عليه وهو مشرك، فانصرف محزوناً حتى أتى النبي ﷺ فكلمه فلم يرد عليه شيئاً، فذهب إلى أبي بكر، ثم إلى عمر يسأله أن يشفع له، فأبى عمر قائلاً: أأنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ؟!

فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به![1].

وصمت أبو سفيان ريثما استرد أنفاسه ثم قال لابن أبي طالب كرم الله وجهه:

- يا علي، إنك أمس القوم بي رحماً، وإني قد جئت في حاجة فلا أرجعن كما جئت خائباً، فاشفع لي إلى رسول الله ﷺ.

- فقال علي كرم الله وجهه: ويحك يا أبا سفيان! والله لقد عزم الرسول ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه. فالتفت أبو سفيان إلى الزهراء رضي الله

---

(١) مغازي الواقدي ٢: ٧٩١، وسبل الهدى والرشاد ٥: ٣٠٤-٣٠٩.

عنها، وكانت حتى تلك اللحظة صامتة لم تتكلم، فقال لها وهو يشير إلى الحسن الذي استيقظ من نومه، وراح يدرج بين يدي أمه:

- يا ابنة محمد، هل لك أن تأمري بُنَيَّكِ هذا فيجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟!

وردت الزهراء رضي الله عنها في تؤدة وهدوء: «والله ما بلغ بُنَيّ ذاك أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ».

وقام أبو سفيان لينصرف مخذولاً، ثم تلبث لدى الباب برهة وقال في انكسار:

- يا أبا الحسن، إني أرى الأمور اشتدت علي فانصحني.

قال علي: والله ما أعلم لك شيئاً يغني عنك شيئاً، ولكنك سيد بني كنانة، فقم فأجر بين الناس، ثم الحق بأرضك.

قال أبو سفيان في انكسار شديد:

- أو ترى ذلك مغنياً عني شيئاً؟

فصمت رضي الله عنه لحظة ثم قال:

لا والله ما أظنه، ولكني لا أجد لك غير ذلك.

فانصرف أبو سفيان وقد استقر عزمه على أن يعمل بما أشار عليه علي كرم الله وجهه، وأغلق الزوجان بابهما، وجلسا يتحدثان عن رحمة الله بالمسلمين حتى أصبح أسياد قريش يأتون إليه أذلة، وهم الذين تكبروا على الإسلام والمسلمين من قبل، وعذبوا من استطاعوا أن يعذبوه فيما مضى، جلسا يتحدثان حتى نام الحسن ومضى شطر من الليل فناما يحلمان بالأوبة المنتظرة إلى أم القرى، مقر الكعبة الشريفة، ومهد الصبا ومنزل قريش.

نامت الزهراء واستيقظت قبيل الفجر فرحة وثابة تحلم بالعودة وفي ذهنها

شريط الذكريات يمر، وكأني بها وقد تذكرت يوم أن أعلن أبوها دعوته على الملأ، تذكرت المواقف الصعبة التي مر بها وهي طفلة تمضي خلفه ملهوفة عليه، تخشى أن يصيبه أذى، تذكرت يوم أن ضرب بها المثل وهي فتاة وقال: «يا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً»، تذكرت صورة الأم والزوجة الحنون وهي ترعى والدها، تذكرت الحصار القاتل في شعب أبي طالب، وتذكرت أن الله تعالى كان معهم دائماً رغم المحن، تذكرت اليوم العصيب الذي مات فيه أبو طالب والكل يتمنى أن يسلم، تذكرت موت الأم الغالية، ومدى الأحزان التي ألمت بوالدها بسبب موت أبي طالب وأمها رضي الله عنها، وقفزت إلى ذهنها أحداث الهجرة. وإن نسيت فلن تنسى تلك اللحظات التي نخس فيها الكافر المجرم الحويرث بن نقيذ بن عبد بن قصي البعير فرمى بها وأختها على أديم الصحراء الأوعث، وتذكرت ما فعله المجرم الكافر هبار بن الأسود مع أختها زينب حتى طرحت جنينها على رمال الصحراء وماتت بسبب ذلك، وتذكرت إسلام أبطال قريش طواعية مثل خالد بن الوليد وعمرو بن العاص[١] وقطع شريط الذكريات صوت بلال بن رباح الندي مؤذناً لصلاة الفجر.

تحرك جيش المسلمين المهيب في عشرة آلاف من المسلمين ميمّماً شطر البلد الحرام، ورأت فاطمة الزهراء أن الأيام قد أخذت مجراها الطبيعي، فقد خرج أبوها ﷺ من بلده مهاجراً متخفياً، وها هو ذا اليوم يعود إليه رغم أنف أهله مرفوع الرأس، موفور الكرامة.

وكان مجرد ذكر التهيؤ للمسير إلى مكة من الأشياء المفرحة التي تترك صداها سريعاً في نفس وقلب الزهراء رضي الله عنها ليعتدل الميزان، ويصير الحرمان الذي عانوه عزاً وكرامة لهم، وإذلالاً لأهل مكة من الكفار ويعود

---

(١) السيرة ٤: ٣٨

البلد الأمين الذي طردوا عنه يفتح لهم أبوابه ويفسح لهم رحابه .

تحرك الجيش لعشر خلوان من شهر رمضان المبارك سنة ٨ هـ وكان رسول الله ﷺ على رأس الجيش، واستخلف أبارهم الغفاري على المدينة .

خرجت الزهراء فيمن خرج من آل البيت النبوي، لتشهد العودة الظافرة والنصر المبين، ولم يفتها في طريق النصر، أن تلمح خلال النقع المثار، تلك البقعة التي كادت تلقى فيها حتفها وهي في طريقها إلى دار الهجرة، مع أختها أم كلثوم .

وهاجت شجونها للذكرى، أين رقية، وأين زينب ؟ لقد هاجرتا مثلها منهكتين ونزل فيهما قضاء الله، وها هي ذي تعود ولم يبق لها من شقيقاتها الثلاث غير واحدة هي أم كلثوم، وثوت الأخريان في ثرى يثرب .

وبقيت معها الأطياف، وهي تقترب من أم القرى، فما انفكت في غمرة من شجوها وأساها حتى بلغ الركب «مر الظهران» حيث عسكر النبي ﷺ بجيشه ترقباً واستعداداً للمعركة الفاصلة .

ثم لم يكد النهار يولي ،حتى أقبل أبو سفيان بن حرب مرتدفاً خلف العباس بن عبد المطلب على بغلة رسول الله ، فبات ليلته عند العباس انتظاراً لأمر الرسول في أهل مكة، فلما تنفس الصبح دخل على النبي ﷺ فأسلم . وقال العباس رضي الله عنه :

- يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً .

- قال المصطفى ﷺ : «نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن[١]» .

وأمر المصطفى ﷺ العباس رضي الله عنه، أن يحبس أبا سفيان بمضيق

---

(١) السيرة ٤ : ٣٩

الوادي عند خطم الجبل حتى تمر به جنود الله فيراها. وتحرك جيش المؤمنين من مر الظهران إلى مكة في صباح يوم الأربعاء للسابع عشر من شهر رمضان سنة ٨ هـ.

ورأى أبو سفيان ما رأى من جيش المسلمين.

فانطلق عائداً إلى مكة فوقف حيث يسمع وقال:

«يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن».

فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد الحرام، ووقف الرسول ﷺ على راحلته بعد أن وصل إلى ذي طوى بين كبار الصحابة، خافضاً رأسه تواضعاً لله على ما أكرمه حتى لتكاد الشعرات التي بين شفتيه وذقنه تمس الرحل. ونظم دخول جيشه إلى البلد العتيق، فقسمه فرقاً على رأس كل منها أحد كبار الصحابة، وكانت الراية مع سعد بن عبادة الأنصاري فقال وهو يمر على أبي سفيان عند المضيق: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة اليوم أذل الله قريشاً.

فلما حاذى رسول الله ﷺ أبا سفيان قال:

يارسول الله ألم تسمع ما قال سعد؟ قال: وما قال؟ فقال: قال كذا وكذا.

فقال عثمان وعبد الرحمن بن عوف:

« يا رسول الله ما نأمن أن يكون له في قريش صولة، فقال رسول الله ﷺ: بل اليوم يومٌ تعظم فيه الكعبة، اليوم يومٌ أعز الله فيه قريشاً، ثم أرسل إلى سعد فنزع منه اللواء وأعطاه لابنه قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنه».

وأمر النبي ﷺ ابن عمته الزبير بن العوام رضي الله عنه، وابن أخي السيدة

خديجة بأن يرفع رايته ﷺ بأعلى مكة بالحجون. وقال له:

- لا تبرح حيث أمرتك أن تغرز رايتي حتى آتيك.

فلما وصلت خيل الزبير إلى الحجون. قال له العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه: يا أبا عبد الله، ها هنا أمرك رسول الله أن تركز الراية.

ولكم كانت سعادة فاطمة الزهراء رضي الله عنها بهذا، أن راية النبي ﷺ ترتفع حيث ترقد أمها الغالية. ودمعت عينا فاطمة الزهراء لوفاء أبيها النادر لأمها، حتى في أوج لحظات النصر، لم ينس أن تتوج الانتصارات بجوارها حتى ترى روحها الطاهرة ما كانت تحلم به قبل موتها، وترى راية نبي الله تعالى عالية خفاقة، وقد اختفت راية الشرك إلى الأبد من مكة المكرمة.

وضربت للرسول ﷺ قبته هناك بالحجون قريباً من مثوى أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها، وصحبته ابنته الزهراء رضي الله عنها وقد أنساها الفرح الأكبر كل ما ألم بها من شجن، منذ مرت بالمكان الذي نخس فيه الحويرث راحلتها وهي مهاجرة من مكة، لكن أباها المصطفى ﷺ لم ينس.

وها هو ذا يعهد إلى أمرائه من المسلمين ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم، واستثنى نفراً سماهم بأسمائهم وأمر بقتلهم ولو وجدوا تحت أستار الكعبة وكان من هؤلاء الحويرث وقد تولى قتله زوج الزهراء رضي الله عنها.

وبدأ المسلمون يهتفون، وكادت الجبال تتصدع خشية ورهبة، وهي تصغى إلى هتاف عشرة آلاف من المسلمين:

الله أكبر لاإله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، لاإله إلا الله والله أكبر.

وأوى المصطفى ﷺ إلى قبته حيث كانت تنتظره الزهراء رضي الله عنها هناك، حيث اتخذها مكاناً كي يدير معركة الفتح الأعظم، ومن هناك تلا المصطفى ﷺ قوله تعالى:

﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾[1] .

وتزداد حماسة المسلمين ويزداد هتافهم بالتكبير والتهليل والثناء على من بيده النصر والتأييد .

ترى هل سمع الموتى هذا الهتاف العظيم ؟

هل سمعته أم ياسر وأبو ياسر رضي الله عنهما ومن معهما من المؤمنين الذين جاهدوا واستشهدوا في مكة من قبل ؟ !

هل سمعته أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها؟

إن الرسول ﷺ ليخبرنا أن الموتى يسمعون وقع الخطا وأنهم يردون السلام وأن منهم من يعذب ومنهم من ينعم .

وإذا كان الأمر كذلك فلا نشك أن أم المؤمنين خديجة فرحت فرحاً شديداً في عالمها الآخر بهذا النصر المؤزر والمبين .

حدثت أم هانيء بنت أبي طالب وكانت زوجة لهبيرة بن أبي وهب المخزومي قالت :

لما نزل رسول الله ﷺ بأعلى مكة ، فر إليّ رجلان من بني مخزوم . قال ابن هشام هما : الحارث بن هشام وزهير بن أبي أمية بن المغيرة .

فدخل عليَّ أخي علي بن أبي طالب ورآهما ، فقال : والله لأقتلنهما فأغلقت عليهما باب بيتي ثم جئت رسول الله ﷺ وهو بأعلى مكة ، فوجدته يغتسل من جفنة فيها أثر العجين ، وفاطمة ابنته تستره بثوبه ، فلما اغتسل أخذ ثوبه فتوشح به ، ثم صلى ثمان ركعات من الضحى ، ثم انصرف إلي فقال : مرحباً وأهلاً يا أم هانى ماذا جاء بك؟

---

(١) سورة الإسراء الآية (٨١).

فأخبرته خبر الرجلين، وخبر علي فقال ﷺ: «قد أجرنا من أجرت، وأمنا من أمنت، فلا يقتلهما»[1].

واستراح المصطفى ﷺ برهة ريثما اطمأن الناس عقب موجة الفتح الدافقة، فخرج حتى جاء البيت الحرام وسط الجموع الزاخرة، فطاف به سبعاً على راحلته، فلما قضى طوافه، أمر ففتحت له الكعبة ثم وقف على بابها، فخطب في الناس خطبة الفتح، ثم قال:

« يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم؟» قالوا: خيراً. أخ كريم وابن أخ كريم، قال « اذهبوا فأنتم الطلقاء ».

وأقبل المساء رقيقاً ندياً بعد نهار حار، حافل بالحركة والضجيج، فمدت أم القرى جناحيها على أبنائها المهاجرين العائدين، وعلى من نزل معهم من الأنصار وبقية المسلمين، وعناية الله ترعى ذلك الحشد الجامع الذي لم تشهد قط مثله حول نبي قائد مثل محمد ﷺ، وطافت نسمات الملائكة تصافح قلوب حزب الله تبارك انتصاره على حزب الشيطان.

وهناك كانت فاطمة الزهراء رضي الله عنها غير بعيدة من أبيها ﷺ، ترقد ساهرة في فراشها، يقظى لا تنام. كم شاقها في ذلك الليل الساجي أن تتمثل أمها خديجة وهي تطل من علاها على حبيبها النبي في يومه الأغر الميمون؟!

وكم شجاها أن تتمثل شقيقتيها الراقدتين في المدينة، تسرى روحهما إلى البلد العتيق الذي لم تكتب لهما رجعة إليه، فتطيفان بمن بقي من الأهل والأحباب وتشاركان في فرحة النصر المؤزر؟!

وكم رق قلبها لذكرى طفولتها الباكرة في بيت أبيها السعيدة، حيث الشمل ملتئم والحياة حب وصفو.

---

(١) السيرة ٤: ٤٧ وانظر الاستيعاب.

وطاب لها أن تبيت هكذا ساهرة يقظى، حتى تسمع صوت بلال الندي رضي الله عنه يؤذن لصلاة الصبح من فوق الكعبة المشرفة، ويرتفع صوته مكبراً من فوق الحرم الأقدس، فيخشع الكون لجلال الدعاء، ويخف المؤمنون من مضاجعهم ساعين إلى المسجد الحرام، ليقيموا للمرة الأولى في تاريخ الإسلام، فريضة الصبح في البيت العتيق المطهر من الأوثان!

قال علي كرم الله وجهه وهو يتهيأ للخروج إلى صلاة الصبح :

- أما نمت يا أم الحسن ؟

- أجابت - وقد غلبتها دموع الفرحة بانطلاق نداء الإسلام من فوق الحرم الشريف، وقد غلب عليها التأثر لهذا الموقف المهيب الذي سوف يجتمع فيه حوالي عشرة آلاف مسلم مرة واحدة يؤدون الصلاة في المسجد الحرام - لا . . لم أنم يا أبا الحسن، بل أردت أن استمتع بعودتنا الظافرة وأنا كاملة اليقظة، وكأني أشفق إذا نمت أن يكون الأمر كله رؤيا منام .

ثم قامت تصلي، وأغفت قليلاً بعد أن طال عليها السهر .

وأصبحت تمني نفسها بالعودة إلى دار مولدها، ومرتع صباها، وصبا علي، ولكن هذه الدار كانت قد انتقلت على أثر الهجرة إلى ملك عقيل بن أبي طالب وقد سأل أسامة بن زيد النبي ﷺ يومئذ : أين تنزل في دارك بمكة؟

فقال : وهل ترك لنا عقيل من رباع أو دور؟ ![1]

والراجح أنه ظل في قبته التي ضربت له بالحجون أعلى مكة . ودخل الناس في دين الله أفواجاً .

وفي هذه الأثناء تجمع أشراف هوازن وثقيف، وجمع بعضهم بعضاً وحشدوا وبغوا وجمع أمرهم مالك بن عوف النصري، فخرج إليهم النبي ﷺ

---

(١) السيرة ٤ :٤٨وتاريخ الطبري . فتح مكة.

من مكة يوم السبت لست ليال خلون من شوال سنة ٨ هـ في اثني عشر ألفاً من المسلمين، عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار، وألفان من أهل مكة.

وسار إليهم المصطفى بوادي حنين، وبينه وبين مكة مسيرة ثلاث ليال. وانتصر عليهم المسلمون نصراً مؤزراً. وأفاء الله تعالى عليهم بفيء كثير، أعطى المصطفى ﷺ المؤلفة قلوبهم أول الناس وزاد في عطائهم.

وتساءلت الزهراء: ترى أي دار يختار أبي ﷺ لتكون لنا في مكة منزلاً؟

وكذلك تساءل الأنصار، بعد الفتح وبعد يوم حنين، وقد ظنوا أن النبي ﷺ يقيم بمكة، لما رأوا من فرحه ﷺ بمن أسلموا بعد الفتح، وحرصه على تأليفهم، وغبطته بالرجوع إلى مكة بعد طول اغتراب.

وقال قائل من الأنصار: لقي والله رسول الله ﷺ قومه؟

وأنشد شاعر الأنصار حسان بن ثابت، يعاتب النبي ﷺ، أن زاد في عطاء المؤلفة قلوبهم ـ من مغانم حنين ـ دون الأنصار:

وائتِ الرسول فقل: يا خير مؤتمن ... للمؤمنين إذا ما عُدِّد البشر

علام تُدعى سُليم وهي نازحة ... قُدامَ قوم هُمُ آوَوا وهم نصروا؟

سماهم الله أنصاراً بنصرهم ... دين الهدى وعَوانُ الحرب تستعر

وسارعوا في سبيل الله واعترضوا ... للنائبات وما خاموا وما ضجروا

والناس إِلْبٌ علينا فيك، ليس لنا ... إلا السيوف وأطراف القنا وزر

فما ونينا، وما خمنا، وما خبروا ... منا عِثاراً وكل الناس قد عثروا

وبلغ الصوت مسمع فاطمة رضي الله عنها، كما بلغ كل من في مكة، فقدرت أن هذا العتاب لم يصدر عبثاً وخاصة من الأنصار، وأشفقت على أبيها من موقف صعب سوف يواجهه، وإن اطمأنت كل الاطمئنان أن أباها ﷺ يجد منه مخرجاً.

لكن أي حرج هذا الذي قد خطر على نفسها؟

لم تدر فاطمة الزهراء على التحديد، ما هو الموقف، حتى سمعت أباها في قبته يستقبل النقيب الأنصاري سعد بن عبادة رضي الله عنه، وقد شكا له ما تجد الأنصار، أي أنهم وجدوا عليه في أنفسهم.

فقال له المصطفى ﷺ: فأين أنت من ذلك يا سعد؟ قال سعد رضي الله عنه: يا رسول الله ما أنا إلاّ من قومي.

ولاحظت فاطمة أن أباها ﷺ لم تبد عليه أي بادرة ضيق أو ضجر، ولم يظهر على وجهه شيء يدل على أنه قد غضب ولو غضباً يسيراً.

بل نال صاحبه منه ﷺ كل العطف وطلب إليه أن يجمع له قومه من الأنصار.

فخرج سعد رضي الله عنه وجمع الأنصار، وأتاه فقال: لقد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار.

فأتاهم رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه وقال:

يا معشر الأنصار ما قالةٌ: بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها عليَّ في أنفسكم؟.. ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف بين قلوبكم؟

أجابوا: بلى، الله ورسوله أمن وأفضل.

قال ﷺ: ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟

قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ورسوله المن والفضل.

فما راعهم إلا أن قال النبي ﷺ:

« أما والله لو شئتم لقلتم فلصَدَقتم ولصُدِّقتم: أتيتنا مكذباً فصدَّقناك ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك!

أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة ـ بقلة خضراء ناعمة ـ من

الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟ . . . ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟

فوالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت أمرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار!».

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وهتفوا بملء إيمانهم: رضينا برسول الله قسماً وحظاً[1].

ورأت فاطمة الزهراء رضي الله عنها بكاء القوم، بعدما كان في نفوسهم شيء من الرسول ﷺ، وأدركت أن أي موقف صعب، يكون عند الله تعالى ورسوله هيناً.

لقد تصورت أن ذلك العتاب الذي عبر عنه شاعر الأنصار شعراً سوف يكون له أثر في النفوس، ولكن رأت أن أثره أصبح أثراً حسناً، وبكاء عن إيمان صادق، ورضا نفس قد أفعمت بالقناعة.

وبكى أهل مكة جميعاً وقد رأوا النبي ﷺ يوشك أن ينصرف إلى دار الهجرة التي اختارها منزلاً ومقاماً.

وراحت الزهراء تودع أرض الصبا، وتزور قبر الراحلة الرؤوم قبل أن تدق ساعة الرحيل.

ولم يتجاوز مقامها بمكة غير شهرين وبعض شهر، جاءتها في شهر رمضان من العام الثامن للهجرة وغادرتها مع أبيها إلى مدينة الأنصار، في أخريات

---

(١) السيرة ٤: ١٠٤.

ذي القعدة من العام نفسه بعد قضاء العمرة، ولكأنما كان الأمر كله، كما قالت فاطمة الزهراء رضي الله عنها، في الليلة الأولى بعد الفتح، رؤيا منام.

عادت جموع المسلمين وعلى رأسها المصطفى ﷺ وقد حققوا في رحلتهم الأخيرة انتصارين، الأول: فتح مكة العظيم، والثاني: الانتصار في غزوة حنين.

وعادت الزهراء رضي الله عنها مزهوة بما حققه المسلمون من سيادة حقيقية من خلال دين الله القويم، وكانت سعادتها غامرة وهي بمكة، والوفود تأتي إلى أبيها ﷺ مسلمة طواعية، هذا بصفة عامة، وبصفة خاصة طوائف أهل مكة التي كانت تحت ستار الليل، وفي وضح النهار يطلبون الصفح والعفو من النبي ﷺ، حتى آكلة الأكباد، ذهبت إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه فذهب معها واستأذن لها على النبي ﷺ، فدخلت وهي منتقبة، وبايعت النبي ﷺ.

يا لها من مناظر تثير البهجة والسرور في نفس كل مؤمن.

استراح قلب الزهراء رضي الله عنها ووالدها المصطفى ﷺ يجني ثمرات دعوته إلى الله، وصبره على البلاء، فقد عم الإسلام ربوع مكة والمدينة وما حولهما من قرى.

وكان النبي ﷺ بعد عودته من المدينة المنورة واطمئنانه ﷺ للهدنة التي عقدها مع قريش في الحديبية سنة ست للهجرة، قد أخذ ﷺ يعمل لنشر الدعوة الإسلامية خارج شبه الجزيرة العربية تنفيذاً لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ ولذلك أرسل كتباً ممهورة بخاتمه إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الدخول في الإسلام، وكان أن بعث أحد تلك الكتب مع حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس في مصر.

وأكرم المقوقس حامل رسالة رسول الله ﷺ إليه، وبعث معه بهدية إلى النبي ﷺ كان أهم عنصر فيها هو إهداء النبي ﷺ جاريتين هما مارية القبطية وأختها سيرين وقد وصلتا في العام الثامن إلى المدينة المنورة، وأهدى النبي ﷺ سيرين إلى الشاعر الكبير حسان بن ثابت واستبقى مارية لنفسه.

كانت مارية رضي الله عنها متمتعة بعطف النبي ﷺ وحبه لها فأدركت الغيرة نساء النبي ﷺ عنهن بصفة عامة والسيدة عائشة رضي الله عنها بصفة خاصة فقد روي عنها أنها قالت: ما غرت من امرأة إلا أقل مما غرت من مارية، وذلك أنها كانت جميلة جعدة فأعجب بها رسول الله ﷺ وكان قد أنزلها أول ما قدم بها في بيت لحارثة بن النعمان فكانت جارتنا فكان عامة النهار عندها فجزعت فحولها إلى العالية أقصى المدينة وكان يذهب إليها هناك فكان ذلك أشد علينا وفي العالية ظهرت علامات الحمل على مارية رضي الله عنها ففرح النبي ﷺ بذلك أشد الفرح، واستقر العائدون أياماً في المدينة المنورة وسرعان ما سرت البشرى في أنحاء المدينة أن المصطفى ﷺ ينتظر مولوداً له من مارية المصرية، وفرحت الزهراء كثيراً بهذه البشرى فقد تمنت أن يكون لها أخ ليكون عوضاً له عن ابنيه عبد الله والقاسم.

وكذلك سرت البشرى أن الزهراء رضي الله عنها، تنتظر مولوداً أيضاً.

ومضت عدة أسابيع بعد عودة المنتصرين من مكة وفي العالية حيث تسهر سيرين أخت مارية رضي الله عنهما، تسهر بجوار أختها وهي تعالج مخاض الوضع، وأعلم الرسول ﷺ بذلك، فدعا القابلة ـ سلمى: زوجة أبي رافع ـ ثم انتحى مكاناً في الدار يصلي ويدعو الله ما شاء الله.

وارتفع صوت الوليد، وأسرعت أم رافع بالبشرى إلى النبي ﷺ فأكرمها المصطفى ﷺ كل الإكرام، وخف إلى مارية فهنأها بولدها الذي أعتقها من

الرق ثم حمل وليده بين يديه في غبطة وسماه إبراهيم تيمناً باسم أبي الأنبياء[١].

وفرحت الزهراء لفرحة أبيها بالمولود الجديد إبراهيم ورأت تسابق نساء الأنصار المرضعات وتنافسهن أيتهن ترضعه، شرفاً لهن فهن سيرضعن ابن المصطفى ﷺ.

واختار له المصطفى ﷺ أم سيف امرأة أبي سيف قين بالمدينة. وقيل إنها أم بردة بنت المنذر الأنصارية[٢].

وتصدق المصطفى ﷺ على مساكين المدينة بوزن شعر الوليد فضة وذبح كبشين.

ولاحظت فاطمة الزهراء رضي الله عنها، سرور أبيها وغبطته وأنسه وهو يرقب ولده، وهو ينمو يوماً بعد يوم. ويود لو تشاركه الدنيا بأسرها فرحته ومسرته. وسرت في المدينة البشرى أن الزهراء تنتظر مولوداً.

وتوالت الأيام والأحداث إلى أن كانت غزوة تبوك آخر غزوات المصطفى ﷺ، خرج إليها المصطفى ﷺ في جيش قوامه ثلاثون ألفاً، وسمى جيش العسرة، لعدم وجود المؤن والأسلحة والعتاد والخيل التي تكفي لهذا الجيش الجرار، وقد رد المصطفى ﷺ بعض المجاهدين لعدم وجود ظهر يركبونه.

تحرك المصطفى ﷺ في جيشه المهيب في رجب سنة تسع من الهجرة، وقد تخلف المنافقون، وبعض المؤمنين الذين أطلق عليهم القرآن الكريم

---

(١) سيرة ابن هشام ٢: ٥٠٠.

(٢) انظر الطبقات الكبرى ترجمة ابراهيم عليه السلام ١: ١٣٥. وفي رواية أن الذي حمل البشرى الى النبي ﷺ مولاه أبو رافع زوج سلمى «١: ١٣٦الطبقات».

الذين خلفوا، وتفصيل ذلك في سورة التوبة أو براءة.

وخلف الرسول ﷺ على المدينة محمد بن مسلمة رضي الله عنه، وخلف على أهله علي بن أبي طالب وقد أرجف عليه المنافقون أن النبي ﷺ لا يحبه فخلفه فخرج ولحق بالنبي ﷺ فرده وهو يسليه ويقول له: «أفلا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه ليس نبي بعدي»[1].

في أثناء انشغال النبي ﷺ بغزوة تبوك، وفي شهر شعبان مرضت أم كلثوم رضي الله عنها، ونقلتها أختها الزهراء رضي الله عنها لتكون تحت رعايتها، وفي كنفها حتى يعود أبوها ﷺ.

وعاد الرسول ﷺ من غزوة تبوك، الغزوة البيضاء، وكان المرض قد اشتد بأم كلثوم رضي الله عنها، وكانت عودته ﷺ من تبوك في رمضان من السنة التاسعة من الهجرة.

وكان سلوك فاطمة الزهراء رضي الله عنها، بعد ولادتها طفلتها الصغرى غريباً، فكانت لا تترك يوماً يمر، حتى ترى فيه أختها أم كلثوم رضي الله عنها، وكأنها كانت تحدث نفسها أنه قد يطلع الغد بدونها.

اشتد المرض على أم كلثوم رضي الله عنها، ووضح أمام الجميع أنها سكرات الموت، الجميع يلتفون حولها يلقون عليها النظرة الأخيرة، ورحلت أم كلثوم رضي الله عنها.

ماتت رضي الله عنها في بيت زوجها عثمان بن عفان رضي الله عنه، وحملت لتتوسد ثرى طيبة إلى جانب أختها وصلى المصطفى ﷺ عليها، وجلس على حفرة القبر، ونزل في حفرتها علي بن أبي طالب والفضل بن عباس وأسامة بن زيد رضي الله عنهم.

---

(١) صحيح البخاري باب غزوة تبوك.

رحم الله أم كلثوم رضي الله عنها، فقد رحلت قبل أن تفجع بأبيها ﷺ ولم تشهد المصرع الفاجع لزوجها عثمان بن عفان رضي الله عنه، على مرأى من زوجته، نائلة بنت الفرافصة الكلبية.

وعادت الزهراء رضي الله عنها إلى بيتها، دامعة العين مثقلة القلب بألم الوداع والفراق عادت لتحتضن الصغيرتين زينب وأم كلثوم اللتين تحملان اسم الراحلتين الشقيقتين الغاليتين.

ومر المصطفى ﷺ على ابنته فاطمة الزهراء وجلس قريباً منها، وأخذ يداعب زينب التي بدأت تدب على الأرض، وأخذ ينادي أم كلثوم وكأنه ينادي الحبيبة الغائبة.

ومضى المصطفى ﷺ إلى بيت مارية رضي الله عنها ليمتع عينيه من ولده إبراهيم عليه السلام، ويدعو الله له بالخير.

*****

فاطمة الزهراء رأس أهل البيت

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ .

في أسباب النزول قيل أن هذه الآية نزلت في خمسة : في النبي ﷺ وعلي كرم الله وجهه وفاطمة رضي الله عنها ، والحسن والحسين رضي الله عنهما .

وقيل أنزلت في نساء النبي ﷺ ورضي الله عنهن فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : نزلت في نساء النبي ﷺ خاصة .

وقال عكرمة من شاء باهلته أنها نزلت في نساء النبي ﷺ خاصة .

فإن كان المراد أنهن كن سبب النزول دون غيرهن فصحيح ، وإن أريد أنهن المراد دون غيرهن ففي هذا نظر ، فانه قد وردت أحاديث تدل على أن المراد أعم من ذلك .

فقد روى الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ كان يمر بباب فاطمة رضي الله عنها ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر يقول : « الصلاة يا أهل البيت إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس ويطهركم تطهيرا » .

وقال ابن جرير عن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قام حين نزل عليه الوحي فأخذ علياً وابنه وفاطمة رضي الله عنهم فأدخلهم تحت ثوبه ثم قال : رب هؤلاء أهلي وأهل بيتي .

وجاء في صحيح مسلم عن يزيد بن حبان قال انطلقت أنا وحصن بن سبرة وعمر بن مسلمة إلى زيد بن أرقم رضي الله عنه فلما جلسنا إليه قال له حصن

لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً رأيت رسول الله ﷺ وسمعت حديثه وغزوت معه وصليت خلفه، لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً، حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله ﷺ، قال : يا ابن أخي والله لقد كبرت سني وقدم عهدي ونسيت بعض الذي كنت أعي من رسول الله ﷺ فما حدثتكم فاقبلوا، وما لا فلا تكلفوا فيه، ثم قال : قام فينا رسول الله ﷺ يوماً خطيباً بماء يدعى خُمًّا بين مكة والمدينة فحمد الله تعالى وأثنى عليه ووعظ وذكر ثم قال : أما بعد ألا أيها الناس، فإنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب وأنا تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله عز وجل ورغب فيه ثم قال : وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي .

فقال حصين ومن أهل بيته يا زيد أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال : نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده، قال ومن هم؟ قال هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس رضي الله عنهم، قال كل هؤلاء حرموا الصدقة بعده؟ قال : نعم .

وفي رواية أخرى قال : فقلت له من أهل بيته نساؤه؟

قال : لا، وايم الله أن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها، أهل بيته أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده .

قال ابن كثير : هكذا وقع في هذه الرواية، والأولى أولى والأخذ بها أحرى، وهذه الثانية تحتمل أنه أراد تفسير الأهل المذكورين في الحديث الذي رواه إنما المراد بهم آله الذين حرموا الصدقة، أو إنه ليس المراد بالأهل الأزواج فقط، بل هم مع آله وهذا احتمال أرجح جمعاً بينها وبين الرواية التي قبلها .

وذكر ابن كثير أيضاً : أن الحسن بن علي رضي الله عنهما صعد المنبر فقال : يا أهل العراق اتقوا الله فينا فإنا أمراؤكم وضيفانكم ونحن أهل البيت

الذي قال الله تعالى عنا : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ فما زال يقولها حتى ما بقي أحد من أهل المسجد إلا وهو يحن بكاء . وذكر أيضاً أن علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم قال لرجل من أهل الشام أما قرأت في الأحزاب : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ قال نعم ، ولأنتم هم؟ قال : نعم[1] .

وجاء في أسباب النزول للواحدي النيسابوري : عن عطاء بن أبي رباح قال : حدثني من سمع أم سلمة تذكر أن النبي ﷺ كان في بيتها ، فأتته فاطمة رضي الله عنها ببرمة فيها خزيرة ، فدخلت بها عليه فقال لها : ادعي لي زوجك وابنيك ، قالت : فجاء علي وحسن وحسين فدخلوا فجلسوا يأكلون من تلك الخزيرة وهو على منامة له ، وكان تحته كساء خيبري ، قالت : وأنا في الحجرة أصلى ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ قالت : فأخذ فضل الكساء فغشاهم به ، ثم أخرج يديه فألوي بهما إلى السماء ، ثم قال : اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي فأذهب عنهمم الرجس وطهرهم تطهيراً ، وقال : فأدخلت رأسي البيت وقلت : أنا معكم يا رسول الله ، قال : إنك إلى خير إنك إلى خير[2] .

وقد روى مثل هذه الأحاديث عن عائشة رضي الله عنها ، وما نخلص به من هذه الأحاديث ، أن فاطمة الزهراء رضي الله عنها وزوجها وأولادها من آل البيت الكرام وإن نساءه من آل بيته ، فرضي الله تعالى عنهم وأرضاهم أجمعين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين .

---

(١) ينظر فيما سبق من أحاديث تفسير القرآن العظيم . ابن كثير جـ ٣تفسير آية٣٣من سورة الأحزاب ـ بتصرف .

(٢) أسباب النزول النيسابوري ص ٢٠٣وانظر ابن كثير ٣ : ٤٨٤ .

الزهراء ومشاركة الزوج وتجهيزه
لأول حجة في الإسلام

في العام التاسع فرض الحج، وبعث رسول الله ﷺ أبا بكر أميراً للحج في هذه السنة ليقيم للناس شعائر حجهم، وكان الناس من أهل الشرك على منازلهم من حجهم.

وخرج أبو بكر رضي الله عنه ومن أراد الحج من المسلمين، فخرج في ثلاثمائة رجل من المدينة.

وفي أثناء ذهاب أبي بكر رضي الله عنه، نزلت سورة براءة (التوبة) على رسول الله ﷺ. فأرسل إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، ولم يكن موجوداً في بيته.

فأرسلت فاطمة الزهراء رضي الله عنها في طلبه، فقد كان يعمل أجيراً عند أحد رجال المدينة من أجل الحصول على قوت أهل بيته فلما عاد أخبرته أن الرسول ﷺ أرسل في طلبه. فذهب مسرعاً إلى المصطفى ﷺ، فقال له، اخرج بهذه القصة من صدر براءة، وأذن في الناس يوم النحر، إذا اجتمعوا بمنى، أنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحجَ بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو له إلى مدته. فجهزت الزهراء رضي الله عنها لزوجها كرم الله وجهه زاد السفر، وخرج على ناقة رسول الله ﷺ العضباء، حتى أدرك أبا بكر الصديق رضي الله عنه، فقال أبو بكر رضي الله عنه : أمير أم مأمور؟ فقال علي : بل مأمور، ثم مضيا فأقام أبو بكر للناس الحج، حتى إذا كان يوم النحر قام علي بن أبي طالب رضي الله

عنه فأذن في الناس بالأمر الذي أمره به رسول الله ﷺ[1].

وهذا الأمر الذي أصدره المصطفى ﷺ كان مجملاً في صدر سورة التوبة قال تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾

وعلمت الزهراء رضي الله عنها قدر زوجها كرم الله وجهه على قدره المعروف عندها، فقد شرفه المصطفى ﷺ دون سائر المسلمين أن يقوم بأداء هذا الإعلان، إلى الناس كافة، وما قام به علي كرم الله وجهه كان نيابة عن المصطفى ﷺ.

تهللت أسارير الزهراء بهذا الموقف الذي أناب فيه المصطفى ﷺ علياً، وكانت قد تهللت لموقف آخر، حين سجد رسول الله ﷺ شكراً لله على إسلام همدان، وكان النبي ﷺ بعث معه كتاباً لهم.

كان ذلك سنة تسع من الهجرة ـ أيضاً ـ حين تقاطرت الوفود إلى المدينة على أثر فتح مكة والعودة من تبوك من كل وجه، يدخلون في دين الله أفواجا، وفيها وفد الأشعريين وأهل اليمن، وكانوا يرتجزون:

غـــــــــداً نلقــــــــى الأحبـــــــــة

محمــــــــــــــداً وحـــــــــــزبـــه

وقال رسول الله ﷺ: «أتاكم أهل اليمن، هم أرق أفئدة، وألين قلوباً،

---

(١) انظر سيرة ابن هشام.

الإيمان يمان، والحكمة يمانية »[1] وبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الإسلام في نفر من المسلمين، فأقاموا ستة أشهر وهم يدعونهم إلى الإسلام فلم يجيبوا.

بينما أسلمت همدان جميعاً، فكتب علي رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ يخبره بإسلامهم، فلما قرأ رسول الله ﷺ الكتاب خر ساجداً ثم رفع رأسه وقال: « السلام على همدان، السلام على همدان »[2].

وسعدت الزهراء سعادة كبيرة بهذين التشريفين لزوجها من رسول الله ﷺ، وزادت سعادتها بكثرة الوفود ودخول الناس في دين الله أفواجاً، كل يوم يزداد عدد المسلمين ويدخلون في هذا الدين طواعية وكانت إرادة الله عز وجل ونزلت السورة العظيمة: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣ ﴾.

*****

(١) رواه البخاري في باب قدوم الأشعريين وأهل اليمن، وراجع زاد المعاد ٢: ٣٣.
(٢) زاد المعاد ٢: ٣٣.

موت إبراهيم رضي الله عنه

في شهر ربيع الأول من السنة العاشرة للهجرة، بدأ المرض يدب في الجسد الغض، ولم يبلغ إبراهيم عليه السلام عامين من عمره، وانتشر أمر مرضه في المدينة، وفي الليلة العاشرة من شهر ربيع الأول سنة عشر من الهجرة، يرقد إبراهيم وحوله أمه مارية وخالته سيرين، وأخته الوحيدة فاطمة الزهراء ومعهن امرأة أبي يوسف، مرضعة إبراهيم، رضي الله عنهم جميعاً، وقيل كان كل هؤلاء في بيت ظئره ـ مرضعته.

وكلهن بجواره ساهرات حول فراشه يمرضنه، وكلهن لهفة عليه وقلق، ولكن أثر الحياة بدأ ينطفىء فيه رويداً. . . رويداً. . .

وجاء أبوه المصطفى ﷺ معتمداً على يد عبد الرحمن بن عوف لشدة ألمه، فحمل صغيره من حجر أمه وهو يجود بنفسه، ووضعه في حجره محزون القلب وتساقط الدمع من عينيه، وهو يرى ولده الوحيد، يعالج سكرات الموت، ويسمع حشرجة احتضاره، تختلط بدموع ونهنهات من حوله سواء من أم أو أخت أو خالة أو مرضعة.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: دخلنا مع رسول الله ﷺ على أبي سيف، القين وكان ظئراً لابراهيم عليه السلام، فأخذ رسول الله ﷺ فقبله وشمه. ثم دخل علينا بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه.

فجعلت عينا رسول الله ﷺ تدمعان، فقال له عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، وأنت يا رسول الله؟ فقال ﷺ: يا ابن عوف إنها رحمة الله. ثم أتبعها أخرى فقال ﷺ: « إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما

يرضي ربنا، وانا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون »[1].

وانحنى الأب والدموع في عينيه يقبل ابنه الراحل، ويمسح بيده الشريفة على جثمانه ثم قال :

« يا إبراهيم لولا أنه أمر حق ووعد صدق، وأن آخرنا سيلحق بأولنا، لحزنا عليك حزناً هو أشد من هذا، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون. تبكي العين ويحزن القلب، ولا نقول ما يسخط الرب[2].

ثم أخذ يواسي الأم الثاكلة، وتظهر حكمة الزوج الحنون في تخفيف الألم فقال ﷺ لمارية رضي الله عنها : « إن إبراهيم ابني وإنه مات في الثدي، وإن له لظئرين تكملان رضاعه في الجنة »[3].

وظهرت ابتسامة رفت على شفاه الباكيات والباكين الجالسين بجوار رسول الله ﷺ وبجوار أم إبراهيم عليه السلام وأذن لصلاة الفجر وانطلق الجميع إلى الصلاة، وقام الكل يناجي ربه ويدعو أن يلهم الجميع الصبر والسلوان.

وشاع خبر موت إبراهيم عليه السلام في كل المدينة، وما إن أشرقت الشمس حتى اجتمع المشيعون، وأقبل الفضل بن العباس رضي الله عنهما، وغسل الصغير الراحل من الدنيا إلى الآخرة، وأبوه ﷺ جالس يرنو إليه في حزن، وعينه تدمع.

وحمل إبراهيم عليه السلام من بيت ظئره على سرير صغير، وصلى عليه أبوه ﷺ، ثم سار وراءه الجميع إلى البقيع، وأضجعه المصطفى ﷺ بيده في قبره، ثم سوى عليه التراب ونداه بالماء»[4].

---

(١) الحديث متفق عليه وانظر اللؤلؤ والمرجان كتاب الفضائل حديث رقم ١٤٩٥.

(٢) انظر الاصابة والاستيعاب ترجمة ابراهيم بن محمد عليه السلام.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الفضائل ٤ :١٨٠٨حديث رقم ٢٣١٦.

(٤) انظر طبقات ابن سعد ١ :١٤١.

وآب المشيعون، والوجوم والحزن على وجوههم، وقد غام الأفق وانكسفت الشمس، وقال بعض الناس : إنها انكسفت لموت إبراهيم.

وبلغت هذه الكلمات مسمع النبي ﷺ، فصلى بالناس صلاة الكسوف وخطبهم، ثم قال: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإن رأيتم ذلك فادعو الله وكبروا وصلوا وتصدقوا»[١].

وعادت فاطمة رضي الله عنها إلى بيتها بعد تشييع جثمان أخيها، وبعد مواساة أمه، عادت دامعة العين، محزونة القلب لفراق أخيها، ثم لذلك الحزن الذي رأته على وجه أبيها.

فضمت أبناءها إلى صدرها وقالت : ليكن هؤلاء أولادك يا أبي، وحملت الطفلتين الصغيرتين، ومشى بجوارها الحسن والحسين رضي الله عنهم أجمعين، ومضوا إلى بيت المصطفى ﷺ، فهم أحب خلق الله تعالى إليه، مضت الزهراء بأولادها وهي تعلم أن وجودهم يسعد أباها سعادة غامرة، فقد خصها الله تعالى وحباها بفضائل تجعلها تفوز بحبه ﷺ فوزاً عظيماً.

فقد قدر لها رضي الله عنها أن تحيي بابنتيها زينب وأم كلثوم ذكرى بنتي النبي ﷺ ورضى الله عنهما، كما شاء لها أن يكون منها ولدا الرسول ﷺ وسبطاه الحسن والحسين رضي الله عنهما، حين عز الولد.

وحفظ الله تعالى لنبيه الكريم هذا القدر من نعمة الأبوه، فلم يفجعه في الزهراء، ولا في أحد بنيها حتى لحق -ﷺ- بالرفيق الأعلى، لقد مات ولداه القاسم وعبد الله صغيرين، ثم رزقه الله تعالى على الكبر إبراهيم وتوفي وقد جاوز المصطفى ﷺ الستين من عمره.

---

(١) متفق عليه من عدة طرق بألفاظ متقاربة.

وقد ماتت بناته الثلاث زينب ورقية وأم كلثوم وهن في ربيع العمر، وقد دفنهن المصطفى ﷺ واحدة بعد الأخرى في ثرى طيبة الطيبة الذي ضم جثمان أبيه عبد الله حين كان محمد لا يزال جنيناً في رحم أمه آمنة بنت وهب وعاشت له فاطمة، كما عاش بنوها.

وهم يملؤون دنياه بهجة وأنساً وحيوية، ويرضون فيه عاطفة الأبوة التي تكررت أحزانها في ثكل البنين والبنات، ولم يبق له إلا هذه الحبيبة فاطمة الزهراء لتعوض أباها عمن فقد، وتعزيه عمن غاب.

وعاشت الزهراء رضي الله عنها ـ كما عاش بنوها ـ ولكي يظل أبوها يجد من يدعوه يا أبتي وعاش ولداها ليظل المصطفى ﷺ الإنسان والأب يسعده ترديد اللفظ العذب ابني وعاشت بنتاها زينب وأم كلثوم رضي الله عنهما، ليظل الأب الحنون يدعو باسم ابنتيه الراحلتين بعد أن لبث زمناً يفتقدهما.

وقف التاريخ الإنساني كله، يرقب مبهوراً هذا النبي المصطفى الإنسان ﷺ في أبوته الفياضة المتدفقة بأنقى وأصفى الحنان، وأرق الحب وأسمى المشاعر.

وأصغت الإنسانية في فخر واعتزاز إلى ما تواترت به الأخبار والمرويات من حديث حول ذلك الحب الأبوي الكبير الفياض الذي يكشف عن عظمة الأبوة المتدفقة من الرجل محمد ﷺ.

وبلغ حب المصطفى ﷺ لفاطمة الزهراء ولأولادها درجة عظيمة، حتى تغلغلوا في قلبه وملؤوا فؤاده، فلم تنس الزهراء، ولم ينس كل أهل المدينة مشهد المصطفى ﷺ وهو يمشي في أحد الأسواق حاملاً أحد سبطيه على كتفه، حتى إذا بلغ المسجد، وقام للصلاة، وضعه إلى جانبه في رفق وأقبل يؤم القوم فتأخذهم الحيرة والعجب، إذ يطيل السجود على غير المألوف من عادته، فلما قضيت الصلاة قيل له:

يا رسول الله إنك سجدت سجدة أطلتها حتى ظننا أنه قد حدث أمر أو أنه يوحى إليك .

فقال : كل ذلك لم يكن ، ولكن ابني ارتحلني ، فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته .

ولا ينسى أحد ذلك المشهد الجليل الذي يدل على عظيم الحب ، وعلى شدة رقة القلب ، حينما وقف المصطفى ﷺ يخطب المسلمين ، فجاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران ، يمشيان ويتعثران ، فنزل الرسول ﷺ من المنبر ، فحملهما ووضعهما بين يديه ، ثم قال يخاطب القوم :

« صدق الله : ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران ، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما » .

وهل تغيب صورة المصطفى ﷺ الجد والأب الحنون عن الزهراء رضي الله عنها ، وهو آخذ بكتفي الحسين ، وقدماه على قدميه ﷺ ، يرقصه قائلاً : ترق ، ترق فما يزال الصبي يترقى حتى يضع قدميه على صدر جده فيقول له :

« افتح فاك »! فيفتحه ، ويقبله ﷺ وهو يقول : « اللهم إني أحبه ، فأحبه وأحبب من يحبه »[1] .

وهل يغيب موقف المصطفى ﷺ عن أهل المدينة كلهم ، وعن الزهراء رضي الله عنها حين خرج ﷺ في نفر من صحابته إلى طعام دعوا إليه فإذا بالحسين في الطريق ، يلعب مع غلمان من أترابه ، فتقدم المصطفى ﷺ أمام القوم وبسط يديه محاولاً أن يمسك بالحسين ، وهو يفر ها هنا ، وها هنا ، فمازال ﷺ يضاحكه حتى أخذه ، فوضع احدى يديه تحت قفاه ، والأخرى

---

(١) انظر صحيح مسلم كتاب الفضائل ٤ : ١٨٨٢ .

تحت ذقنه، ثم قبله وقال: «حسين مني وأنا من حسين . . أحب الله من أحب حسيناً»[1].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : أبصر الأقرع بن حابس النبي ﷺ وهو يقبل الحسن بن علي أو الحسين فقال : إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً فقال رسول الله ﷺ : «من لا يرحم لا يُرحم» (متفق عليه).

*****

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجه وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

حجة الوداع وبكاء فاطمة الزهراء رضي الله عنها

ها قد بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة ، وجاهد في سبيل الله ، وتمت أعمال الدعوة ، وبناء مجتمع جديد على أساس من التوحيد الخالص وإثبات الألوهية لله ، ونفيها عن غيره ، وعلى أساس رسالة محمد ﷺ ، وكأن هاتفاً خفياً انبعث في قلب رسول الله ﷺ ، يشعره أن مقامه في الدنيا قد أوشك على النهاية ، حتى إنه حين بعث معاذاً إلى اليمن سنة ١٠ هـ قال له : « يا معاذ إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا ولعلك أن تمر بمسجدي هذا وقبري هذا » .

فبكى معاذ خاشعاً لفراق رسول الله ﷺ .

وتناقل بعض الناس هذا القول ، فوقع على مسمع فاطمة الزهراء التي حزنت وتألمت واستشعرت قرب الرحيل ، لأنها تعلم أن كل كلام أبيها حق ، ولكنها تعللت بكلمته لعلك فليس فيها جزم في هذا الأمر .

وشاء الله تعالى أن يرى رسوله ﷺ ثمار دعوته التي عانى في سبيلها ألواناً من المتاعب بضعاً وعشرين عاماً ، فيجتمع في أطراف مكة بأفراد قبائل العرب وممثليها ، فيأخذون عنه شرائع الدين وأحكامه ، ويأخذ منهم الشهادة على أنه أدى الأمانة وبلغ الرسالة ونصح الأمة .

أعلن المصطفى ﷺ عزمه على الحجة المبرورة المشهودة فقدم المدينة بشر كثير كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله ﷺ .

وفي يوم السبت لأربع بقين من ذي القعدة تهيأ المصطفى ﷺ للخروج وخرج بعد الظهر ، وخرج معه ﷺ معظم أهل بيته ، وكان منهم فاطمة الزهراء رضي الله عنها .

لما عزم ﷺ على الحج في السنة العاشرة أُذِّن في الناس أن الرسول ﷺ يتأهب للحج فكان أول من علم بذلك بطبيعة الحال هم أهل المدينة ومن حولها فتجمعوا لهذه الغاية، فخطبهم المصطفى صلوات الله وسلامه عليه وبين لهم مناسك الحج ليسهل عليهم متابعته وهو يطبقها أمامهم عملياً في الحج منسكاً بعد منسك.

وفي يوم الخميس لست بقين من ذي القعدة صلى بهم الظهر أربعاً ثم خرج وخرجوا معه قاصدين ذا الحليفة، وتسامع الناس به فتوافدوا من جميع الأصقاع، زرافات ووحداناً حتى بلغ عددهم مبلغاً لا يعلمه إلا الله فارقوا أوطانهم وخلفوا أولادهم وأسرهم وهجروا الراحات واستعذبوا المشقات فارين إلى الله يتدافعون رجالاً وعلى كل ضامر تهدهدهم الأشواق إلى البيت العتيق وتتساطع عليهم الأنوار من غار حراء وتصحبهم الملائكة من كل حدب وصوب وتنقلهم إلى حظائر الملأ الأعلى قسمات ذلك الوجه الأزهر والجبين الأنور كلما امتدت أعناقهم لتتملى برؤية من اصطفاه الله تعالى وفضله على جميع العالمين صلوات الله وسلامه عليه.

هكذا انطلق النبي ﷺ ومعه هذا الموكب الذي لا تقف العين منه عند حد ولا يحيط به البصر مهما امتد، ساروا وكأنهم الأمواج في بحر لجي كلما هبطوا من عل أو عبروا ربوة تكاد الأرض ترتج تحت أقدامهم الطاهرة، وكأن الشمس تطلع من جباههم النيرة يحيطون بالنبي الكريم من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله وأرواحهم معلقة به وقلوبهم تكاد تتفطر من حبه ولو استطاعوا حملوه على الأحداق فضلاً عن الأعناق ولو قدروا لحملوه مما للسفر من مشاق تقرباً إلى الكريم الحنان وابتغاء مرضاة الودود الرحمن وشكراً لله تعالى على هذه النعمة العظمى والرحمة المهداة إذ بعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة

ليخرجهم من الظلمات إلى النور يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنه إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور باذنه ويهديهم إلى صراط مستقيمصراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض اللهم صل وسلم وبارك عليه.

وصل الركب الميمون ذا الحليفة وهو ميقات أهل المدينة فعن عائشة رضي الله عنها قالت: « وقت رسول الله ﷺ لأهل المدينة ذا الحليفة ولأهل الشام ومصر الجحفة (بضم الجيم وسكون الحاء) ولأهل العراق ذات عرق ولأهل نجد قرناً ولأهل اليمن يلملم، ثم قال ﷺ : « هن لأهلهن وكل آت عليهن من غير أهلهن ممن أراد الحج والعمرة » وهذا مما اتفق عليه البخاري ومسلم، وقد أخذ أهل العلم جميعاً بهذا الحديث.

بات رسول الله ﷺ هو ومن معه تلك الليلة في ذي الحليفة، وبعد أن صلى بهم الصبح وبعد أن أشرقت الشمس شرعوا يتأهبون للدخول في أعمال الحج.

وبعد أن لبس ﷺ ملابس الإحرام ذهب إلى مسجد ذي الحليفة على ناقته القصواء، وصلى ركعتين ثم أهل بالحج. قالت عائشة رضي الله عنها : خرجنا مع رسول الله ﷺ فقال : « من أراد منكم أن يهل بحج وعمرة فليفعل، ومن أراد أن يهل بحج فليهل، ومن أراد أن يهل بعمرة فليهل » قالت عائشة رضي الله عنها فأهل رسول الله ﷺ بحج وأهل به ناس معه، وأهل ناس بالعمرة والحج وأهل ناس بالعمرة، وكنت فيمن أهل بالعمرة.

وانطلق النبي ﷺ وهو على ناقته القصواء ومعه هذه الحشود الضخمة تردد خلفه ﷺ : « لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك ».

وتتجاوب جنبات الوادي معهم مؤوبة باصداء هذا النغم العلوي الذي تهدر به هذه الألوف المؤلفة من الحجاج نابعة من قلوبهم المؤمنة به أقوى ما يكون الإيمان معزوفاً على أوتار عزماتهم المندفعة به أشد ما يكون الاندفاع .

وسار الموكب كما علمت والتلبية لها هدير يهز الآفاق وعبير يضمخ الأجواء وأنوار تشع من القلوب وتعود إلى القلوب : « لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك . فمروا في طريقهم بالأبواء وهو المكان الذي وافت المنية فيه على أحد قولين والدة سيد الأولين والآخرين سيدنا محمد ﷺ وهي عائدة به إلى مكة المكرمة بعد زيارته لأخواله بني النجار وكان والده ﷺ قد توفي قبلها وهو في بطن أمه لتنفرد العناية الإلهية بتربيته ﷺ في كفالة جده عبد المطلب ثم عمه أبي طالب من بعده قال ﷺ : « أدبني ربي فأحسن تأديبي » (الحديث) ثم ما لبث الموكب أن مر بوادي عسفان ولم يكن سيدنا محمد ﷺ أول نبي يمر بهذا الوادي فقد تشرفت جنباته بأنفاس سيدنا هود وسيدنا صالح عليهما السلام في طريقهما إلى البيت العتيق محرمين متقربين إلى الله بالحج إلى أول بيت وضع للناس : فيه آيات بينات مقام إبراهيم . إبراهيم الذي ما أمره الله بشيء إلا وفى به حتى إنه لم يتردد لحظة واحدة في امتثال أمر ربه بذبح فلذة كبده وقرة عينه مثال البر مثال التقوى مثال الطهر ، وقد رزقه عليهما السلام في كبر وهرم وشيبة فلما أسلما وتله للجبين وأمر السكين على قلبه وكبده هو وقبل أن يمرها على عنق ولده ممتثلاً أمر الله راضياً بحكمه لما رأى في المنام أنه يذبحه ورؤيا الأنبياء حق فناداه أرحم الراحمين : ﴿ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ .

ومضى الوفد الميمون حتى أمسك عن التلبية حين رأى سيدنا محمداً ﷺ

يمسك عنها حين وصلوا أدنى الحرم ونزل ﷺ هو ومن معه بذي طوى وباتوا فيه ليلة الأحد لأربع خلون من ذي الحجة.

وصلى بهم ﷺ فجر ذلك اليوم وازدادت أشواقهم لدخول البيت الذي جعله الله مثابة للناس وأمناً وشرفه على جميع الأماكن والبقاع ما عدا ذلك الجزء الذي يضم جسد سيد الأولين والآخرين فإنه أعظم بقعة على وجه المعمورة بإجماع المسلمين.

ومازالت الأشواق تعصف بهم لدخول البيت العتيق والطواف به ولا غرو فقديماً قيل:

وأعظم ما يكون الشوق يوماً   إذا دنت الخيام من الخيام

فما لبثوا إلا يسيراً حتى اغتسل ﷺ واغتسلوا اقتداء به وأخذاً لمناسكهم عنه كما أمر بذلك عليه الصلاة والسلام ثم ساروا يتقدمهم المصطفى صلوات الله وسلامه عليه حتى دخلوا مكة المكرمة من كدا الثنية العليا التي بالبطحاء المشرفة على المقبرة ليتمكن الناس من رؤيته ﷺ وسار ﷺ يتبعه الركب الميمون حتى أتى المسجد الحرام ضحى فأناخ راحلته ثم دخل من باب بني شيبة ولما واجه ﷺ البيت الحرام كبر وقال: « اللهم أنت السلام ومنك السلام حينا ربنا بالسلام اللهم زد هذا البيت تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ومهابة وزد من حجه أو اعتمره تكريماً وتشريفاً وتعظيماً وبراً ».

وجعل البيت عن يساره في الطواف ثم بدأ بالحجر الأسود فكبر الله ثم قبله ولم يزاحم عليه.

وفور دخوله ﷺ إلى البيت العتيق ليؤدي تحية المسجد وتحية البيت الطواف.. نعم تحية البيت الطواف.

وقد اضطبع رسول الله ﷺ واضطبع أصحابه في كل أشواط الطواف ورمل

ﷺ في الأشواط الثلاثة الأولى ومشى متمهلاً فيما تبقى ويعلل الفقهاء الاضطباع والرمل أن الغرض منه هو إظهاره القوة امام أعداء الإسلام من القرشيين الذين كانوا يجتمعون عادة في دار الندوة وينظرون إلى الطائفين من المسلمين.

وأتم الأشواط السبعة وكلما مروا بالركن اليماني استلموه في غير مزاحمة مكبرين ومبسملين اقتداء بالنبي ﷺ كما اقتدوا به في تقبيل الحجر الأسود مرددين فيما بين هذين الركنين : ﴿ ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ﴾ فإن الله تعالى رب الدنيا ورب الآخرة وعنده خزائن السموات والأرض من خير الدنيا والآخرة ونحن مركبون من جسد وروح ونطلب للجسد حسنة الدنيا وللروح حسنة الآخرة وما كان عطاء ربك محظوراً ثم توجه ﷺ خلف المقام فقرأ ﷺ : ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ ومقام إبراهيم هو الحجر الذي كان يقوم عليه سيدنا إبراهيم، وهو يرفع القواعد من البيت وإسماعيل عليهما السلام وعلى نبينا أفضل السلام وأتم التسليم استمد هذا الشرف وهذه المزيّة من قيام إبراهيم عليه. وكان ﷺ يرفع صوته وهو يقول واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى بحيث يسمعه الناس.

وصلى ﷺ ركعتي الطواف قرأ في الأولى الفاتحة والكافرون وفي الثانية الفاتحة والإخلاص وفي سورتي الكافرون والإخلاص كل دعائم التوحيد أما الفاتحة فهي قمة التبتل والمناجاة.

وتبعه في ذلك أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين الذين كانوا يتتبعون خطاه ويسيرون على هداه.

بعد الطواف أقبل النبي على الحجر الأسود فاستلمه وقام بين الركن والباب فوضع عليه صدره ووجهه وذراعيه وكفيه وبسطهما بسطاً حتى لا يكاد جزء من جسده الشريف إلا ومس الملتزم ليعلم الناس كيف يبالغون في

تعظيم حرمات الله، أدباً مع الله وحده وابتغاء مرضاته في حدود ما شرعه الله ووما سنه أو بينه حبيبه الأعظم صلوات الله وسلامه عليه.

ثم أتى ﷺ زمزم وهي البئر التي فجرها الله تعالى لسيدتنا هاجر وابنها اسماعيل عليهما السلام فكانت خيراً لسيدتنا هاجر ولابنها الرضيع عليهما السلام. . وقد أقبل ﷺ يشرب منها ويعلم الناس إن هذا الماء مبارك فيه.

ثم عمد ﷺ إلى السعي فخرج من باب الصفا وهو جبل في مكة المكرمة بقي منه محل صغير مرتفع قريب من باب الصفا حيث بدأ به عز وجل حين قال: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾.

ولما أكمل ﷺ سعيه عند المروة أمر كل من لا هدي معه أن يتحلل من الإحرام سواء أكان قارناً أم مفرداً ويجعلها عمرة.

ونزل ﷺ بالابطح من مكة المكرمة هو ومن معه وبقوا هناك من يوم الأحد إلى الخميس يوم التروية وهو الثامن من ذي الحجة وسمي يوم التروية لأنهم كانوا يعدون فيه الماء اللازم لهم في أيام الحج.

وفي اليوم الثامن من ذي الحجة ـ وهو يوم التروية ـ توجه إلى منى فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر، خمس صلوات، ثم مكث قليلاً حتى طلعت الشمس، فأجاز حتى أتى عرفة، فوجد القبة قد ضربت له بنمرة، فنزل بها حتى إذا زالت الشمس أمر بالقصواء ـ ناقته ـ فرحلت له، فأتى بطن الوادي، وقد اجتمع حوله مائة ألف وأربعة وعشرون أو أربعة وأربعون ألفاً من الناس، فقام فيهم خطيباً، وألقى خطبة الوداع الجامعة التي جاء فيها:

« أيها الناس : اسمعوا قولي ، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً[1] .

إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا في بلدكم هذا ، ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع ، ودماء الجاهلية موضوعة ، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث ـ وكان مسترضعاً في بني سعد فقتلته هذيل ـ وربا الجاهلية موضوع ـ وأول ربا أضع من ربانا ربا عباس بن عبد المطلب ، فإنه موضوع كله .

فاتقوا الله في النساء ، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح ، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به ، كتاب الله[2] .

أيها الناس ، إنه لا نبي بعدي ، ولا أمة بعدكم ، ألا فاعبدوا ربكم ، وصلوا خمسكم وصوموا شهركم ، وأدوا زكاة أموالكم ، طيبة بها أنفسكم ، وتحجون بيت ربكم ، وأطيعوا أولي أمركم ، تدخلوا جنة ربكم[3] .

وأنتم تُسألون عني ، فما أنتم قائلون؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت . فقال بأصبعيه السبابة يرفعها إلى السماء ، وينكتها إلى الناس :

« اللهم اشهد » ثلاث مرات[4] .

وكان الذي يصرخ في الناس بقول رسول الله ﷺ وهو بعرفة ، ربيعة بن أمية ابن خلف .

---

(١) الرحيق المختوم ص ٤٤٢عن سيرة ابن هشام .

(٢) صحيح مسلم باب حجة النبي ﷺ ١ :٣٩٧عن المرجع السابق ص ٤٤٣ .

(٣) المصدر السابق ص ٣٤٤.

(٤) صحيح مسلم ١ :٣٩٧. عن السابق .

وبعد أن فرغ النبي ﷺ من إلقاء الخطبة نزل قوله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ .

فعندما سمعها عمر رضي الله عنه بكى ، فقيل له : ما يبكيك ؟ قال : إنه ليس بعد الكمال إلا النقصان[1] .

وبعد يوم حافل في رحاب الله تعالى آب حجاج بيت الله إلى منامهم يهجعون ، استعداداً ليوم ثان من أيام الحج المبارك ، وآبت الزهراء رضي الله عنها إلى فراشها ، ولكن النوم خاصم عينيها فقد دار في خيالها كل كلمة قالها المصطفى ﷺ ولكن ليست بحجمها ، بل مضخمة تستولد منها المعاني التي بين حروفها ، وتستنطق الحروف ما خبأت في طواياها واستعرضت تلك الجملة التي أوصى بها المصطفى ﷺ معاذاً حين أوفده إلى اليمن .

وها هو ذا المصطفى ﷺ يرددها مرة أخرى ولكن بصيغ مختلفة ، فقد قال : لمعاذ رضي الله عنه . إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا ، وقال للناس أجمعين في خطبته : أيها الناس اسمعوا قولي ، فإني لا ادري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً . وشهادة الناس له أنه بلغ وأدى ونصح .

ثم قوله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ . وبكاء عمر رضي الله عنه وقوله : إنه ليس بعد الكمال إلا النقصان .

بكت فاطمة وسألت نفسها : هل أوحي إلى رسول الله ﷺ أنه سوف ينتقل إلى الرفيق الأعلى ، ولكن لو أوحى إليه كان أعلن ذلك على الملأ ، إنه لا يكتم شيئاً يوحيه الله إليه .

هل يحس إحساساً أكيداً بهذا الأمر ، ثم يتركه معلقاً لأن علمه عند الله

---

(١) رواه البخاري عن ابن عمر . السابق ص ٤٤٣ . وانظر سورة المائدة : ٣ .

تعالى ولهذا يتحدث ويعلق الكلام فلا يجزم به، وما السر في بكاء عمر حينما سمع قوله تعالى : ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ .

وأحس علي كرم الله وجهه ما تعانيه فاطمة، واستشف تلك المعاناة من عدم القدرة على النوم، ثم البكاء المتواصل .

وسألها : ما بك ياأم الحسن؟ ! أجابته : أحس بانقباض يا أبا الحسن على رسول الله ﷺ، أخشى أن يكون هذا العام هو آخر حياته، كما يوحي بذلك من خلال أحاديثه .

وصمت علي رضي الله عنه، ولم يستطع الإجابة أو التعليق، لأن ماكان يدور في ذهن الزهراء رضي الله عنها كان يدور في ذهنه رضي الله عنه .

وطمأنها علي كرم الله وجهه أن أباها بخير، ولن يمسه الله بسوء أبداً، وأن كل شيء عند الله تعالى بمقدار .

وفي اليوم الثالث عشر من ذي الحجة طاف النبي ﷺ بالبيت طواف الوداع، ولما قضى مناسكه حث الناس إلى المدينة المطهرة لا ليأخذ حظاً من الراحة، بل ليستأنف الكفاح لله وفي سبيل الله[١] .

ففي صفر سنة ١١ هجرية جهز المصطفى ﷺ جيشاً كبيراً وأمر عليه الحب ابن الحب أسامة بن زيد بن حارثة رضي الله عنهما، لمقابلة الروم . ولكن هذا الجيش لم يتحرك إلا بعد وفاة النبي ﷺ نظراً لمرضه، فقد تحرك إلى الجرف على بعد فرسخ من المدينة، ولكن تريث نظراً للأخبار المقلقة عن مرض الرسول ﷺ وقضى الله أن يكون هذا أول بعث ينفذ في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه[٢] .

---

(١) انظر حجة النبي ﷺ في سيرة ابن هشام، وفتح الباري، وزاد المعاد .
(٢) صحيح البخاري. باب بعث النبي ﷺ أسامة ٢ : ٦١٢، وسيرة ابن هشام.

وكان تجهيز هذا الجيش مطمئناً لفاطمة الزهراء رضي الله عنها وموحياً لها أن النبي ﷺ مازال ممتد الأجل، وإنه لم يستكمل الدعوة إلى دين الله تعالى، واطمأن قلبها شيئاً قليلاً، وهدأ البال إلى حد ما، وكانت تقضي معظم أوقاتها بجواره ﷺ ومعه.

*****

حرص فاطمة رضي الله عنها على رضا أبيها

ما كانت فاطمة رضي الله عنها تتحلى بالكثير من الذهب مثل باقي مثيلاتها من الهاشميات أو القرشيات، فقد تعلمت إيثار الآخرة على الدنيا.

لكن القليل من هذا المباح، ما كان يخطر على بالها أنه يغضب والدها ﷺ، وهي التي تحبه وتسعى لرضاه أكثر بكثير مما تحب النساء آباءهن ويسعين لرضائهم.

لقد اتسم بيت أبيها بالزهد، وشهدت معه أيام الحصار والصبر وكانت تعرف أحوال أهل الصفة، وما هم عليه من فقر، ليس لهم مساكن ولا أزواج ولا أموال، ينامون في المسجد ويعيشون على الصدقات.

ما كانت فاطمة تتمتع بالذهب الكثير ولكنها، قلادة من ذهب تتحلى بها في عنقها، إن مثيلاتها يلبسن الكثير، يهدى إليهن أو يشترينه من أموالهن.

لم يكن يخطر ببال الزهراء رضي الله عنها أن ذلك مغضب لوالدها ﷺ، وعلى عادتها.. ذهبت لزيارته.. فاستأذنت.. فأذن لها فدخلت وألقت السلام: وفرحت بلقاء الأب الكريم والله وحده يعلم مدى سعادتها بلقائه والقرب منه.. أنها لا تتركه إلا وتود القرب منه.

إنها سعيدة ببشاشة وجهه، وطيب كلامه.. وعذوبة حديثه.. جلست إلى جواره ﷺ، ودار بينهما حديث المحبة، ونظرات العطف والحنان تجمع بينهما.

ويقع نظر النبي ﷺ على القلادة في عنق فاطمة ويكرر النظر إلى هذه القلادة.. وفاطمة تتابع هذه النظرات.. وتلمح آثارها على وجه أبيها ﷺ.

لاحظت تغيراً في وجه أبيها ﷺ وبدا عليه نوع من الغضب، وتسأل نفسها رضي الله عنها. . إلى أي شيء ينظر. . ما سبب هذا الغضب؟ وتدرك فاطمة بذكائها أن نظره وقع على القلادة الذهبية التي تدلت من عنقها.

ومضت لحظة صمت خرجت فاطمة والحزن يملأ قلبها. . لما بدا على وجه أبيها من آثار الغضب وعلاماته. . ما أشد حزنها، أن تكون سبباً لهذا الغضب، كم هي تحب أن تدخل على قلبه السرور ولو حرمت مباهج الدنيا كلها؟ بُعداً لكل ما يغضبه. . بعداً. . بعداً، ولم يغمض لها جفن، ولم تهدأ وفكرت كيف ترضي والدها ﷺ.

إنها تعلم أن لبس الذهب ليس حراماً ونساء المؤمنين يلبسن الذهب ولكن لابد أن لها وضعاً خاصاً وهو الذي جعله يغضب. . ولابد من التخلص من هذه القلادة إذن. . لا لأنها حرام. . ولكن لأنها لا تطيق أن ترى الغضب في وجه أبيها من أي إنسان فكيف تطيق أن تقرأ في وجهه الغضب من فعلتها هي نفسها.

ماذا تفعل الزهراء الطاهرة كي يعود السرور والسعادة إلى وجه أبيها الكريم؟ لاشك أنها ستخلع هذه القلادة ولن تلبسها أبداً بعد اليوم، ستبيعها إذن لتخرج من سخطه وتسعد بمرضاته وطلاقة وجهه. . ولكن ماذا تفعل بثمنها؟ أتشتري خادماً يعينها فيما تلقى من تعب وكلال في أعمال بيتها؟

فكرة طيبة استقرت في ذهن الزهراء رضي الله عنها لكن ما لبثت أن تحولت عنها، فإنها سوف تبيع القلادة التي غضب النبي ﷺ حين رآها وتشتري بها عبداً، ان وجود العبد في بيتها سيظل يحمل ذكرى تلك القلادة في نفس أبيها، وفي نفسها أيضاً.

إنها تحب رضاه. . إذن ماذا تفعل؟ هي حريصة على رضاه، وهو يحب لها أعلى مكانة. . وأعظم منزلة يريدها للآخرة. . هي تعلم هذا. . يكفي أن

تلمح في وجهه ما يريد فتسارع للخير الذي يرضيه.

وجاءتها فكرة جميلة تشتري بثمنها عبداً وتعتقه، تجعله حراً في سبيل الله.

الإسلام يدعو إلى الحرية.. إلى الخير إلى عتق الرقاب وفكها من الرق..

وتدخل فاطمة على أبيها.. تستأذن.. وتسلم.. ثم تجلس إلى جواره.. فيسألها المصطفى ﷺ بنظره عن قلادتها وتجيبه قبل أن يقول شيئاً.

لقد بعت القلادة واشتريت بثمنها عبداً واعتقته.. ويتهلل وجه النبي ﷺ بالبشر والسرور.

ما أروع ذكاء فاطمة وهي تلحظ أباها، ما أروع ذكاءها وهي تشعر بإحساسه الفياض دون أن يتكلم، وما أروع حسن تفكيرها وحرصها على إسعاده ﷺ.

هكذا يكون الشعور المرهف والإحساس الرقيق، وما أجمل هذه العبارة التي تحمل كمال الوصف وحقيقة النسب حين يقول لها المصطفى ﷺ أنت بنت أبيك.

ما أسعدها وهي تترك المباح والزينة والحلال من أجل رضا أبيها الحبيب رسول الله ﷺ، ورضاه من رضا الله تعالى.

لقد لمحت غضب المصطفى ﷺ، وكان ذلك سبباً في فك رقبة وتحرير إنسان من ذل العبودية.. فما أجمل رضاه حين يرضى وما أبلغ غضبه حين يغضب إنه يرضى لله ويغضب لله ويحب لله ويكره لله ويصل لله ويقطع لله ويعطي لله ويحرم لله وكل عمل يعمله إنما هو لله وحده لا شريك له.

وهذه خصوصية أخرى هامة لبنت المصطفى ﷺ حيث إن لبس الذهب ليس بحرام على نساء المسلمين ولكنه في حق فاطمة قضية أخرى لأنها بنت

رسول الله ﷺ ولأنها فاطمة الزهراء وإذا كان القرآن يعلمنا أن نساء النبي لسن كغيرهن من النساء : «يا نساء النبي لستن كأحد من النساء »، فكيف بحب رسول الله ﷺ وبضعة منه .

وهكذا نتعرف على قدر هذه السيدة الحبيبة والإنسانة العظيمة ونعرف لماذا كره لها لبس الذهب مع أنه حلال على نساء المسلمين وغضب عندما هم علي رضي الله عنه بخطبة جويرية بنت أبي جهل مع أن التعدد حلال لكل رجال المسلمين وكل هذا إذاً خصوصية وتميز وتفرد لهذه السيدة البتول بنت المصطفى ﷺ .

*****

وفاة النبي ﷺ

وحان وقت الرحيل عن الدنيا الفانية وإجابة داعي الخالق العظيم، واقترب وقت لقاء الله عز وجل ومضت مشيئته وقد جاءت قرآناً يتلى :

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ .

﴿ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾ .

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ ﴾ .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ ﴾ .

وأخذت طلائع التوديع للحياة والأحياء تظهر على ملامح المصطفى ﷺ، وتتضح من خلال عباراته وأفعاله .

فقد اعتكف في رمضان في السنة العاشرة عشرين يوماً، بينما كان لا يعتكف إلا عشرة أيام، وكأنه كان يحس أن رمضان القادم في السنة الحادية عشرة سيكون في رحاب ربه مع الرفيق الأعلى .

ويدارسه جبريل عليه السلام القرآن الكريم مرتين . وما قاله لمعاذ رضي الله عنه، وما قاله في حجة الوداع .

من سلوكه ﷺ الذي سلكه قبيل وداعه كان منبئاً عن توديعه للحياة والأحياء كل ذلك مؤذناً عن مشاعره ﷺ ومعلناً لها .

ففي أوائل صفر سنة ١١ هـ خرج النبي ﷺ إلى أحد، فصلى على الشهداء كالمودع للأحياء والأموات . ثم انصرف إلى المسجد فقال :

« إني فرطكم وإني شهيد عليكم وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن، وإني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض، أو مفاتيح الأرض، وإني والله ما أخاف أن تشركوا بعدي، ولكني أخاف عليكم أن تنافسوا فيها »[1].

وخرج ليلة من آخر الليل إلى البقيع، فاستغفر لأهلها وقال: « السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهن لكم ما أصبحتم فيه بما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، يتبع آخرها أولها، الآخرة شر من الأولى، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد »[2].

وكان كل ما سبق طلائع تنم عن توديعه للأحياء وكانت نساؤه يرين منه ذلك ويتوجسن منه وبخاصة عائشة رضي الله عنها، وكانت فاطمة رضي الله عنها قد عرفت ذلك أيضاً وأشفقت منه.

وكانت بداية مرض الوداع في اليوم التاسع والعشرين من شهر صفر سنة ١١هـ - وكان يوم الاثنين - وفيه شهد رسول الله ﷺ جنازة في البقيع، فلما رجع، وهو في الطريق أخذه صداع في رأسه، واتقدت الحرارة، حتى إن الصحابة كانوا يجدون أثرها فوق العصابة التي تعصب رأسه.

وقد صلى المصطفى ﷺ بالناس وهو مريض أحد عشر يوماً وجميع أيام المرض كانت ثلاثة عشر يوماً.

وثقل المرض برسول الله ﷺ، فجعل يسأل أزواجه: أين أنا غداً؟ ففهمن مراده، فأذن له يكون حيث يشاء، فانتقل إلى عائشة يمشي بين الفضل بن عباس وعلي بن أبي طالب، عاصباً رأسه تخط قدماه حتى دخل بيتها فقضى عندها آخر أسبوع من حياته المباركة.

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه، واللفظ لمسلم.

ويوم الأربعاء قبل خمسة أيام من الوفاة اتقدت حرارة العلة في بدنه، فاشتد به وجع العلة وأغمى عليه، ثم قال : أهريقوا علي من سبع قرب من آبار شتى، حتى أخرج إلى الناس فأعهد إليهم، فأقعدوه في مخضب، وصبوا عليه الماء حتى طفق يقول : « حسبكم حسبكم ».

وعند ذلك أحس بخفة فدخل المسجد ـ وهو معصوب الرأس ـ حتى جلس على المنبر، وخطب الناس، والناس مجتمعون حوله فقال : « لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » وفي رواية : « قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » وقال : « لا تتخذوا قبري وثناً يعبد ».

وعرض نفسه للقصاص قائلاً : « من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستقد منه، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي فليستقد منه » ثم نزل فصلى الظهر، ثم رجع فجلس على المنبر، وعاد لمقالته الأولى في الشحناء وغيرها، فقال رجل : إن لي عندك ثلاثة دراهم، فقال : أعطه يا فضل، ثم أوصى بالأنصار فقال :

« أوصيكم بالأنصار فإنهم كرشي وعيبتي، وقد قضوا الذي عليهم، وبقي الذي لهم، فاقبلوا من محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم ». ويوم الخميس قبل الوفاة بأربعة أيام، وقد اشتد به الوجع، أوصى بثلاث : أوصى بإخراج اليهود والنصارى والمشركين من جزيرة العرب، وأوصى بإجازة الوفود بنحو ما كان يجيزهم أما الثالثة فنسيها الراوي، ولعلها الوصية بالاعتصام بالكتاب والسنة، أو بإنفاذ جيش أسامة، أو هي الصلاة وما ملكت ايمانكم والله أعلم.

والنبي ﷺ مع ما كان من شدة المرض كان يصلي بالناس جميع صلواته حتى ذلك اليوم ـ يوم الخميس قبل الوفاة بأربعة أيام ـ وقد صلى بالناس ذلك

اليوم صلاة المغرب، فقرأ فيها بالمرسلات عرفاً[١].

ويوم السبت أو الأحد قبل الوفاة بيوم أو بيومين وجد النبي ﷺ في نفسه خفة، فخرج بين رجلين لصلاة الظهر، وأبو بكر يصلي بالناس، فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر، فأومأ إليه بأن لا يتأخر، قال: أجلساني إلى جنبه، فأجلساه إلى يسار أبي بكر، فكان أبو بكر يقتدي بصلاة رسول الله ﷺ ويسمع الناس التكبير[٢].

وفي يوم الأحد أعتق النبي ﷺ غلمانه وتصدق بسبعة دنانير كانت عنده، ووهب للمسلمين أسلحته.

وجاء آخر يوم في حياة المصطفى ﷺ، وقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه: أن المسلمين بينما هم في صلاة الفجر من يوم الاثنين وأبو بكر يصلي بهم، لم يفجأهم إلا رسول الله ﷺ كشف ستر حجرة عائشة، فنظر إليهم، وهم في صفوف الصلاة، ثم تبسم يضحك فنكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف، وظن أن رسول الله ﷺ يريد أن يخرج إلى الصلاة.

فقال أنس: وهم المسلمون أن يفتتنوا في صلاتهم، فرحاً برسول الله ﷺ، فأشار إليهم رسول الله ﷺ بيده أن أتموا صلاتكم ثم دخل الحجرة وأرخى الستر[٣] ثم لم يأت على رسول الله ﷺ وقت صلاة أخرى وكان ذلك وداعاً أخيراً منه لأصحابه، ولم يعلموا ذلك حتى توفاه الله ضحى ذلك اليوم.

ولما ارتفع الضحى، وأحس المصطفى ﷺ أن فاطمة رضي الله عنها قد أبطأت عليه في هذا اليوم، دعاها، فأتت إليه مهرولة.

---

(١) متفق عليه. وانظر الرحيق المختوم ص ٤٥٠.
(٢) صحيح البخاري ١: ٩٨، ٩٩.
(٣) صحيح البخاري باب مرض الرسول ﷺ ٢: ٦٤٠.

قالت عائشة رضي الله عنها : فجاءت فاطمة تمشي كأن مشيتها مشية رسول الله ﷺ. فقال : مرحباً بابنتي فأجلسها عن يمينه أو عن شماله ثم أسر إليها شيئاً فبكت، ثم أسر لها شيئاً فضحكت.

قالت ـ عائشة ـ قلت : مارأيت ضحكاً أقرب من بكاء. قلت : أي شيء أسر إليك رسول الله ﷺ ؟

قالت الزهراء رضي الله عنها : ما كنت لأفشي سره !

فلما قبض سألتها فقالت : قال : إن جبريل كان يأتيني كل عام فيعارضني بالقرآن مرة وأنه أتاني العام فعارضني مرتين، ولا أظن إلا أجلى قد حضر، ونعم السلف أنا لك، قالت وقال : أنت أول أهل بيتي لحاقاً بي، قالت : فبكيت لذلك، ثم قال : أما ترضين أن تكوني سيدة نساء هذه الأمة أو نساء العالمين ؟ قالت : فضحكت(١).

وفي رواية قال رسول الله ﷺ : إنه يقبض في وجعه هذا فبكيت ثم أخبرني أني أول أهله لحاقاً به فضحكت.

وفي رواية ثالثة قالت : أخبرني ﷺ أنه يموت، ثم أخبرني أني سيدة نساء أهل الجنة بعد مريم بنت عمران فلذلك ضحكت(٢).

ورأت فاطمة رضي الله عنها ما برسول الله ﷺ من الكرب الشديد الذي يتغشاه، فقالت : واكرب أباه. فقال ﷺ لها : ليس على أبيك كرب بعد اليوم(٣) يا فاطمة.

---

(١) صحيح البخاري باب مرض الرسول ﷺ . انظر طبقات ابن سعد .

(٢) في بعض الروايات أن هذا الحوار والبشارة لم يكونا في آخر يوم بل كانا في آخر أسبوع .

(٣) صحيح البخاري ٢ : ٦٤١.

ودعا المصطفى ﷺ الحسن والحسين فقبلهما ، وأوصى بهما خيراً، ودعا أزواجه فوعظهن وذكرهن.

وأوصى الناس فقال : « الصلاة، الصلاة، وما ملكت أيمانكم، كرر ذلك مراراً »[1].

وبدأ الاحتضار، فأسندته عائشة إليها، وكانت تقول: إن من نعم الله علي أن رسول الله ﷺ توفي في بيتي وفي يومي وبين سحري ونحري، وأن الله جمع بين ريقي وريقه عند موته. دخل عبد الرحمن ـ بن أبي بكر ـ وبيده السواك، وأنا مسندة رسول الله ﷺ فرأيته ينظر إليه، وعرفت أنه يحب السواك فقلت : آخذه لك؟ فأشار برأسه أن نعم، فتناولته فاشتد عليه، وقلت: ألينه لك؟ فأشار برأسه أن نعم. فلينته، فأمره ـ وفي رواية أنه استن به كأحسن ما كان مستناً ـ وبين يديه ركوة فيها ماء، فجعل يدخل يديه في الماء. فيمسح بها وجهه، يقول لا إله إلا الله، إن للموت لسكرات[2].

وبعد أن فرغ من السواك رفع يده أو إصبعه، وشخص بصره نحو السقف، وتحركت شفتاه، فأصغت إليه عائشة وهو يقول : « مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، اللهم أغفر لي وأرحمني وألحقني بالرفيق الأعلى، اللهم الرفيق الأعلى »[3].

وكانت الوفاة حين اشتدت الضحى من يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١١هـ، وقد تم له ﷺ ثلاث وستون سنه قمرية وزادت أربعة أيام.

ولما مات المصطفى ﷺ قالت فاطمة رضي الله عنها : يا أبتاه أجاب رباً

---

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق ص ٦٤٠.

(٣) المصدر السابق ص ٦٣٨، ٦٣٩، ٦٤٠، وباب آخر ماتكلم النبي ﷺ .

دعاه، يا أبتاه في جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه، يا أبتاه من ربه أدناه.

ولما حضرت النبي ﷺ الوفاة، بكت فاطمة حتى سمع النبي ﷺ صوتها، فقال ﷺ « لا تبكي يابنية، قولي إذا ما مت: إنا لله وإنا إليه راجعون، فإن لكل إنسان بها من كل مصيبة معوضة »، قالت فاطمة رضي الله عنها: ومنك يا رسول الله؟ قال: ومني.

ودفن المصطفى ﷺ يوم الثلاثاء في ليلة الأربعاء، في مكانه الذي توفي فيه.

وجمعت الزهراء رضي الله عنها كيانها الممزق، وتحاملت تسعى إلى قبر الحبيب ﷺ، وما تقوى قدماها على حملها، حتى إذا بلغته أخذت قبضة من تراب القبر فأدنتها من عينيها، اللتين قرحهما البكاء، ثم راحت تشمها وهي تقول متفجعة:

ماذا على من شم تربة أحمد ألا يشم مدى الزمان غواليا؟

صبت علي مصائب لو أنها صبت على الأيام عدن لياليا

واستعبرت باكية، وبكى الناس حولها لبكائها، وتقطعت قلوبهم وهم يرونها تفلت التراب من بين أناملها، ثم تحدق في يديها الفارغتين، وتمضي كمن فرغت من الدنيا.

واتبعوها عيونهم الدامعة وقلوبهم المتصدعة، حتى إذا بلغت دارها استأذن عليها أنس بن مالك خادم أبيها ﷺ، وراح يسألها الصبر الجميل، فقالت له معاتبة: يا أنس أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب؟!

وبكت أم أيمن رضي الله عنها حاضنة النبي ﷺ بكاءاً شديداً فقيل لها يا أم أيمن أتبكين على رسول الله ﷺ، فقالت: أما والله ما أبكي عليه ألا أكون

أعلم أنه ذهب إلى ما هو خير له من الدنيا، وكن أبكي على خبر السماء انقطع!.

وبكى الصحابة رضوان الله عليهم، بكاءاً لم يبكوا مثله على أحد وبكت النساء والولدان بكاءاً ما بكين على أحد مثله من قبل ولا من بعد.. وعافت الزهراء رضي الله عنها، الدنيا، فقد بشرها المصطفى ﷺ بأنها أول أهله لحوقاً به، فلم تر قط منذ مات أبوها ﷺ إلا محزونة صابرة متفكررة ذاكرة مودعة الدنيا مقبلة على الآخرة مستبطئة الأيام، مستعجلة اللحاق بأبيها حيث الرفيق الأعلى.

ولما كان اليوم الذي توفي فيه رسول الله ﷺ بويع لأبي بكر رضي الله عنه في ذلك اليوم، فلما كان من الغد جاءت فاطمة إلى أبي بكر رضي الله عنه ومعها علي كرم الله وجهه، فقالت: ميراثي من رسول الله ﷺ أبي، فقال أبو بكر رضي الله عنه: أمن الرثة أو من العقد؟ قالت: فدك وخيبر وصدقاته بالمدينة أرثها كما يرثك بناتك إذا مت.

فقال أبو بكر: أبوك والله خير مني، وأنت والله خير من بناتي، وقد قال رسول الله: لا نورث، ما تركنا صدقة (يعني هذه الأموال القائمة) فيعلمن أن أباك أعطاكها، فوالله لئن قلت نعم لأقبلن قولك، قالت: قد أخبرتك ما عندي.

وقال لفاطمة وعلي والعباس: إن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث ما تركناه صدقة» فذكر الصحابة ذلك.

وطابت نفس فاطمة رضي الله عنها بما كان من قضاء أبي بكر رضي الله عنه وإن الأنبياء لا يورثون مالاً وعاشت زاهدة راضية حتى وافاها الأجل فكانت أول اللاحقين بأبيها من أهل بيته كما بشرها بذلك فطابت بالبشرى وعلمت أن الآخرة خير من الأولى وأبقى.

وفي كتاب فضائل الصحابة من صحيح البخاري حديث الزهري عن عروة ابن الزبير عن عائشة أن فاطمة أرسلت إلى أبي بكر تسأله ميراثها من النبي ﷺ فيما أفاء الله على رسوله ﷺ تطلب صدقة النبي ﷺ التي بالمدينة وفدك وما بقي ممن خمس خيبر فقال أبو بكر : إن رسول الله ﷺ قال : « لا نورث ما تركناه فهو صدقة إنما يأكل آل محمد من هذا المال - يعني مال الله - ليس لهم أن يزيدوا على المأكل » وإني والله لا أغير شيئاً من صدقات النبي ﷺ التي كان عليها في عهد النبي ﷺ ولأعملن فيها بما عمل فيها رسول الله ﷺ. فتشهد علي ثم قال : إنا عرفنا يا أبا بكر فقال : والذي نفسي بيده لقرابة رسول الله ﷺ أحب إلي أن أصل من قرابتي وأوسع منه »[1].

وفي كتاب الوصايا من صحيح البخاري وكتاب فرض الخمس منه حديث أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لا يقتسم ورثتي ديناراً ما تركت - بعد نفقة نسائي ومؤونة عاملي فهو صدقة » قال شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة : قول النبي ﷺ : « لا نورث ما تركناه صدقة » رواه عنه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف والعباس بن عبد المطلب وأزواج النبي ﷺ وأبو هريرة والرواية عن هؤلاء ثابتة في الصحاح والمسانيد وقال قبل ذلك : إن الله تعالى صان الأنبياء أن يورثوا دنيا لئلا يكون ذلك شبهة لمن يقدح في نبوتهم بانهم طلبوا دنيا وورثوها لورثتهم، ثم إن من ورثة النبي ﷺ أزواجه ومنهم عائشة بنت أبي بكر وقد حرمت نصيبها بهذا الحديث النبوي ولو جرى أبو بكر مع ميله الفطري لأحب أن ترث ابنته.

وفي كتاب فرض الخمس من صحيح البخاري حديث ابن شهاب عن عروة

---

(١) كتاب المغازي، باب غزوة خيبر من صحيح البخاري.

ابن الزبير أن عائشة أم المؤمنين أخبرت أن فاطمة ابنة رسول الله سألت أبا بكر الصديق بعد وفاة رسول الله ﷺ أن يقسم لها ميراثها مما ترك رسول الله ﷺ مما أفاء الله عليه فقال لها أبو بكر : إن رسول الله ﷺ قال : « لا نورث ما تركنا صدقة » فأبى أبو بكر عليها ذلك وقال : لست تاركاً شيئاً كان رسول الله ﷺ يعمل به إلا عملت به . فإني أخشى أن تركت شيئاً من أمره أن أزيغ .

وفي الباب نفسه من صحيح البخاري من حديث الإمام مالك بن أنس عن ابن شهاب عن مالك بن أوس بن الحدثان النصري أنه قال : بينما أنا جالس في أهلي حين متع النهار إذ رسول عمر بن الخطاب فقال : أجب أمير المؤمنين . فانطلقت معه فبينا أنا جالس عنده أتاه حاجبه يرفأ فقال : هل لك في عثمان وعبد الرحمن بن عوف والزبير وسعد بن أبي وقاص يستأذنون ؟ قال : نعم . فأذن لهم . ثم جلس يرفأ يسيراً ثم قال : هل لك في علي وعباس؟ قال نعم فأذن لهما فدخلا فسلما فجلسا . فقال عباس : يا أمير المؤمنين اقض بيني وبين هذا وهما يختصمان فيما أفاء الله على رسوله ﷺ من بني النضير فقال الرهط عثمان وأصحابه : يا أمير المؤمنين أقض بينهما وارح أحدهما من الآخر . قال عمر : تيدكم أنشدكم بالله الذي بإذنه تقوم السموات والأرض هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال : « لا نورث ما تركناه صدقة » يريد رسول الله ﷺ نفسه ؟ قال الرهط : قد قال ذلك .

فأقبل عمر على علي وعباس فقال : أنشدكما الله أتعلمان أن رسول الله ﷺ قد قال ذلك قالا : قد قال ذلك وبعد أن ذكر أنه ﷺ كان ينفق على أهله سنتهم من هذا المال ثم يجعل ما بقي مجعل مال الله واستشهد على ذلك فشهدوا ، قال : ثم توفى الله نبيه ﷺ فقال أبو بكر : أنا ولي رسول الله ﷺ فقبضها ، فعمل فيها بما عمل رسول الله ﷺ والله يعلم أنه فيها لصادق بار راشد تابع للحق ، ثم توفى الله أبا بكر فكنت أنا ولي أبي بكر فقبضتها سنتين من إمارتي أعمل فيها

بما عمل رسول الله ﷺ وما عمل فيها أبو بكر والله يعلم أني لصادق بار راشد تابع للحق ثم جئتماني تكلماني وكلمتكما واحدة وأمركما واحد جئتني يا عباس تسألني نصيبك من ابن أخيك، وجاءني هذا - يريد علياً - يريد نصيب امرأته من أبيها، فقلت لكما إن رسول الله ﷺ قال: « لا نورث ما تركنا صدقة » فلما بدا لي أن أدفعها إليكما قلت: إن شئتما دفعتها إليكما على أن عليكما عهد الله وميثاقه لتعملان فيها بما عمل فيها رسول الله ﷺ، وبما عمل فيها أبو بكر وبما عملت فيها منذ وليتها. فقلتما: ادفعها إلينا بذلك فدفعتها إليكما. فأنشدتكم بالله هل دفعتها إليهما بذلك؟ قال الرهط: نعم ثم أقبل على علي وعباس فقال: أنشدكما بالله هل دفعتها إليكما بذلك؟ قالا: نعم. قال: أفتلتمسان مني قضاء غير ذلك فوالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض لا اقضي فيها قضاء غير ذلك فإن عجزتما عنها فادفعاها إلي فإني أكفيكماها.

وأورد البخاري حديث مالك بن أنس هذا في كتاب المغازي من صحيحه وقد نبه شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة إلى أن أبا بكر وعمر أعطيا من مال الله أضعاف هذا الميراث للذين كانوا سيرثونه قال: وإنما أخذ منهم قرية ليست كبيرة، لم يأخذ منهم مدينة ولا قرية عظيمة ثم قال وقد تولى علي بعد ذلك وصارت فدك وغيرها تحت حكمه ولم يعط لأولاد فاطمة ولا زوجات النبي ﷺ ولا ولد العباس شيئاً من ميراثه[1].

وأخذت فاطمة رضي الله عنها تستعد لليوم المحتوم، يوم أن تلحق بأبيها، ملبية نداء ربها، وتصعد روحها الطاهرة إلى الرفيق الأعلى، ولم يطل بها البقاء في الحياة الدنيا فما هي إلا ستة أشهر بعد موت أبيها ﷺ حتى لحقت به رضي الله عنها.

---

(١) من تعليقات محب الدين الخطيب على حواشي العواصم من القواصم لأبي بكر ابن العربي ص ٤٨ ومابعدها.

وكيف نحب الزهراء رضي الله عنها

الحب في الله نعمة عظيمة، ومنة كبيرة، لأن الله عز وجل قد جعل للمتحابين في الله درجة كبيرة ورفعة عظيمة وبركة وخيراً، كما أمرنا به الرسول ﷺ يوم قال: « ثلاثة من كن فيه وجد حلاوة الإيمان » وذكر في مقدمة هذه الأمور الثلاثة أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار.

فكيف إذا كان هذا الحب لله وفي محبة رسول الله ﷺ ولآل بيته الكرام رضوان الله عليهم جميعاً، ثم كيف يكون الأمر إذا كان ذلك في شأن الزهراء البتول أم أبيها، التي أحبها رسول الله ﷺ وأمر بحبها وأعزها وأكرمها وأجلها وصرح في أكثر من مناسبة أنها بضعة منه يرضيه ما يرضيها ويغضبه ما يغضبها[1] هذه السيدة الفاضلة التي حفظ في نسلها النسب الشريف لرسول الله ﷺ، ولا شك أن شأن هذه السيدة عظيم وقدرها كبير فقد أعزها رسول الله ﷺ وقدرها وأمر بوصلها ووصل بنيها وودهم وحبهم، وصرح رسول الله ﷺ وأخذ يذكرنا: « أذكركم الله في آل بيتي. أذكركم الله في آل بيتي ».

إن هذه السيدة الفاضلة رضي الله عنها تستحق منا كل حب وتقدير لأنها بنت رسول الله، ولأنها المجاهدة الصابرة التي صبرت على الكثير من الأذى مع أمها الشريفة الفاضلة في الشعب وبعد الشعب، وفي أذى قريش، ولأنها

---

(١) في البخاري حين أراد علي أن يخطب ابنة أبي جهل قال النبي ﷺ: يغضبني ما يغضبها ».

بنت رسول الله ﷺ الذي ينقطع كل نسب يوم القيامة إلا نسبها إلى رسول الله ﷺ، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «ينقطع يوم القيامة كل سبب ونسب إلا سببي ونسبي»[1] وقد نبه إلى حبها وخطورة بغضها يوم قال ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يبغضنا أهل البيت أحد إلا أدخله الله النار».

ومن هنا فإن حب الزهراء رضي الله عنها وأرضاها وبنيها وآل البيت جميعاً قضية أساسية ومسألة إيمانية؛ فهذا رسول الله ﷺ يقول: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً، كتاب الله وعترتي، وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهم». فهل نخلف رسول الله ﷺ إلا بالحب والتقدير والاحترام والإجلال لآل بيته الكرام رضوان الله عليهم جميعاً، ولهذه السيدة الفاضلة البتول النبيلة رضي الله عنها وأرضاها، نحبها لأن الله عز وجل أحبها، ورسول الله ﷺ أحبها وعلمنا وأمرنا بحبها.

وهذا رسول الله ﷺ يوصينا في الحديث الصحيح الذي يرويه ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «أحبوا الله لما يغذوكم من نعمة وأحبوني بحب الله وأحبوا أهل بيتي بحبي»[2] ومن هنا كانت قضية الحب قضية أساسية في الله ولله، ولكنها مسئولية كبيرة يتحسب الإنسان لها ويتحسب لإيمانه عندما تأتي في مجال حب آل بيت رسول الله ﷺ وهذه السيدة الجليلة رضوان الله عليهم.

وهذه المحبة خاصة تحتاج إلى ميزان عدل ووعي ومسئولية بأبعاد هذا الحب، فنحن عندما نحب آل بيت رسول الله ﷺ نحرص على أن نجعلهم

---

(١) رواه أربعة من الصحابة: عمر وابن عباس وابن عباس وابن الزبير والمسور بن مخرمة انظر مسند أحمد ٤: ٣٢٣ والحاكم ٣: ١٥٨ وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) رواه الترمذي عن ابن عباس (٣٧٨٩) وقال: حسن غريب، ورواه الحاكم ٣: ١٥٠ وصححه ووافقه الذهبي.

القدوة والأسوة بالنسبة لنا وعندما نحبهم لابد أن نعرف أين نقف من ميزان الشرع الحنيف، فنحب هؤلاء لحبنا لرسول الله ﷺ الذي ينطلق بنا إلى حبنا لله، لأن الله أمرنا ووضح لنا عز وجل أننا إذا كنا نحب الله فعلينا أن نتبع رسول الله ﷺ وبالتالي نتبع عترة الطاهرة الشريفة وصحابته الكرام البررة الذين نقلوا إلينا هذا الدين العظيم وعلمونا أن نعض عليه بالنواجذ ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾.

ومن هنا فالقضية إيمانية حساسة تحتاج منا إلى أننا في الوقت الذي نقبل على حب آل البيت بكل جوارحنا وبعقولنا وبقلوبنا لابد أن ندرك أن هناك مسئولية تستدعي أن نقف عند حدود الله عز وجل وأن نكرمهم ونجلهم بما يستحقونه وأن لا نزيد عن ميزان الشرع وأن لا نخل في الآداب ولا نتنكب عن طريق الصواب، ففي الوقت الذين نحبهم ونحب كل من أحبهم رسول الله ﷺ معهم، ونؤدي حقوق الله المطلوبة لابد أن نقف عند حدود الشرع الحنيف ونلتزم بآداب المصطفى ﷺ فلا نظلم ولا نغلو ولا نتجاوز حدود هذا الشرع الحنيف ونحترم آل بيت رسول الله ﷺ وصحابة رسول الله والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ونحترم ونجل كل مؤمن مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فضلاً عن خلفاء الأمة وصحابتها الكرام وفضلائها وأوليائها الصالحين.

والحب دون شك يبدأ بالاتباع والإقبال عليهم لأنهم كما جاء في الحديث الشريف: « ألا إن أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح من قومه من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق » هذه السيدة الجليلة التي قال لها رسول الله ﷺ: «إني وإياك وهذا الراقد ـ وكان علياً رضي الله عنه ـ والحسن والحسين يوم القيامة لفي مكان واحد»[1] ولاغرابة في ذلك لأنهم العترة الطاهرة.

---

(١) رواه أحمد ١ : ١٠١، وصححه الأستاذ أحمد شاكر في تعليقه على المسند (٧٩٢).

إن حب الزهراء رضي الله عنها وبنيها وما تناسل منها، يحتاج كما أسلفنا إلى ميزان حق وعدل، وأن نأخذ من رسول الله ﷺ القدوة والأسوة في هذه المحبة، فعلى الرغم من أنه أحبها وحببنا فيها، وأمرنا بحبها وحب بنيها وما تناسل منها، وعلى الرغم من شدة إكرامه لها وقيامه لها إذا اقبلت وتكريمها في كل مناسبة، والحث على حسن معاملتها وإكرام بنيها، إلا أنه ﷺ حرص في أكثر من مناسبة على أن نقف منها موقف الحق والعدل حتى في بعض المطالب البسيطة التي طلبتها فكان جوابه ﷺ لها برفق ولين ولكنه لم يحد عن طريقه القويم عليه أفضل الصلاة والسلام، وحرص من خلال تعامله مع الزهراء البتول أن يعلمنا طريق العدل والحق، ولهذا فنحن من واجبنا أن نلتمس الطريقة المثلى في حب الزهراء البتول رضي الله عنها.

وهذا سيدنا علي رضي الله عنه يوضح خطورة منهج الغلو والشطط والإفراط والتفريط فقال، رضي الله عنه: « يهلك فيّ رجلان محب غالٍ يقرظني بما ليس في ومبغض مغال يرميني بما نزهني الله منه » وهذا هو سبب هلاك كثير من الناس وضلالهم فالمفروض أن نعطي هذه العترة الكريمة الطاهرة وخاصة السيدة فاطمة الزهراء وزوجها وبنيها ما أعطاهم الله من الفضل، وليتنا نستطيع أن نوفيهم حقهم من الفضل ولا حاجة بنا إلى الشطط وإلى الغلو وذكر ونسب أشياء إليهم مما لم يرد فيه نص صحيح وليسوا بحاجة إلى زيادة منا، والمفروض في المحب لآل البيت ولهذه العترة الطاهرة أن لا يكون ضالاً ولا غالياً بل مهتدياً راشداً فإن صلاح العبد هو في أن يعلم أن الحق أحق أن يتبع، ويبحث عن الحق ويعمل به فإذا لم يعمل بالحق وهو ضال عنه فإثمه أقل دون شك من أولئك الذين يعلمون الحق وينكرونه فمن علم الحق وخالفه واتبع الهوى فهو غاو دون شك والمفروض أن من يعرف النصوص الصحيحة الواردة في حق آل البيت أن يتبعها فيكون

ممن اتبع الصراط المستقيم الذي أمرنا الله سبحانه وتعالى به وأن لا يكون من أولئك المغضوب عليهم الذين يعرفون الحق ولا يتبعونه .

ومن هنا تاتي خطورة البعد عن الحق واتباع الهوى حتى في حب الزهراء لأن المفروض أن نلتزم الحق والعدل فيها وفي حبها وفي ما نروي عنها وأن لا نكون من أولئك الذين يتبعون الهوى بغير علم والذين قال فيهم الله عز وجل : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ .

ويحذرنا الله سبحانه وتعالى من هذه المسألة ويأمرنا بالعودة إلى الحق والتأكد مما نقول في كل شأن من شئون الدين فكيف إذا كان الأمر متصلاً بمثل هذه القضية الجوهرية وهي حب آل رسول الله ﷺ وهذه السيدة الجليلة الطاهرة في قمة هذا البيت الطاهر الطيب، ولا شك أن من تمام الهداية أن ينظر الإنسان المحب في القرآن الكريم وفي السنة المطهرة، ويحرص على ما تواتر من سنة سيدنا محمد ﷺ وسنة الخلفاء وما نقل من الثقات ويحرص ويميز وأن لا يأخذوا الأمور من المصادر الموثوقة التي يتأكد منها أو يتأكد ممن يثق فيهم من أهل العلم والفضل وألا يتعمد الكذب سواء بطريق الخطأ أو سوء الحفظ بل يقف عند حدود الشرع الحنيف ويضبط نفسه ومشاعره، ولعل خطورة هذه المسألة هو ما يحدث عند بعض الناس من : « عدم التمييز بين ما يعقل من النصوص والآثار، أو يعقل بمجرد القياس والاعتبار ثم إذا خالف الظن والغلط في العلم هوى النفوس ومناها في العمل صار لصاحبها نصيب من قوله تعالى : ﴿ إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى[1] ﴾ .

ثم نأتي إلى قضية أخرى وهي مسئولية أولئك الذين ينتسبون إلى آل البيت

---

(١) رسالة فضل أهل البيت وحقوقهم لشيخ الإسلام ابن تيمية تعليق أبي تراب الظاهري ، ص ٣٤.

وإلى هذه السيدة الجليلة الفاضلة، فاطمة الزهراء وأمها خديجة الكبرى فمن حاز هذا الشرف وهو شرف الانتساب إلى أصل الدوحة النبوية الكريمة الطاهرة دوحة سيد الخلق سيدنا محمد وأشرف الأنبياء والمرسلين فإن عليه مسئووليات وتبعات ففي الوقت الذي حاز فيه ميزات وحسنات الانتساب إلى هذا البيت إلا أن هذا الانتساب له مسئوليات عظيمة وأهمها أن يتحقق من أنه لا ينتسب إلى هذا البيت إلا بحق، فشرف الانتساب شرف عظيم، ومن الخطورة أن يُزوِّر في هذا النسب، ولابد أن يتمثل في أخلاقه وأعماله القدوة الحسنة لرسول الله ﷺ، ومن أول واجبات هذه الذرية الطاهرة، أن تعلم أنها مسئولة عن الأسوة الكريمة لأنها أولى الناس بها، أسوة به ﷺ وبآل بيته الكرام، ولهذا فإن آل البيت مسئولون عن تعويد أبنائهم على هذه الأسوة الكريمة، ومن واجب آل بيت رسول الله الطيبين الطاهرين أن يحرصوا على كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، تلاوة خاشعة وتدبراً عميقاً وتجسيداً عملياً لما جاء فيهم من الأخلاق الكريمة، ليكون لهم رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة من الله تعالى، ولابد أن يكونوا مصابيح هداية للمسلمين علماً وعملاً، وأن يكونوا أكثر الناس غيرة على دين الله وعلى حرماته أن تنتهك، وعلى سنة نبيه ﷺ أن تترك وأن يكون لهم بجدهم ﷺ أسوة في إعراضه عن الدنيا وإقباله على الآخرة.

وآل البيت هم أهل البر والتقوى، وهم أحرى الناس أن يكونوا من المقربين الأبرار والصالحين الأخيار، ويتذكروا قول الله عز وجل في خطابه لهم: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾.
وقد طهرهم وأكرمهم وحرم عليهم الصدقة كما حرمها على رسول الله ﷺ، لأن الصدقة أوساخ الناس، أي مطهرة لهم، وهذا من باب التطهير الذي شرعه الله تعالى لهم، ولهذا قال رسول الله ﷺ: « إن الصدقة لا تحل لمحمد

ولا لآل محمد » وهذه نقطة سبق مناقشتها في كتابي عن آل بيت رسول الله ﷺ، عندما أوضحت أن الزكاة والصدقات لا تدفع لآل البيت في الأساس، ولكن إذا كانوا مضطرين، ولم يجدوا ما يأكلونه، ولم يجدوا ما ينفقون على أنفسهم منه، فهم أولى الناس بالإكرام، وأولى بالعطاء. وفي هذه الحالة يمكن إعطاؤهم من أي جانب أو من أي مصدر من هذه المصادر، على سبيل الضرورة والاضطرار.

ومما ينبغي على آل البيت أن يعلموه هو أن يكونوا ناصحين لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، ومن النصح ـ دون شك ـ البعد عن مواطن الاختلاف، والحذر من تصديق أهل الأهواء، وما يفترونه من أقوال كاذبة خاطئة في حق بعض أعلام آل البيت الطاهر، ومما يتنافى مع صريح القرآن الكريم وسنة النبي ﷺ، ويخالف المعقول والمنقول والثابت والمعلوم من الدين، وما أجمع عليه أهل السنة والجماعة في كل العصور السالفة، وأن يعلموا كذلك أن هناك من الناس الذين يتخذون حب آل البيت مطية لأهوائهم وخداعهم وبث آرائهم الضالة وعقائدهم الفاسدة.

فالمفروض أن يتنبه آل البيت الكرام لهؤلاء، وأن لا يسمحوا لهم بالتسلل إلى نفوسهم وخداعهم، لأن من المعلوم أن أهل السنة والجماعة يحبون آل البيت المحبة الصادقة النابعة من الاعتقاد الراسخ بوجوب حبهم على كل مسلم، مستندين إلى الآيات الكريمة والأحاديث الثابتة.

ويكفيهم فخراً أن يقول الرسول ﷺ فيهم: « إني تارك فيكم الثقلين، كتاب الله وعترتي وإنهما لن يتفرقا حتى يردا عليَّ الحوض ». هذا شأن عظيم دون شك، وعلى آل البيت أن يدركوا عظم المسئولية الملقاة على عاتقهم. وهذا سيدنا علي بن الحسين، زين العابدين، وقرة عين الإسلام يقول، وهو يقدر عظم المسئولية الملقاة على آل البيت: « إني لأرجو أن يعطي الله للمحسن

منا أجرين وأخاف أن يجعل للمسيء منا وزرين » .

وليحذر الذين يسيئون إلى آل البيت بأي شكل من الأشكال، سواءً بالسخرية منهم أو بالاستهزاء، أو الإيذاء، أو ظلمهم أو حرمانهم من حقوقهم التي أوجبها الله لهم. فقد حذر رسول الله ﷺ من الإساءة إلى هذه العترة الطاهرة. وأحاديث رسول الله ﷺ في هذا المجال واضحة :

عن المسور بن مخرمة أن الرسول ﷺ قال : « فاطمة بضعة مني فمن أغضبها فقد أغضبني » .

وعن عبد الله بن الزبير أن علياً عندما ذكر بنت أبي جهل قال الرسول ﷺ : « إن فاطمة بضعة مني يؤذيني ما آذاها ويغضبني ما أغضبها » .

ولاشك أن هناك واجبات عظيمة يجب أن يؤديها المسلم لهذه الذرية الطاهرة، ويحرص على إكرامها واحترامها ومحبتها، ولاسيما هذه السيدة العظيمة رضي الله عنها فاطمة الزهراء، فقد قال ﷺ : « اشتد غضب الله على من آذاني في عترتي »[1] .

وحتى جعل من يحاربهم كأنما حارب رسول الله ﷺ فقد جاء في الحديث الشريف أن الرسول ﷺ قال لعلي وفاطمة والحسن والحسين : « أنا حرب لمن حاربتم وسلم لمن سالمتم »[2] .

ونبه الرسول ﷺ إلى خطورة إيذاء آل البيت كما جاء في الحديث، قال ﷺ : «من آذى شعرة مني فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله » . رواه ابن عساكر .

وقد نبهنا الرسول ﷺ إلى أهمية إكرام آل البيت ومحبتهم، فعن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أربعة أنا لهم شفيع يوم القيامة : المكرم

---

(١) رواه الديلمي في مسند الفردوس .

(٢) رواه الإمام أحمد ٢ : ٤٤٢عن أبي هريرة، ورواه الترمذي (٣٨٧٠).

لذريتي، والقاضي لهم حوائجهم، والساعي لهم في أمورهم عندما اضطروا إليه، والمحب لهم بقلبه ولسانه». (رواه الديلمي).

وعن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أثبتكم على الصراط أشدكم حباً لأهل بيتي ولأصحابي»، رواه ابن عدي في الكامل والديلمي في مسند الفردوس.

وعن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا وفاطمة والحسن والحسين مجتمعون ومن أحبنا يوم القيامة؛ نأكل ونشرب حتى يفرق بين العباد». (رواه الطبراني في الكبير وابن عساكر).

عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها هلك»[1]. (رواه ابن جرير).

وفي رواية عن أبي ذر: «مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح في قوم نوح من ركب فيها نجا ومن تخلف عنها هلك، ومثل باب حطة في بني إسرائيل». (رواه الطبراني في الكبير).

وقد أوضح رسول الله ﷺ فضل القربى من هذا البيت الطاهر عندما نبهنا إلى الفضل العظيم في مصاهرة آل البيت، حتى حرص سيدنا عمر رضي الله عنه أن يتزوج بنت سيدنا علي ليلحق بفضل مصاهرة آل البيت الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «إني سألت ربي أن لا أتزوج إلى أحد من أمتي ولا يتزوج إلي أحد من أمتي إلا كان معي في الجنة، فأعطاني ذلك». رواه ابن النجار.

عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «سألت ربي لأصهاري الجنة فأعطانيها البتة». (رواه أبو الخير الحاكمي القزويني).

وعن ابن أبي أوفى قال: قال رسول الله ﷺ: «من تزوجت إليه أو تزوج

---

(١) ورواه البزار في كشف الأستار ٣:٢٢٢.

إليَّ حرمه الله على النار ». (رواه ابن عساكر).

وقال ﷺ : « سألت ربي ألاّ أزوج إلا من أهل الجنة ولا أتزوج إلا من أهل الجنة »[1].

ولاشك أن من يحسن إلى آل البيت ويحرص على صنع المعروف معهم، فإن مكافأته ستكون من رسول الله ﷺ.

وفي الختام نقول: إن حب الزهراء واجب، واحترامها وتقديرها وتكريمها جزء من القضية الإيمانية. ولكن المسألة الهامة هي أن نحبها كما أمرنا رسول الله ﷺ، وأن لا نتعدى ولا نتجاوز، وأن نقف عند حدود الأدب مع رسول الله ﷺ يوم تلا: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾. فالرابطة بهم هي رابطة برسول الله ﷺ ولكنها الإيمان والتقوى، لأنه عليه الصلاة والسلام ألغى كل نسب خارج هذه الدائرة الإيمانية حتى من أقرب الناس لهم، مثل عمه أبي لهب، لأن المطلوب في هذه القضية الإيمانية، قضية حب الزهراء وبينها وآل البيت عموماً، أن يقيم الإنسان الوزن بالقسط، فالله سبحانه وتعالى يعلمنا: (وأقيموا الوزنَ بالقسط ولا تُخسروا الميزان). وينبهنا إلى قضية مهمة: (إن أكرمكم عند الله أتقاكم).

وبعد، فهذه هي الطريقة المثلى لحب البتول الطاهرة، والتي يجب على كل محب اتباعها والأخذ بها، وعسى الله أن يتقبل منا جميعاً، وأن يكرمنا سبحانه وتعالى بحبنا لها ولذريتها، وأن يريَنا الطريق السليم والمنهج الصحيح لهذا الحب، وأن يدلنا على الحق فالحق أحق أن يتبع اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آل البيت الكرام والصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

---

(١) رواه الحاكم ٣ : ١٣٧وصححه ووافقه الذهبي.

أخلاق الزهراء

كانت رضي الله عنها كريمة الخلق، نبيلة النفس، جليلة الحس، سريعة الفهم، مرهفة التفكير، متوقدة الذهن، جزلة المروءة غرّاء المكارم، لا يقترب منها الزهو ولا الخيلاء.

وكانت سبطة الخليقة في سماحة وهوادة، إلى رحابة صدر، وسعة أناة، وسكينة ووقار، ورفق ورزانة، وعفة وصيانة.

عاشت قبل وفاة أبيها متهللة العزة، وضاحة المحيا، حسنة البشر، باسمة الثغر، وغربت بسمتها منذ وفاة أبيها ﷺ.

كانت رضي الله عنها لا يجري لسانها بغير الحق، ولا تنطق إلا بالصدق، ولا تذكر أحداً بسوء، فلا غيبة ولا نميمة، ولا همز ولا لمز، تحفظ السر، وتفي بالوعد، وتصدق النصح، وتقبل العذر، وتتجاوز عن الإساءة، صادقة في قولها، صادقة في نيتها، صادقة في وفائها، وهي تعرف أن زوجها علياً ما بلغ عند رسول الله ﷺ إلا بصدق الحديث وأداء الأمانة.

عن عمرو بن دينار قال : قالت عائشة رضي الله عنها : «ما رأيت أحداً قط أصدق من فاطمة غير أبيها ». قال : وكان منها شيء، فقالت عائشة: « يا رسول الله سلها، فإنها لا تكذب ». وفي الاستيعاب بسنده، قالت عائشة : « ما رأيت أحداً كان أصدق لهجة من فاطمة إلا أن يكون الذي ولدها ».

وكانت رضي الله عنها أمينة، حافظة للسر، لا ترضى لنفسها أن تذيع لأحد سراً، أو تفشي له أمراً، وقد سمعت من زوجها قوله : « طوبى لعبد نُومة، عرفه الله ولم يعرفه الناس، أولئك مصابيح الهدى وينابيع العلم، تنجلي

عنهم كل فتنة ظلماء، ليسوا بالمذاييع البذر، ولا الجفاة المرائين»[1].

وكانت في الذروة العالية من العفاف والتصاون، طاهرة الذيل، عفيفة المؤتزر، عفيفة الطرف، لا يميل بها هواها، بل إنها في حصانة وصيانة وطهر، فهي من آل بيت النبي ﷺ الذي قال الله تعالى في حقهم: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾.

عن أنس رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «ما خير للنساء؟».

فلم ندر ما نقول، فصار علي رضي الله عنه إلى فاطمة رضي الله عنها، فأخبرها بذلك فقالت: فهلا قلت له: «خير لهن ألا يرين الرجال ولا يرونهن»، فرجع، فأخبر النبي ﷺ بذلك، فقال له: من علمك هذا؟! قال: فاطمة، فقال ﷺ: «إنما فاطمة بضعة مني».

وكانت رمزاً يضرب في الحياء، فالحياء شعبة من شعب الإيمان، والحياء صفة الصالحين، وحلية الفتيات الصالحات.

والحياء لا يأتي إلا بخير، ولا يمنع من الحق، وطلب الحق.. ولا يشجع على باطل، الحياء خلاف الخجل.

وعند فاطمة نقف على حياء فريد، حياء لا مثيل له. كانت رضي الله عنها بجوار أسماء بنت عميس، وأخذت تبكي، وازدادت في البكاء وأسماء في دهشة من أمرها.

فقالت لها أسماء رضي الله عنها: ما يبكيك يا فاطمة؟!

والإجابة تدهش العقول.

---

(١) سنن الدارمي ١:٩٣. المقدمة باب ١٧.

إن فاطمة شغلها الحياء فجعلها تفكر فيما بعد الموت، تفكر في أمر قلَّ أن يفكر فيه إنسان.

إن الذي يبكي فاطمة أنها عندما يأتيها الموت، ويتم تغسيلها وتكفينها، وتحمل على تلك الآلة الخشبية، ويطرح عليها ثوب فيصفها، لقد استقبحت رضي الله عنها ما يصنع بالنساء عند حملهن لدفنهن، فيعرف الناس طولهن وعرضهن وسمنهن، تتذكر ذلك فاطمة فتبكي حياء، إنها الفطرة الطاهرة.

تتعجب أسماء بنت عميس رضي الله عنها، وتتذكر بسرعة ما رأته في بلاد الحبشة، تخبر فاطمة أنهم يحملون موتاهم على خشبة ذات جوانب، وتغطي بغطاء من قماش، وبهذا يستر الميت وهذا ما ترجوه فاطمة رضي الله عنها.

تسعد فاطمة رضي الله عنها بذلك، تستبشر خيراً وتوصي أن يصنع لها مثل هذا، وتدعو فاطمة لأسماء «سترك الله كما سترتني» هل يوجد مثل هذا الحياء في الحياة وفي الممات؟!

وقد أوصت رضي الله عنها بهذا النعش يصنع لها حتى لا يتبين أحد وصفها بعد وفاتها غفة وتصاونا[١].

كانت الزهراء رضي الله عنها قانعة بحالها، وكانت توقن أن الحرص يفرق القلب، ويشتت الأمر، وكانت تستمسك بما سمعته من أبيها ﷺ «طوبى لمن هُدي للإسلام وكان عيشه كفافاً أو قنع به»[٢]. وسمعته ﷺ وهو يخطب في الناس ويقول:

---

(١) راجع في ذلك التعليق على الحديث في كتاب «علموا أولادكم محبة آل البيت» للمؤلف ص ٩٧.

(٢) وفي صحيح مسلم: (قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه).

« أيها الناس أجملوا في الطلب، فإنه ليس للعبد إلا ما كتب له في الدنيا، ولن يذهب عبد من الدنيا حتى يأتيه ما كتب له فيها وهي راغمة»[١]. وقد قال لها أبوها ﷺ: «يا فاطمة، اصبري على مرارة الدنيا لتفوزي بنعيم الأبد»[٢].

وعن أسماء بنت عميس رضي الله عنها عن فاطمة بنت رسول الله ﷺ قالت: « إن رسول الله ﷺ أتاها يوماً فقال: « أين ابناي » ؟ يعني حسناً وحسيناً. قالت: رضي الله عنها، قلت: أصبحنا وليس في بيتنا شيء يذوقه ذائق، وإنا لنحمد الله تعالى، فقال علي رضي الله عنه: أذهب بهما فإني أتخوف أن يبكيا عليك وليس عندك شيء».

هكذا كان حالها وهي صابرة على تلك المعيشة الشديدة، تستقبلها بقناعتها، وتكثر من حمد الله تعالى عليها، فهي قانعة بحالها راضية بعيشها، وهي التي أراها أبوها ﷺ ما خاطبه به ربه سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ فكانت رضي الله عنها لقاء هذا راضية باليسير من العيش، صابرة على شظف الحياة قانعة باليسير من الحلال، فكانت نفسها راضية مرضية.

فكانت لا تطمع إلى ما لغيرها ولا تستشرف ببصرها إلى ما ليس من حقها، فما كانت تطمع في حق أحد، فهي غنيه بنفسها، قريرة بحالها، وقد قال أبوها ﷺ: « ليس الغنى عن كثرة العرض، إنما الغنى غنى النفس » (متفق عليه).

وقد قال ﷺ لأعرابي وهو يعظه: « إذا صليت فصل صلاة مودع، ولا تحدثن بحديث تعتذر منه غداً، وأجمع اليأس عما في أيدي الناس، فإن

---

(١) انظر فيض القدير ٣: ١٦٠(٣٠١٢).

(٢) كنز العمال ٣٥٤٧٥

اليأس عما في أيدي الناس هو الغنى الحاضر ».

وقد سمعت علياً رضي الله عنه يقول : ليجتمع في قلبك الافتقار إلى الناس والاستغناء عنهم، فيكون افتقارك إليهم في لين كلامك، وحسن بشرك، ويكون استغناؤك عنهم في نزاهة عرضك، وبقاء عزك ». ولهذا كانت رضي الله عنها منقطعة عن دنياها، عازفة عن زخارفها ومشتهاها، وما عُرِفَ عنها في حياتها أنها استشرفت لشيء منها طيب نفس وعزة وقناعة، تتسربل الصبر الجميل لأدواء الحياة، وتعاني شظف العيش في دنياها، ولسانها رطب بذكر مولاها.

لقد كان هم الزهراء الآخرة، فلم تحفل بزخارف الدنيا، ولقد قال أبوها ﷺ: «من أصبح وهمه الدنيا، شتت الله عليه أمره، وفرق عليه جمعه، وجعل فقره بين عينيه، ولم يؤته من الدنيا إلا ما كتب له، ومن أصبح وهمه الآخرة، جمع الله له همه، وحفظ عليه ضيعته، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة ».

وقد تأدبت رضي الله عنها بآداب أبيها المصطفى ﷺ وقد سمعته يقول : « إن ربي عز وجل عرض علي أن يجعل لي بطحاء مكة ذهباً، فقلت : لا يارب، ولكن أجوع يوماً، وأشبع يوماً، فأما اليوم الذي أجوع فيه، فأتضرع إليك وأدعوك، وأما اليوم الذي أشبع فيه فأحمدك وأثنى عليك »[1].

فنشأت رضوان الله عليها قاليةً للدنيا، عائفةً لمتعها، منصرفة عن زينتها، وشهواتها.

---

(١) مسند الإمام أحمد ٥ : ٢٥٤ ، والترمذي ٤ : ٤٩٧(٢٣٤٧).

فقه السيدة فاطمة رضي الله عنها

لا شك أن هذه السيدة العظيمة، سيدة نساء العالمين، هي سيدة فقيهة فاضلة، لها باع طويل لا ينكر في نقل الدين والدعوة والتفقيه بالقرآن والسنة. وإن كانت السيدة فاطمة ـ رضي الله عنها ـ قد شغلت بالمواقف العظيمة التي وقفتها، والبلايا العظيمة التي تصدت لها، وهي تقف إلى جوار المصطفى ﷺ في كل المحن التي مرت به، إلاّ إنها تولت قضية التربية في الدرجة الأولى، وكان لها دور كبير في رعاية والدها عليه أفضل الصلاة والسلام، وخاصة بعد وفاة أمها رضي الله عنها.

ولهذا فعندما نتحدث عن فقهها كنصوص، نجد أن هناك مواقف محدودة تعرضت فيها لبعض القضايا الفقهية، إلا أنها رضي الله عنها كانت تنظر بنور الله عز وجل الذي نور قلبها وأكرمها وجعلها من سيدات نساء العالمين.

ولقد شغلت الزهراء البتول بتلك الواجبات العظيمة من أول عمرها كما ذكرنا. ولعل الموقف العظيم الذي وقفته، كما يروي البخاري عن عبد الله بن مسعود، أن النبي ﷺ كان يصلي عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس، إذ قال بعضهم لبعض: أيكم يجيء بسلا جزور بني فلان، فيضعه على ظهر محمد إذا سجد، فانبعث أشقى القوم (وهو عقبة بن أبي معيط)، فجاء به، فنظر حتى إذا سجد النبي ﷺ وضعه على ظهره، وأنا أنظر لا أغنى شيئاً لو كانت لي منعة قال: فجعلوا يضحكون، ويحيل بعضهم على بعض (أي يتمايل بعضهم على بعض مرحاً وبطراً) ورسول الله ﷺ ساجد لا يرفع رأسه، حتى جاءت فاطمة فطرحته عن ظهره» (الحديث).

إلى جانب واجبها نحو زوجها وبنيها وبيتها، فقد أثرت الرحى في يديها الكريمة والجرة في كتفها. قال علي رضي الله عنه: لقد تزوجت فاطمة وما لي ولها فراش غير جلد كبش ننام عليه بالليل ونعلف عليه الناضح بالنهار. وما لي ولها خادم غيرها، ولما زوجها رسول الله ﷺ بي بعث معها بخميلة ووسادة أدم حشوها ليف ورحائين وسقاء وجرتين، فجرت بالحى حتى أثرت في يدها، واستقت بالقربة بنحرها، وقَمّت البيت حتى اغبرت ثيابها، وأوقدت تحت القدر حتى دنست ثيابها[1].

وجاءت تشكو لأبيها ذلك، كما هو معلوم، فلم تجد إلا السيدة عائشة الصديقة بنت الصديق رضي الله عنها، حيث استقبلتها أحسن استقبال، وسمعت مقالتها، وحملتها لرسول الله ﷺ (الحديث).

وكذلك في غزوة أحد لما استقر ﷺ في مكانه من الشعب، خرج علي بن أبي طالب حتى ملأ درقته ماء من المهراس (قيل هو صخرة منقورة تسع كثيراً وقيل اسم ماء بأحد)، فجاء به إلى رسول الله ﷺ ليشرب منه، فوجد له ريحاً، فعافه فلم يشرب منه، وغسل عن وجهه الدم، وصب على رأسه وهو يقول: اشتد غضب الله على من دمى وجه نبيه[2].

وقال سهل: والله إني لأعرف من كان يغسل جرح رسول الله ﷺ ومن كان يسكب الماء»[3].

وهناك بعض الأمثلة التي تدل على نظراتها العميقة منها:

---

(١) رواه أحمد، ج١،ص١٠٦.

(٢) ابن هشام ٢: ٨٥.

(٣) روي: كانت فاطمة ابنته تغسله، وعلي بن أبي طالب يسكب الماء بالمجن، فلما رأت فاطمة أن الماء لايزيد الدم إلاّ كثرة أخذت قطعة من حصير فأحرقتها فألصقتها فاستمسك الدم (صحيح البخاري ج ٢، ص ٥٨٤).

١ - قال لها رسول الله ﷺ : ما خير للمرأة؟ فقالت : أن لاترى الرجال ولا يرونها. فضمها إلى صدره وقال : «بعضهم من بعض»، فسر رسول الله ﷺ من تعبيرها ذلك التعبير الذي يدل على فقه ووعي واضح، عبر عنه الرسول ﷺ بأحاديثه الشريفة : « ما تركت بعدي فتنة هي أضر على الرجال من النساء» (متفق عليه).

٢ - يروي مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : « اجتمع نساء النبي ﷺ فلم يغادر منهن امرأة، فجاءت فاطمة رضي الله عنها تمشي كأن مشيتها مشية رسول الله ﷺ فقال : مرحباً بابنتي، فأجلسها عن يمينه أو شماله، ثم أسر لها حديثاً فبكت فاطمة، ثم إنه سارها فضحكت أيضاً، فقلت لها ما يبكيك؟ فقالت : ما كنت لأفشي سر رسول الله ﷺ، فقلت : ما رأيت كاليوم فرحاً أقرب من حزن. فقلت لها حين بكت : أخصك رسول الله ﷺ بحديثه دوننا ثم تبكين؟! وسألتها عما قال، فقالت : ما كنت لأفشي سر رسول الله ﷺ. حتى إذا قبض سألتها فقالت : إنه كان حدثني أن جبريل عليه السلام كان يعارضه القرآن كل عام مرة، وأنه عارضه به في هذا العام مرتين، ولا أراني إلا قد حضر أجلي، وأنك أول أهلي لحوقاً بي، ونعم السلف أنا لك، فبكيت لذلك، ثم إنه سارني فقال : ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين، أو سيدة نساء هذه الأمة، فضحكت لذلك ».

ودقة فهمها وقوة حبها لوالدها رسول الله ﷺ جعلتها حساسة جداً، وحسها المرهف تأثر تأثراً بالغاً في الحديث الأول، وكان منها البكاء على فراقها رسول الله ﷺ والرسول ﷺ يرى منها ذلك فيبشرها بأسلوب جميل : « ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين؟! »، وتفقه من النبي ﷺ كلامه ومقصده، فتضحك.

وفي رواية مسلم عن السيدة عائشة رضي الله عنها : « حدث أن رسول الله

ﷺ دعا ابنته فسارها فبكت، ثم سارها فضحكت فقالت عائشة: فقلت لفاطمة: ما هذا الذي سارك رسول الله ﷺ فبكيت، ثم سارك فضحكت؟، فقالت: سارني فأخبرني بموته فبكيت، ثم سارني فأخبرني أني أول من يتبعه من أهل بيته فضحكت». ا. هـ.

٣ - ومن الحكايات اللطيفة التي تدل على فقهها أن السيدة عائشة افتخرت أمامها بأن النبي ﷺ لم يتزوج بكراً غيرها، فكلمت رسول الله ﷺ فقال لها ﷺ: «إن عادت فقولي: إن أمي تزوجت رسول الله ﷺ بكراً».

٤ - ونقل ابن حزم أن ابن عمر رضي الله عنهما وفاطمة بنت رسول الله ﷺ وسائر الصحابة حبسوا جملة صدقاتهم بالمدينة وقال: هذا أشهر من الشمس، لا يجهلها أحد.

وذكر ابن حزم السيدة فاطمة من بين النساء دليل على منزلتها الفقهية. ولو تتبعنا ذلك في كتب الحديث لوجدنا جملة من الأمور للسيدة فاطمة رضي الله عنها في الفقه، كما يقول المحققون، لكتبنا جزءاً.

ويذكر أنها حرصت كل الحرص أن لا يظهر حجم جسمها على النعش عند حملها للدفن، وفهمها الدقيق لهذا وإعلانها جعل الكثير من فقهاء المسلمين يذكرون ندب ذلك، وقد ذكر علماء الشافعية والحنابلة بأنه يسن ستر قبر المرأة عند إنزالها به ولحدها أيضاً.

وأخيراً، إن السيدة فاطمة كانت فقيهة النفس، دقيقة الفهم للإسلام وأحكامه، ولعل المتتبع لكتب السنة المطهرة يعثر على الكثير من الفهم الدقيق للسيدة فاطمة الزهراء البتول رضي الله عنها.

وقد ذكر السيد محمد المنتصر الكتاني في فقه السيدة فاطمة قضايا محدودة، تعد على الأصابع، وكذلك كل الذين تعرضوا لفقه السيدة

فاطمة، ولكن إذا تعمقنا في جوهر السيدة فاطمة، والأدوار العظيمة التي قامت بها، والتصرفات التي تصرفتها، نجدها أنها كانت تتصرف على الفقه من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وتحرص على أن تكون جميع أعمالها وأفعالها تبعاً لسنة المصطفى ﷺ والهدي الذي جاء به عليه أفضل الصلاة والسلام.

ومن هنا فإننا عندما نكتب عن فقهها، إنما نكتب عن إنسانة متفقهة في الدين، ولكنها بدلاً من أن تجلس للفتوى كانت حياتها كلها تعبيراً عن فقه النبوة الذي تلقته عن المصطفى ﷺ، فجاءت نموذجاً للمرأة المسلمة الصالحة الكاملة التي أخذت من ذلك الينبوع العظيم، ومن أخلاق أبيها وأخلاق أمها، ونشأت وترعرعت في مدرسة النبوة، وقامت بتلك المهام الأساسية الكبرى التي تحدثنا عن بعضها. وكيف لنا أن نلم بكل تلك المواقف في كتيب كهذا نتعرض فيه للومضات من سيرة هذه السيدة الفاضلة ونحرص أن نبسط بعض جوانب حياتها لناشئة هذه الأمة، حتى يعلموا قدر السيدة فاطمة الزهراء البتول أم أبيها رضي الله عنها. !

*****

وصية الزهراء رضي الله عنها

أوصت الزهراء رضي الله عنها علي بن أبي طالب بثلاث وصايا في حديث دار بينهما قبل وفاتها.

قالت الزهراء: يا ابن عم، إنه قد نعيت إليّ نفسي، وإنني لاأرى حالي إلا أنني لاحقة بأبي ساعة بعد ساعة، وأنا أوصيك بأشياء في قلبي.

فقال رضي الله عنه: أوصيني بما أحببت يا بنت رسول الله ﷺ، فجلس عند رأسها وأخرج من كان في البيت.

فقالت رضي الله عنها: يا ابن العم، ما عهدتني كاذبة ولا خائفة، ولا خالفتك منذ عاشرتني.

فقال رضي الله عنه: معاذ الله! أنت أعلم بالله تعالى، وأبر وأتقى وأكرم وأشد خوفاً من الله تعالى، وقد عز عليّ مفارقتك وفقدك إلا أنه أمر لابد منه، والله لقد جددت عليّ مصيبة رسول الله ﷺ، وجل فقدك، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ثم بكيا، وأخذ عليّ رأسها بين يديه وقال: أوصيني بما شئت.

وقد أوصت الزهراء رضي الله عنها علياً كرم الله وجهه بثلاث:

أولاً: أن يتزوج بأمامة بنت العاص بن الربيع، وبنت أختها زينب رضي الله عنها[١].

وفي اختيار الزهراء رضي الله عنها لأمامة رضي الله عنها لتكون زوجة لعلي

---

(١) أسد الغابة ٧: ٢٢.

كرم الله وجهه قالت : أنها تكون لولدي مثلي في حنوتي ورؤومتي .

وفي رواية : إنها بنت أختي وتحنو على ولدي .

وأمامة هي التي روى أن النبي ﷺ كان يحملها في الصلاة .

فقد ثبت في الصحيحين ذكرها من حديث أبي قتادة أن النبي ﷺ كان يحمل أمامة بنت زينب على عاتقه ، فإذا سجد وضعها ووإذا قام حملها .

ثانياً : أن يتخذ لها نعشاً وصفته له ، وكانت التي أشارت عليها بهذا النعش أسماء بنت عميس رضي الله عنها ، ووصفه أن يُأتى بسرير ثم بجرائد تشد على قوائمه ، ثم يغطى بثوب .

ثالثاً : أن تدفن ليلاً بالبقيع .

وقد نفذ علي كرم الله وجهه وصيتها ، فحملها في نعش كما وصفته له ، ودفنت بالبقيع ليلاً ، وعمّي على موضع قبرها بقبور أخرى تجاورها .

وتزوج علي كرم الله وجهه بأمامة بنت أبي العاص ولم ينجب منها[١] .

*****

(١) المرجع السابق.

مرض الزهراء ووفاتها رضي الله عنها

لم يطل مرض الزهراء رضي الله عنها الذي توفيت فيه، ولم يطل مقامها في الدنيا كثيراً بعد وفاة المصطفى ﷺ، وقد اختلفت المرويات في تحديد تاريخ وفاتها، فقيل في الثالث من جمادى الآخرة سنة إحدى عشرة من الهجرة، وقيل توفيت لعشر بقين من جمادي الآخرة، وقيل ليلة الأحد لثلاث عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر، وعن ابن عباس في الحادي والعشرين من رجب. أما الأرجح الذي قاله المدائني والواقدي وابن عبد البر في الاستيعاب أنها توفيت ليلة الثلاثاء يوم الاثنين من شهر رمضان سنة إحدى عشرة من الهجرة.

وتوفيت وهي بنت تسع وعشرين سنة. وقيل كانت قبل وفاتها فرحة مسرورة لعلمها باللحاق بأبيها الذي بشرها أن تكون أول أهل بيته لحوقاً به.

وسرى الخبر في مدينة رسول الله ﷺ، واجتمع الناس مقبلين إلى علي كرم الله وجهه وهو جالس، والحسن والحسين رضي الله عنهما بين يديه يبكيان، فبكى لبكائهما، والناس جالسون يسترجعون وينتظرون أن تخرج الجنازة فيصلوا عليها، فخرج أبو ذر الغفاري، وقال: انصرفوا، فإن ابنة رسول الله ﷺ قد أخر إخراجها هذه العشية، فقام الناس وانصرفوا.

وكانت وصيتها رضي الله عنها أن تدفن ليلاً بالبقيع كما ذكرنا. وحملت الزهراء رضي الله عنها إلى مثواها الأخير، في نعش صنعته لها أسماء بنت عميس رضي الله عنها، وهي أول من حملت في نعش، وأول من لحقت بالنبي ﷺ من أهله.

حملت فاطمة الزهراء بين دموع العيون، وأحزان القلوب، وصلى عليها علي كرم الله وجهه، ونزل في قبرها، ثم وقف على حافة القبر يؤبنها بكلمات تنم عن قلب مفعم بالأحزان على فراقها.

فضم ثرى طيبة جثمان الطاهرة فاطمة الزهراء رضي الله عنها، كما ضم جثمان أبيها المصطفى ﷺ وأخواتها الثلاث : زينب ورقية وأم كلثوم رضي الله عنهن.

وعاد علي كرم الله وجهه، محزون القلب، دامع العين، بعد وداع الحبيبة الراحلة، رجع إلى البيت فاستوحش فيه، ثم أحس أن الدنيا على زوال، وقد أثرت فيه وفاة المصطفى ﷺ ثم وفاة الزهراء رضي الله عنها فأنشد قائلاً :

أرى علل الدنيا عليّ كثيـــرة ... وصاحبها حتى الممات عليل

لكل اجتماع من خليلين فرقة ... وكـل الـذي دون الفراق قليل

وإن افتقادي فاطماً بعد أحمد ... دلـــيل على ألا يدوم خليل

*****



صورة رقم (١٨) قبور آل البيت في البقيع ويظهر قبر السيدة فاطمة ضمن الإشارة اليمنى

السلالة الطاهرة

شاءت عناية الله تعالى وإرادته أن تكون السيدة الزهراء هي الوعاء الطاهر الذي يحمل السلالة الطاهرة، والمنبت الطيب لدوحة الشرف من آل البيت العطرة.

والذرية الطاهرة من فاطمة الزهراء رضي الله عنها هي ذرية رسول الله ﷺ، وأصدق شاهد على ذلك قوله ﷺ: « فاطمة بضعة مني »[1]. وكذلك ما نجده في سيرة النبي ﷺ نفسه، فقد كان يبذل لأولاد الزهراء رضي الله عنها، وللحسن والحسين رضي الله عنهما على الخصوص، ما يقصر عنه ما يبذله أي أب تجاه أولاده.

وقد رزقت الزهراء رضي الله عنها بنصيب صالح من البنين والبنات، واستمر نسل المصطفى ﷺ منها، فقد انقرض نسله ﷺ إلا من فاطمة، لأن أمامة بنت أبي العاص رضي الله عنها وبنت زينب بنت المصطفى ﷺ تزوجت بعلي كرم الله وجهه ثم بعده بالمغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، قيل إنها لم تنجب لا لعلي ولا للمغيرة، وليس لزينب بنت رسول الله ﷺ ولا لرقية ولا لأم كلثوم - رضي الله عنهن - عقب، إنما العقب كان لفاطمة فحسب[2].

والمعروف أن الزهراء رضي الله عنها رزقت بالحسن والحسين وزينب وأم كلثوم رضي الله عنهم جميعاً.

---

(١) رواه البخاري في مناقب فاطمة ٢ : ٣٠٨.

(٢) أسد الغابة ٧ : ٢٣.

وقد أعقب أولادها وظهر من سلالتهم الطيبة سكينة بنت الحسين رضي الله عنها، وعلي بن الحسين « زين العابدين » رضي الله عنه والحسن بن الحسن، وفاطمة بنت الحسين، ونفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي وهي المعروفة بالسيدة نفيسة رضي الله عنهم جميعاً. وقد تزوجت السيدة زينب من عبد الله بن جعفر بن أبي طالب الطيار رضي الله عنه، وأنجبت له أربعة بنين: علياً ومحمداً وعوناً والعباس، كما ولدت له بنتين.

وتزوجت أم كلثوم رضي الله عنها من عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأنجبت له زيداً.

وكلهم كانوا مصابيح مضيئة، وزهوراً يانعة في الروضة العطرة للسلالة الطاهرة.

*****

خصائص السيدة الجليلة فاطمة الزهراء

رضي الله عنها

لقد اختص الله عز وجل هذه السيدة الكريمة الطاهرة بخصائص تسمو بها على نساء العالمين، وتزهو بها حياة المسلمين، إنها المثل الأسمى في الدنيا للمرأة المسلمة، والإبنة البارة، والزوجة الكريمة، والأم المربية، والمتبتلة الزاهدة، والمهاجرة المجاهدة، والصابرة العابدة، وهي في الآخرة صاحبة الذكر الطيب، والاسم الوحيد الذي تسمع الخلائق من سيد الخلق وهو يتشفع الشفاعة العظمى، ويناشد ربه الرأفة والرحمة، وهي سيدة نساء العالمين، وفيما يلي عرض موجز لأهم خصائصها الكريمة.

١ - إنها ابنة سيد الأولين والآخرين، ورسول رب العالمين وخاتم النبيين، والرحمة المهداة للعالمين.

إنها ابنة صاحب المقام المحمود والحوض المورود والشفاعة الكبرى.

وأي شرف يداني هذا الشرف، وأي نسب يقارب هذا النسب . . وهل في آباء العالمين مثل هذا الأب، وهل في أبناء آدم مثل هذه البنوة، وإنها وأخواتها الطاهرات صاحبات هذا الشرف الوحيد الفريد، اللواتي يحق لهن أن يقلن مفاخرات : « أين في الناس أب مثل أبينا ».

٢ - إنه سماها فاطمة تفاؤلاً بها، وإنها ستتزوج وتنجب وترضع وتفطم أولادها الكرام، وإن نسله الكريم سيمتد من خلالها دون سائر بناته.

وقد صح هذا التفاؤل، فإنها الوحيدة من أولاده التي عاش أولادها من

بعدها فتزوجوا وأنجبوا، أما أمامة بنت زينب ـ رضي الله عنها ـ فإنها تزوجت بعلي رضي الله عنه بعد وفاة خالتها فاطمة بوصية من خالتها، ثم تزوجت بعده بالمغيرة بن نوفل، وقد رزقت منه بولد، ولكن عقبها قد انقرض، فانقرض عقب زينب رضي الله عنها.

أما فاطمة ـ رضي الله عنها ـ فإنها ولدت الحسن والحسين ومُحَسّناً وزينب وأم كلثوم رضي الله عنهم، وقد امتد نسلها من بعدها بطريق السبطين الكريمين الحسن والحسين رضي الله عنهما.

٣ - إنها أفضل نساء هذه الأمة جميعاً، فقد روى الحاكم والطبراني عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه بإسناد صحيح أن النبي ﷺ قال: « فاطمة سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم »، وفي رواية صحيحة: « إلا ما كان من مريم بنت عمران ».

وقال ابن حجر الهيتمي رحمه الله: ولوضوح ما قاله السبكي تبعه عليه المحققون، وممن تبعه عليه أبو الفضل ابن حجر فقال: هي مقدمة على غيرها من نساء عصرها ومن بعدهن مطلقاً. ومما يؤكد ذلك ما رواه ابن عبد البر عن ابن عباس مرفوعاً: سيدة نساء العالمين مريم ثم فاطمة ثم خديجة ثم آسية.

قال القرطبي: هذا الحديث حسن يرفع الإشكال من أصوله وذهب الحافظ ابن حجر أنها أفضل من بقية أخواتها لأن منها ذرية المصطفى ﷺ دون غيرها من بناته، فإنهن متن في حياته، فكن في صحيفته، ومات في حياتها فكان في صحيفتها، ويدل على ذلك ما رواه الإمام ابن جرير الطبري عن فاطمة بنت الحسين بن علي عن جدتها فاطمة ـ رضي الله عنها ـ قالت: دخل رسول الله ﷺ يوماً وأنا عند عائشة فناجاني فضحكت، فسألتني عائشة عن ذلك فقلت: لا أخبرك بسره. فلما توفي سألتني فذكرت الحديث في

معارضة جبريل له بالقرآن مرتين، وأنه قال : أحسب أني ميت في عامي هذا، وأنه لم ترزأ امرأة من نساء العالمين مثلها، فلا تكوني دون امرأة منهن صبراً، فبكيت. فقال : أنت سيدة نساء أهل الجنة، فضحكت.

إنها بضعة من رسول الله ﷺ، فقد روى البخاري في مناقب السيدة فاطمة - رضي الله عنها - أن النبي ﷺ قال : « فاطمة بضعة مني - أي جزء مني - فمن أغضبها فقد أغضبني ».

وعن عبد الله بن الزبير قال : قال ﷺ : « إنما فاطمة بضعة مني، يؤذيني ما آذاها ويغضبني ما يغضبها »[1].

قال السهيلي رحمه الله : « إن من سبها فقد كفر، ويشهد له أن أبا لبابة حين ربط نفسه وحلف أن لا يحله إلا رسول الله ﷺ، وجاءت فاطمة لتحله فأبى من أجل قسمه، فقال رسول الله ﷺ : « إنما فاطمة بضعة مني ».

وقال بعضهم : إن كل من وقع منهم في حق فاطمة شيء فتأذت به فالنبي ﷺ يتأذى به، ولا شيء أعظم من إدخال الأذى عليها من قبل ولدها.

٥ - إنه يحرم إيذاؤها بالتزوج عليها وإيذاؤها بالضرة، فقد ثبت أنه ﷺ قد اعترض على خطبة علي لابنة أبي جهل، وأنه قال : « إن فاطمة بضعة مني، وأنا أتخوف أن تفتن في دينها، وإني لست أحرم حلالاً ولا أحل حراماً، ولكن والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله عند رجل واحد أبداً»[2].

وإن هذا التحريم خصوصية لها لأن الجمع بينها وبين الضرة يؤذيها، وإن ما يؤذيها يؤذي رسول الله ﷺ، وذلك محرم في كتاب الله عز وجل بقوله تعالى : ﴿ إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم

---

(١) رواه الإمام أحمد والترمذي والحاكم والطبراني بأسانيد صحيحة.
(٢) رواه الشيخان وأحمد وأبو داود وابن ماجه.

عذاباً مهيناً ﴾ . وقد نهى عن ذلك لكمال شفقته على علي وفاطمة رضي الله عنهما، فإن فاطمة قد رزئت بأخواتها جميعاً بعد أن رزئت بأمها. فلا تجد من يواسيها في ضرتها، وفي ذلك ما فيه من إيذائها، فكيف إذا كانت ضرتها « جويرية بنت أبي جهل » عدو الله ورسوله، وهي بنت رسول الله ﷺ، وهي أفضل نساء العالمين بعد مريم بنت عمران، وكيف باجتماعها عند بطل الإسلام العظيم الذي تربى في بيت أبيها ﷺ وأكرمه الله بالإصهار إليه، وفوزه بأحب بناته إليه.

وقد بين ﷺ أنه لم يمنع هذا الزواج تحريماً لما أحل الله في تعدد الزوجات، ولكن المنع جاء في تحريم إيذائه ﷺ، وإن فاطمة بضعة منه يؤذيها ما يؤذيه، ولاشك أن إيذاءها بالضرة فيه انتقاص لها وهي - من أكمل النساء - وإثارة لغيرة الأنثى من الضرة، وإنها على علو قدرها وشرف انتسابها فإنها تتأذى من الضرة شأنها في ذلك شأن كل أنثى، وإن ذلك الشعور وما ينجم عنه من كره ووجد على أطراف هذا الزواج مما ينبغي أن تبرأ منه فاطمة لما فيه من فتنة في دينها وهي تحب كما يحب أبوها ﷺ أن تخرج من الدنيا وليس في قلبها على أحد من المسلمين شيء، ولو كانت بنت عدو الله ورسوله فإنها أسلمت وصار لها حقوق المسلم كاملة، فكيف إذا كان من ذلك شيء على زوجها وهو ابن عم أبيها رسول الله ﷺ، وقد تربى في بيته، وكان من أوائل المؤمنين، ومن العشرة المبشرين بالجنة، رضي الله عنه وأعلى مقامه.

٦ - ومن خصائصها رضي الله عنها أنها تكنى بأم أبيها، لأنها قامت برعاية أبيها وخدمته بعد وفاة أمها خديجة، وكان ﷺ يحبها حباً جماً، يكثر من زيارتها، ويجلس عندها ويلاعب أولادها، وكان إذا أراد غزواً، لا يخرج من المدينة حتى يكون آخر عهده رؤيتها، فإذا عاد من سفره بدأ بالمسجد

فصلى ركعتين، ثم يذهب إلى بيت فاطمة يزورها ويؤنسها ثم يخرج من عندها إلى بيوت أزواجه.

٧ - ومن خصائصها أنها كانت أحب أولاده وأحظاهن عنده وأكثرهن شبهاً به، فقد روى الترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما رأيت أحداً أشبه سمتاً ولا هدياً برسول الله ﷺ من فاطمة في قيامها وقعودها، وكانت إذا دخلت عليه قام إليها فقبلها وأجلسها في مجلسه».

٨ - ومن خصائصها رضي الله عنها تسميتها بالزهراء، لما زانها الله تعالى به من جمال وجلال وإشراق وجه وشبه برسول الله ﷺ الذي كان من أجمل الناس وجهاً وكان أبيض مستنيراً، وأنه كان أزهر اللون، أبيض مشرباً بالحمرة، وقد مر حديث عائشة رضي الله عنها أنها ما رأت أحداً أشبه سمتاً ولا هدياً برسول الله ﷺ من فاطمة.

٩ - إنها تذكر يوم القيامة في الشفاعة العظمى عندما يقول النبي ﷺ في الموقف العظيم وهو يسأل الله تعالى: «أمتي.. أمتي..، لا أسألك نفسي، لا أسألك فاطمة ابنتي».

وقد ذكرها في حديث شفاعة أسامة بن زيد في المرأة المخزومية التي سرقت فقال: «لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها». وذكره لها في هذا الموقف الرهيب المهيب دليل على عظيم رحمته بأمته، وشفقته عليها، وعلى شدة الأخطار في ذلك اليوم الذي يفر المرء فيه من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه، والذي يبلغ فيه الأمر أن أولي العزم من الرسل يعتذرون إلى الخلائق عن عدم الشفاعة ويخشون على أنفسهم قائلين: «نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري».

وأما ذكره لها في قضية المرأة التي سرقت، فلبيان مدى حرصه على حقوق الله، وإقامة حدوده، وأنه لا تأخذه في ذلك عاطفة حب ولا قرابة، حتى إلى

أحب الناس إليه وأقربهن إليه، لتكتمل به الأسوة في عدل القضاة والحكام، وليس في ذلك انتقاص لقدر فاطمة رضي الله عنها ولا يفهم منه احتمال وقوعها في حد من حدود الله، فإنها كاملة مكملة في بعدها عن المعاصي والذنوب، وفي استقامتها وورعها وزهدها وتقواها.

كما اختصت بالنداء من بين أخواتها في قوله ﷺ: «يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئاً»؛ للترهيب من يوم القيامة، وعدم الاتكال على الأنساب، والدلالة على شدة شفقته عليها، وكمال تربيته لها، ليكون ذلك مثالاً للأمة كافة، ومثلاً أعلى لكمال خلق النبي ﷺ وكمال عدله في قضائه.

١٠ - ومن خصائصها - رضي الله عنها - زهدها في الدنيا وزينتها وصبرها على لأوائها. فقد كان جهازها الذي زفت فيه في غاية التواضع، كما كانت حياتها مع زوجها في غاية التقشف لقلة ذات يده وشدة فقره، وكانت راضية بذلك صابرة عليه، تطحن بيديها الكريمتين حتى تعيا من التعب، وحين طلبت من أبيها ﷺ أن يعطيها امرأة من السبي تعينها أبى أن يلبي طلبها، وآثر لها الصبر وأوصاها وزوجها أن يسبحا ويحمدا ويكبرا قبل النوم ثلاثاً وثلاثين، ولم يرض رسول الله ﷺ أن يراها تلبس الحلي وأمرها ببيعها والتصدق بثمنها وما ذلك إلا لأنها بضعة منه وأنه يريدها مثلاً أعلى في الزهد والصبر والتقشف كما كان هو ﷺ، لتتبوأ بجدارة منزلة سيدة نساء العالمين يوم القيامة.

١١ - ومن خصائصها رضي الله عنها أنها آخر من توفي من أولاده ﷺ، وأنها أول أهل بيته لحوقاً به، فإنها لم تعش بعده إلا بضعة أشهر، وكان عمرها ثمانية وعشرين عاماً، وذلك دليل على حقارة الحياة الدنيا، وإن ما عند الله تعالى خير وأبقى للمؤمن والمؤمنة، وإن الله عز وجل قد أراد لهذه

وهذه صفة عظيمة وإن شاركتها بها آلاف النساء المؤمنات، فقد أثنى الله عز وجل بها على مريم، وأنها صدقت بكلمات الله وكتبه وكانت من القانتين، فاستحقت بذلك الجنة، وهي بشارة لكل مؤمنة تحفظ فرجها خشية من الله أن تكون من أهل الجنة.

١٢ - ومن خصائصها رضي الله عنها أنها آخر من توفي من أولاده ﷺ، وأنها أول أهل بيته لحوقاً به، فإنها لم تعش بعده إلا بضعة أشهر، وكان عمرها ثمانية وعشرين عاماً، وذلك دليل على حقارة الحياة الدنيا، وإن ما عند الله تعالى خير وأبقى للمؤمن والمؤمنة، وإن الله عز وجل قد أراد لهذه البضعة الكريمة أن تلحق بأصلها الكريم، وتلتقي به في الرفيق الأعلى وهو ابن ثلاث وستين.

*****

خاتمة

ومن المسلم به أنَّ الانتساب إلى الأئمة المهتدين من ذوي الفضل والدين من أفضل ما يرتجى ويتقرب به إلى رب العالمين، فكيف بالانتساب إلى سيد البشر مولانا وقرة أعيننا ﷺ.

وقد اختص هذا النسب الشريف بابنته فاطمة الزهراء، خيرة النساء وسيدتهن، وابنة خير الآباء وخير الأمهات، وأم أولاد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الحسن والحسين، الذين ما زالت ذكراهم وذكرى ذريتهم الطاهرة المباركة عبقة لدى عموم المسلمين في جميع أقطارهم، إلاَّ من أصيب في قلبه. وحسبهم شرفاً ما رواه الطبراني وأبو يعلي من قوله ﷺ: «كل بني آدم ينتمون إلى عصبة إلاَّ ولد فاطمة أنا وليهم وأنا عصبتهم»[1].

فنسأل الله لهم التوفيق إلى سلوك ما يليق بشرف انتسابهم، لتكون خشيتهم في التقوى موفورة، وحرمة رسول الله ﷺ فيهم محفوظة، والميل إليهم أدنى، والقلوب لهم أصفى: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾.

وقد عميت أبصار وبصائر نواصب شذّاد، يبذرون بذور الشك عما في هذه الأمجاد من كنوز الهداية والعلم والحكمة، فترسم خطاها وتواصل المسيرة على طريقها.

وهذه القبسات من سيرتها رضي الله عنها هو خير ما يقدمه الأستاذ

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير ٣: ٤٤(٢٦٣١) بإسناد ضعيف، ورواه الخطيب في تاريخ بغداد ١١: ٢٨٥من نفس طريق الطبراني.

لتلاميذه، والآباء لأبنائهم وبناتهم، ليستمتعوا بقراءته، وتتشرب نفوسهم بالمبادى السليمة والأسس الخلقية القويمة، فنذكر قصصهم متجنبين المبالغات التي لا يقبلها العقل أو الدين، متوخين في ذلك الحرص على التوجيهات السامية التي تهدف إليها هذه القصص، وما أكثر الذين لا يعرفون من التاريخ إلا النزر اليسير. فمن حق البيت المسلم أن نضع بين يديه الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة، ليسير على الدرب، ويسلك طريق السلامة والنجاة.

وقد جمعت في هذه الرسالة غرراً من سيرة سيدة النساء وذريتها، بما تقر به العيون، على أمل أن يكون ذلك نبراساً يضيء قلوب ناشئتنا ويمحو منها تشكيك المتشككين في عظمة هذا البيت.

وكل حياة سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء دروس وعبر وعظات، ففي صباها ناصرت الدعوة ودافعت عن أبيها وذلك درس للأولاد، وفي تزويجها وجهازها وصبرها على لأواء العيش حل كثير من المشكلات، وفي فضائلها وخصائصها ومزاياها إصلاح وعلاج وقدوة لكثير من الأخلاقيات وفي اهتمام المصطفى بها وتنويهه بذكرها وتهذيبه لها درس للفتيات المسلمات، وفي عفتها وطهارتها وحِدّة ذكائها وقوة فهمها مرآة لكل فتاة.

وحسبها أنه ومضة من نور عين المصطفى ﷺ، تربت في مدرسة النبوة، وفطرت على الذروة العليا من الخلق الكريم. وحسبها ما لقبها به ﷺ: «أُم أبيها» رواه الطبراني، وما قاله ﷺ: «إن الله يرضى لرضاها ويغضب لغضبها» كما رواه الطبراني بإسناد حسن، وما عوذها به عند دخولها على علي رضي الله عنه: «إني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم» كما رواه الطبراني.

ملأ الله بالنور قلوبنا، وجعل لنا نوراً عن أيماننا وشمائلنا ومن بين أيدينا ومن خلفنا ومن فوقنا ومن تحتنا، إنه سميع مجيب الدعاء، وأسأله تعالى أن يلهمنا حب رسول الله ﷺ ومودة آله وذريته.

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه الأبيات أرفعها إلى مقام سيدتي البتول فاطمة الزهراء رضي الله عنها ، وجمعنا بها في الآخرة .

لا وربـــي ، وربِّ طـــه أبيــكِ ... لا يطيب المديـــــح إلاَّ فيكِ

بضـــعةُ المصطفى وللجزء حُكم ... الكُلِّ يُرضـيه كلُّ مـــا يرضيكِ

فِلذةٌ منه في المشــاعر والإحساس ... يؤذيه كـــــلُّ مـــا يؤذيكِ

إن بدت مســــحة من الحزن يوماً ... في محياك شوهدت فـــي أبيك

وحــــدة الذات لم ينلها انفصام ... وهو ســــر ورثته فـــي بنيك

أنت شــــبه النبي في كل شيء ... يشــهدون النبي إن شــاهدوك

أنت ريحــــــانة النبي إذا ما ... شـــمها ســر كيف لا يدنيك

حينمــــا تقبلين ينهض مسرورا ... ومن بحـــر عطــفه يرويك

رتبة دونهــــا المراتب في القرب ... وفضــــل من الإلــه المليك

لـــــو أحبـــوا أبــاك حقــاً ... أحبوك ويقليه كـــل من يقليك

ضرب المصطفى بك المثل الأعلى ... وهذا التفضـيل ، لو أنصــفوك

قد قضى الله أن يتم بكــــم نور ... هداه . . بالرغـم من شــانئيك

أنت كالبحــــر في العطاء وأولا دك كالــدر مالئاً شـــــاطيك

قد دعـــا المصطفى بأن يخرج الله ... كثيراً من نســـــلك المبروك

فكأني به يهمـــهم يدعـــــو ... في لــــيالي الزفاف إذ يحبوك

بدعــــاء الأب الشفيق ويولي ... زوجـــك المرتضى بما يوليك

أنت آثرته بخبز وقـــــد جاع ... ثلاثـــــاً وليس بالمنهوك

وبلا خادم صـــبرت على البيت ... فبالصبر دائماً يوصـــــيك

والرحـى أثرت بكفيك لو تدري   الرحى من تمسـها تفديك

وأسـر النبي في ساعة الكرب   فأبكاك ما الذي يبكـيك؟

قـد ألفت الحياة بالقرب منه   فتأثرت بالفـراق الوشـيك

ثم أدنـاك ثانياً فتبسمت   فهذا أبوك يسـترضيك

باللحاق السـريع بعد شهور   كل شـيء يهون بعد أبيك

تلك والله رتبـة ومقام   لا يسامى. سـبحانه معطيك

فهنيـئاً أم الحسين هنيئاً   وحناناً أمـاه إنا بنوك

أو تنسـيك جنة الخلد أولادك   حاشـا، وإن همو قد نسوك

فاسـألي الله أن يمن علينا   بالرضى. في السكون والتحريك

واذكريـنا عند النبى فإنا   قد بعدنا عن سـيره والسلوك

غير أنا نخـاف قولة طه   اعملي فـاطم فلا أغنيك

قد وقاك شرور يوم عـبوس   وسـروراً ونضرة يجزيك

ولكـم يعقد اللواء وفي ظل   ظليل إلهـنا يؤويك

فإذا رفـرف اللواء عليكم   فاذكـرى من تخلفوا من بنيك

واذكرينا إذا وردت على الحوض   لنسـقى بكف من يسقيك

فعسـى الله أن يمن برؤياك   وفينـا ما ترضين يريك

وسـلام عليك في كل حين   يتغشـاك من لدن باريك

ما همـى ماطرٌ وما قال حادٍ   لا يطيب المديـح إلاَّ فيكِ

عبد القادر الجيلاني بن سالم

بن علوي خرد

*****

بسم الله الرحمن الرحيم

وهذه قصيدة في مدح الزهراء للشيخ عيسى بن عبد الله بن محمد بن مانع الحميري في رحاب الزهراء.

زهراء منك توطنت أحشائي ... وتواجدت روحي ورقّ صفائي
ياقوتة برزت بسر معية ... فاقت على التعبير والإملاء
يا رحمة المولى حظيتِ برفعة ... سطعت على الأجيال والأرجاء
خلُدتْ معاني الفضل فيك وأشرقت ... أنوارُ طه فيكِ بالأبناءِ
وتكحّلتْ عينُ الزمان ببهجةٍ ... لتضيء ما بالروحِ والأحشاءِ
وسَرَتْ معاني الصدقِ في كُنهِ التُّقى ... جادَتْ به في الدهر للصلحاءِ
وحباك رب البيت بالسر الذي ... قد جيزَ للأبناء بالآباءِ
يا بهجةَ الأكوان أنت وفجرُها ... أشرقتِ في الأزمان بالأضواءِ
والمجدَ حقاً قد شملْتِ وعزةً ... وعزاً يفوقُ مطالع الجوزاءِ
واختُرت للتقوى أمينة ملكهِ ... قدراً برفعة ذاتكِ الشماءِ
بنتَ الرسول وأمَّ رباتِ الحجا ... فيك استقام الحق في الظلماءِ
واقمْتِ في كل الربوع سفيرة ... في زينبٍ وسكينةَ العذراءِ
وبنوك في كل البقاع ذخيرةٌ ... وملاذ وصل صادق الإعطاء
نُزِّهتِ عن غرض المظاهر كلها ... وكذاك من يُختارُ للعلياءِ

وحقائق التمكين عندك أمرُها يا خاتمَ التمكين للأحياءِ

يا آية الرحمن عزك باذخٌ طُويَ اللوا في سرك اللألاءِ

فبرزت للأكوان مظهر قدرة من بَعْثَة الإرسال بالإسراء

وغدوت أمَّ المجد أمَّ سعادة ناموسها بالشرعة الغراء

يا نعمةُ زنْتِ القلوبَ بنظرةٍ دعوت قلباً غُلَّ بالأهواءِ

وملأتهِ بالنورِ حباً دافقاً وحفظتهِ من نظرة الأعداء

وشفيتهِ من كلِ داءٍ قاتلٍ وسقيتهِ كأسَ الهوى بشفاء

أغنيتهِ بالقرب منك حقيقةً ورعيته في صحبة وولاء

وشملتهُ بتحنُنٍ وتعطفٍ كتعطُفِ الأبوين في الإدناء

ورقى إلى العليا محبُكِ ناظراً لحقيقة منك على استحياء

هل في المودة والحنان قرابةٌ أم يا ترى هي قربة الأجواء

والعُذر عندك والسجايا جمةٌ يا بنتَ خير الخلق في الآلاء

إن جاد قولي في المديح بحبكم فلقد غمرتم خاطري بسخاء

والحقُّ حقٌّ، والحقيقةُ غادةٌ ترمى بسهم الحب من عذراء

والصدقُ سيرُ والأمومةُ موردٌ في الحبِّ والأنساب والأشياء

يا ناطقاً بالحقِّ انبىء خاطري عن سر قرب في لقا الزهراء

المصادر والمراجع

* إتحاف الورى بأخبار أم القرى
* أخبار مكة ، الأزرقي
* أسباب النزول ، جلال الدين السيوطي .
* أسباب النزول ، علي بن أحمد الواحدي .
* الاستيعاب ، ابن عبد البر .
* أسد الغابة ، ابن الأثير الجزري .
* الأعلام ، خير الدين الزركلي .
* أعلام النساء ، عمر رضا كحالة .
* أم المؤمنين خديجة بنت خويلد ، إبراهيم محمد الجمل .
* البداية والنهاية ، لابن كثير .
* تاريخ الأمم والملوك ، ابن جرير الطبري .
* تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس ، حسين بن أحمد الديار بكري .
* تاريخ عمر بن الخطاب ، ابن الجوزي .
* تراجم سيدات بيت النبوة ، د . بنت الشاطىء .
* الترغيب والترهيب ، المنذري .
* تفسير القرآن العظيم . ابن كثير
* حلية الأولياء ، أبو نعيم الأصفهاني .
* خديجة بنت خويلد ، محمد علي قطب .
* الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، للسيوطي .
* الرحيق المختوم (في السيرة النبوية) ، صفي الدين المباركفوري .

* الروض الأنف ، السهيلي .
* زاد المعاد، ابن قيم الجوزية .
* الزهراء ، عبد الزهراء عثمان محمد .
* ساكنة الجنان أمنا الرؤوم خديجة ، د. عاطف لماضة .
* سبل الهدى والرشاد ، الصالحي الشامي .
* السمط الثمين ، المحب الطبري .
* سنن الترمذي .
* سنن الدارمي .
* السنن الكبرى ، البيهقي .
* السيدة فاطمة الزهراء ، أحمد فهمي محمد .
* سيدة نساء أهل الجنة ، فاطمة الزهراء ، المناوي .
* سير أعلام النبلاء ، الذهبي .
* السيرة النبوية ، ابن هشام .
* السيرة الهاشمية .
* شرح الزرقاني على المواهب ، الإمام الزرقاني .
* شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، محمد بن أحمد التقي الفاسي .
* صحيح الإمام البخاري .
* صحيح الإمام مسلم .
* الطبقات الكبرى ، ابن سعد .
* العواصم من القواصم ، لأبي بكر بن العربي .
* فاطمة بنت محمد ﷺ ، عبد الخالق حسن عبد الوهاب .
*فاطمة الزهراء ، توفيق أبو علم .

* فاطمة الزاهراء والفاطميون ، عباس محمود العقاد .
* فتح الباري ، ابن حجر العسقلاني .
* فضائل فاطمة ، عمر بن شاهين مخطوطة . (مصورة عن نسخة الظاهرية) .
* فضائل فاطمة ، عمر بن شاهين ، تحقيق اسحاق الجويني .
* فقه السيرة ، محمد الغزالي .
* فيض القدير ، المناوي .
* في ظلال القرآن ، سيد قطب .
* الكامل في التاريخ ، ابن الأثير الجزري .
* كنز العمال ، المتقي الهندي .
* اللؤلؤ والمرجان ، محمد فؤاد عبد الباقي .
* مجمع الزوائد ، أبو بكر الهيثمي .
* المرتضى سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، أبو الحسن الندوي .
* المسند ، الإمام أحمد بن حنبل .
* المعجم الكبير ، الطبراني .
* المغازي ، الواقدي .

نصح بالرجوع إلى المصادر التالية ، لمن أراد الاستزاده في البحث .

* الأخبار الطوال ، لأبي حنيفة الدينوري .
* الإعلام بتاريخ الإسلام ، لابن قاضي شهبة .
* أمالي المرتضى ، للشريف المرتضى .
* إمتاع الأسماع ، للمقريزي .

* أمهات النبي، لمحمد بن حبيب.

* أنساب الأشراف، للبلاذري.

* إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، (السيرة الحلبية) لبرهان الدين الحلبي.

* البدء والتاريخ، لأحمد بن سهل البلخي.

* تاريخ الإسلام، للذهبي.

* تهذيب الأسماء واللغات، للنووي.

* تهذيب التهذيب، لابن حجر.

* تهذيب الكمال، للمزي.

* الثغور الباسمة في مناقب فاطمة، للسيوطي.

* جمهرة أنساب العرب، لابن حزم.

* الدرر البهية والجواهر السنية في الفروع الحسنية والحسينية، لإدريس بن أحمد الحسيني.

* الدر المنثور في طبقات ربات الخدور، زينب فواز.

* ذيل المذيل في تاريخ الصحابة والتابعين، لابن جرير الطبري.

* صفة الصفوة، لابن الجوزي.

* العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، لتقي الدين الفاسي.

* عيون الأثر، لابن سيد الناس.

* فاطمة بنت محمد، عمر أبو النصر.

* نسب قريش، للمصعب الزبيري.

* نهاية الأرب(الأجزاء ١٥-١٩)، للنويري.

الفهرس

*****

صدر للمؤلف

١ ـ علموا أولادكم محبة رسول الله ﷺ
٢ ـ علموا أولادكم محبة آل بيت النبي ﷺ
٣ ـ بأبي أنت وأمي يا رسول الله ﷺ
٤ ـ هكذا صام رسول الله ﷺ
٥ ـ هكذا حج رسول الله ﷺ
٦ ـ المعادلة الحرجة في حياة الأمة الإسلامية
٧ ـ حوار مع البهائيين
٨ ـ البابية
٩ ـ أفريقيا لماذا؟ لا تضيعوا أفريقيا كما ضاعت الأندلس
١٠ ـ للعقلاء فقط ١ ـ ٢
١١ ـ قادم من بكين : الإسلام بخير
١٢ ـ وكشفت أزمة الخليج عوراتنا
١٣ ـ نظرات علمية حول غزو الفضاء
١٤ ـ الأطباق الطائرة حقيقة أم خيال
١٥ ـ أقمار الفضاء غزو جديد
١٦ ـ الجيولوجيا الاقتصادية
١٧ ـ وداعاً هالي
١٨ ـ مشرد بلا خطيئة

يصدر قريبا

١ ـ علموا أولادكم محبة صحابة رسول الله ﷺ

٢ ـ قضايا تعليمية

٣ـ الأقليات المسلمة في العالم . . واسلاماه

٤ ـ روسيا والمسلمون ومحنة الانفتاح الجديد

٥ ـ الخليفة الخامس

٦ ـ THE MEANING OF ISLAM

* * * * *